عاصفة الأوراق

وقصص أخرى



Gabriel Garcia Marquez

غابرييل غارسيا ماركيز

Leaf Storm

and other stories

عاصفة الأوراق

وقصص أخرى

ترجمها وقدّم لها

د. فؤاد عبد المطلب **أ. لانا فارس قبق**

عاصفة الأوراق وقصص أخرى

ترجمة وتقديم: د. فؤاد عبد المطلب ـ أ. لانا فارس قبق

سنة الطباعة: ٢٠٠٩.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

لكن بولينيسيس الذي وافته المنية بعد احتضار اليم،
وقالوا : إن أهالي البلدة جميعاً عرفوا ذلك
لكن ما من أحد سيدفنه أو ينوح عليه.
ليبقى في العراء؛ لا دمعة تذرف عليه، ولا قبر يأويه،
مشهداً غنياً مثيراً
للطيور الجائعة التي تراه، وقالوا : إنّ أوامر مثل هذه
أصدرها كريون العزيز
إليك وإليّ- نعم، نعم، أقول؛ وإليّ أيضاً –
والذي سيقوم بتوضيح الأمر
لأولئك الذين يجهلونه
أكثر من ذلك: إنّ هذا الأمر مهمٌّ جداً بالنسبة إليه
فكل من يجرؤ على تجاوزه
سيموت رجماً بالحجارة أمام البلدة كلِّها .

أنتيغوني

مقدمة

ولد غابرييل غارسيا ماركيز في ٦ آذار عام ١٩٢٨ في قرية استوائية تدعى "أركاتاكا" الواقعة على ساحل كولومبيا الكاريبي، في بيت الكولونيل ماركيز الميسور الحال، والجدّ الذي ترعرع في كنفه غابرييل. لم تكن القرية تدرك أنّ هذا المولود سيكون الكاتب الناجح الذي سيعيد كتابة تاريخها المدفون تحت الحجارة البيضاء، وأنها ستصبح ذائعة الصيت بفضل نثره الأدبي. وفي فناء ذلك البيت، استمع غابرييل منذ طفولته إلى الحكايات والقصص الشعبية التي كانت ترويها له جدته، فساهم ذلك في صقل موهبته منذ البداية، ثم انعكس في أسلوب السرد في كتاباته القصصيّة والروائيّة، ذلك الأسلوب الذي لا يعرف التوقف.

التحق ماركيز بالجامعة الوطنية في بوغوتا عاصمة كولومبيا، وأنهى دراسة الحقوق، ولكنه لم يزاول اختصاصه، فقد كان مولعاً منذ البداية بعالم السينما والأدب والصحافة. وفي الثامنة عشرة من عمره نشر أول قصّة قصيرة له في جريدة "اسبكتادور" اليساريّة. وفي تلك الحقبة كان يقرأ بشغف أعمال فرانز كافكا، وانضم إلى هيئة تحرير اسبكتادور، وبدأ يعيش من كسب يده. ثم أرسلته الجريدة عام ١٩٥٤ إلى إيطاليا لينقل الانطباعات المباشرة عن موت البابا بيوس الثاني عشر،

إذ انتشر اعتقاد بقرب موته. بيد أنّ الموت تأخر سنوات، فبعث ماركيز بتعليقات حول مواضيع أخرى ليؤخر عودته إلى كولومبيا.

ولكنّ أوروبا أعجبت ماركيز بحيويتها وسحرها وحضارتها. وبعد أن أغلق النظام الديكتاتوري في كولومبيا جريدة "اسبكتادور" انقطع المورد الذي كان يؤمّن له حياة الكفاف في أوروبا. فصرف كل ما ادّخر عاكفاً على كتابة روايته الثانية "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه"، وأخذ بعدها يتنقل بين ربوع أوروبا، فتعرّف شعوب أوروبا الشرقيّة، وحاور شخصّيات عديدة متباينة في الفكر والطباع. وسافر إلى فرنسا التي عجز عن فهم لغتها، فعاش فيها حياة شقاء وكفاف اضطر فيها إلى جمع الزجاجات الفارغة وبيعها. وقد ظل ثلاث سنوات يعيش كما قال من المعجزة اليومية بينما تنمو في أعماقه مرارة هائلة. وكان يراقب المدن الفرنسية عن كثب، ويقوم بتخزين صور وذكريات ومعارف كان لها لونها وخصوصيّتها. وبعدها غادر إلى برشلونة، فأمضى فيها عشر سنوات، كتب فيها روايته "خريف البطريرك". ومما يجدر ذكره هنا أن أحد الصحفيين سأله: ما الذي جاء بك إلى إسبانيا في عهد الديكتاتور فرانكو هارباً من ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية؟ فأجاب: "إن السبب الأهم استخدامي لفرانكو كنموذج لخلق شخصية الديكتاتور في روايتي "خريف البطريرك".

التحق بمعهد لدراسة إدارة الإنتاج السينمائي، مما أتاح له أن يطّلع على النشاط السينمائي الأوروبيّ.

تزوج غابرييل عام ١٩٥٨ من "مرسيدس" التي ظلت تنتظر عودته أربعة أعوام. وعمل في الصحافة في كاراكاس، حيث أنهى جزءاً من رواية "جنازة الأم العظيمة"، واختاره كاسترو بعد دخوله هافانا، لينشئ مكتباً لوكالة الأنباء الكوبية الجديدة "برانسالاتينا" في بوغوتا، وليكون مديرها. وقد مثّل "برانسالاتينا" في الاجتماع الخامس عشر لجمعية الأمم المتحدة، ولكنه استقال بعدئذ ليتفرّغ لمؤلفاته الأدبيّة والفنيّة. وفي عام ١٩٦٠ حين استدعته إدارة الوكالة إلى هافانا للتشاور، تعرّف "تشي غيفارا" فقامت بينهما صداقة حميمة، نمّتها وقوّتها الأفكار المشتركة بينهما؛ فقد كان غابرييل ماركيز مرتبطاً معنوياً بقضية الشباب الأمريكيّ اللاتينيّ الذي يؤمن بالحرية والمساواة، ويرفض الطغيان، ويؤيد نضال فيدل كاسترو وأرنستو تشي غيفارا إلى أبعد الحدود.

وصل إلى المكسيك عام ١٩٦١ وليس في جيبه إلا مئة دولار، ولكنّ اليسار المكسيكي وقف إلى جانبه، وساعده ريثما تتحسّن أوضاعه، واختار له سكناً في إحدى الضواحي الجميلة. وفي ذلك السكن، أنهى بعض رواياته، ودفع روايته "الأزمنة الصعبة" إلى المطبعة، ونال عدة جوائز أدبية، واختيرت قصته "لا لصوص في هذه المدينة" موضوعاً لفيلم عُرض في مهرجان لوكارنو عام ١٩٦٥. فانصرف غابرييل إلى كتابة السيناريوهات لأفلام الموجة الحديثة، ولكنّه لم يتوقف أبداً عن استخدام الماضي في كتابة الرواية.

ومما ينبغي الإشارة إليه، أن "ماكوندو" القرية أو المدينة التي تقع في طرف من أطراف كولومبيا المنسيّة هي قاسم مشترك في رواياته، فهي المكان الذي تجري فيه معظم الأحداث في رواياته حتى عام ١٩٦٧، عام صدور روايته "مئة عام من العزلة" التي تُعدّ قمّة أعماله الروائية، ومنها بلغ القمّة في تجسيده الحياة في "ماكوندو". لقد انسحب ظل "ماكوندو" على أعمال ماركيز الروائيّة والقصصيّة. فما "ماكوندو" في الواقع العياني؟ أهي قريته "أراكاتاكا"؟ أهي كولومبيا؟ أهي أمريكا اللاتينية؟ فقد تضاربت الآراء والنظريات حول جوهر هذا المكان، الذي تتحرك فيه الشخصيات، وتتعاقب أو تتزامن الأحداث بطريقة تصبح فيه مسرحاً للحياة الفعلية.

فهل "ماكوندو" كيان موجود حقيقة أم مادة روائية من ابتكار ماركيز، نسج خيوطها من مخّيلته الإبداعيّة؟

يقول أحد نقاد ماركيز: "ماكوندو هي كلّ مكان، ولا مكان... ماكوندو مثل أيّ سراب، تحيا في عالم من الكوابيس. هي وهمٌ وهي حقيقة. ماكوندو ليست مكاناً، بقدر ما هي حالةٌ فكرية. وهل يمكن لقرية أو مدينة أن تصبح حالةً فكرية؟ إنْ لم يكن كذلك، فلماذا تطالعنا ماكوندو في آثار ماركيز كلهّا؟ ولماذا تتمتع بهذه الصفة الآسرة والديمومة المهيمنة على أفكار ماركيز، حتى ليختلط علينا الأمر بين أن تكون مكاناً جغرافياً أو فكرة واقعية أو سراباً وهمياً.

وعلى الرغم من إحساسنا بسرابيّة ماكوندو، فإننا نجدها ضاربة في

الواقع الاجتماعي ومتجذرة فيه، في كلّ شخص، وكلّ شجرة، وكلّ بيت، وكلّ حبة تراب، حتى في الجو والهواء نجد صورة لها تنعكس على نحو ما. إنّ ما يسترعي انتباهنا كقرّاء أنّ إنسان ماكوندو، هو صورة حيّة عن إنسان أمريكا اللاتينية كلها، في همومه وحيويته، نجاحه وفشله، مآسيه وأفراحه، انهزامه وانتصاره، إيمانه وخرافاته، ضعف إرادته وتحدّيه للخطر.

حقاً لم تُولد "ماكوندو" من الفراغ، فهي اسم لمزرعة تجاور قريته الصغيرة "أركاتاكا" والشيء الذي ابتدعه ماركيز أنّه أعاد صياغتها، فجعلها قرية مأهولة بالسكان، ففتح بذلك باباً واسعاً للكتابة والإبداع، فمزج الواقع بالأسطورة، والمحتمل بالسحريّ، والأزليّ بالتاريخي، والديني بالدنيوي. فقد كانت "ماكوندو" قرية مؤلفّة من عشرين منزلاً من اللِبن والقصب. بُنيت على ضفة نهر، والأشياء فيها بلا أسماء، وتعود إلى ما قبل التاريخ. ثم أصبحت القرية دلالة مميزة من حيث مكان روايات ماركيز وزمانه وقصصه. وتتجلى هذه الصورة على نحو واضح في رواية "مئة عام من العزلة"، التي بدأ ماركيز كتابتها، وهو في السابعة عشرة من عمره، ولكنها لم تكتمل إلا عام ١٩٦٧.

كتب ماركيز خلال ذلك الكثير من القصص والروايات، وظلتّ هذه الرواية في أعماقه، تظهر حيناً، وتختفي حيناً آخر، تغتني بالتجارب والأفكار، وترفض أن تولد إلا مكتملة.

وحين وُلدت كانت تحمل في طياتها الواقع الحقيقي، ملخصةً تجارب

مـاركيز الفنيّـة والفكريّـة، ومرتقيـة بـه إلى مصـافّ كتّـاب الروايـة العالميين. ومع ذلك، كان لإلتزام ماركيز بقضايا مجتمعه، والإنسان في العالم كلهّ، هو القضية الأساسية في كلّ ما كتب، وإن استخدم في التعبير عنها أساليب فنيّة جعلته متميزاً بين كتّاب العصر الحديث.

عندما أُعلن في وقت متأخر فوز غابرييل ماركيز بجائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٢، كانت أعماله قد تُرجمت إلى لغات عديدة، وكان عدد كبير من المهتمين العرب قد قرؤوا روايته العظيمة "مئة عام من العزلة" التي عُدّت أهم رواية صدرت باللغة الإسبانية بعد رواية سرفانتس "دون كيشوت".

ولقد تميّز ماركيز بوفرة نشاطه في كتابات السيناريو، والتحقيقات الصحفية السياسية المواضيع والشاعرية الطابع، فمنذ سنوات، وهو ينشر في صحف أمريكية لاتينية وإسبانية مقالاً إسبوعياً يشدّ القرّاء بأفكاره ورشاقة أسلوبه وجاذبيته. كما كتب ملاحظات نقديّة حول الاتجاهات الأدبيّة في القارة، وهي بمثابة حواراتٍ أدبيّة وفكريّة بين النقاد والأدباء، بالإضافة إلى القصص القصيرة والروايات، التي سنتطرق إلى بعض ما يهمّنا منها. فقد صدرت قصتاه القصيرتان "أجمل رجل غريق في العالم" و"العجوز العظيم الأجنحة" عام ١٩٦٨، كحكايات للأطفال، وفي العام نفسه، كتب القصتين "الساحر الطيب، صانع المعجزات"و "الرحلة الأخيرة للسفينة الشبح"، أما قصة "نابو" فإنها صدرت عام ١٩٥١ وتلتها "مناجاة إيزابيل وهي تراقب السماء تمطر في ماكوندو" عام ١٩٥٥. أما

أول رواية تصدر له فقد كانت بعنوان "عاصفة الأوراق" عام ١٩٥٥، وهي تُعدّ من الروايات القصيرة (النوفوليتي).

تعالج أحداث الرواية الأولى قصة زراعة الموز ودور الشركات الاحتكارية، وهو موضوع يعود إلى الظهور في رواية "مئة عام من العزلة" فيما بعد. يجعل ماركيز من "ماكوندو" في رواية "عاصفة الأوراق"، مكاناً يتمتّع بوجود خاص، رغم شبهها بمكان ولادته، ليحقّق له غرضه الأدبيّ؛ ففي هذه الرواية، يجد المؤلف مجالاً لإظهار براعته الأدبية، ويحاول معرفة العلاقة بين حياة سكان مكان ما وسلوكهم وبين النظام الاجتماعي والسياسي السائد، وهذا ما يظهر أيضاً في أحداث قصصه القصيرة المغمورة. ويستخدم ماركيز في رواية "عاصفة الأوراق" المونولوجات الفوكنريّة الثلاثة، حيث البطل مدينة صغيرة بعيدة ومنعزلة، منقسمة بالخلافات والتناقضات القديمة، أرض جديرة بالتصديق، بكل ما فيها من غرائب؛ كما أن ماركيز يوغل في تصوير شخصية البطل المنعزلة بإعجاب شديد، والمتعجرفة، والتي يأكلها الكبرياء، التي تعيش في حالة تردّد وارتياب من مواجهة المجتمع الذي يحيط بها. كما أن الطبيب الذي أعدّت جنازته في بداية الرواية يظل صورة غامضة ومبهمة، إنه ذلك الغريب الذي يصل إلى مدينة صغيرة، ماكوندو، كي يزاول مهنة التطبيب، وفجأة يختفي زبائنه مع وصول شركة الموز مع الأطباء الذين كانوا على ما يبدو أبرع منه. ويقفل الطبيب الأبواب في عزلة إرادية، وعندما تغادر شركة الموز المدينة، وتنشب الحرب الأهلية يرفض

الاعتناء بالجرحى ومعالجة المرضى، ويرفض حتى الاعتناء بالمرأة الهندية التي كانت على علاقة عاطفية غير شرعية معه وهي تحمل منه، والتي تختفي فجأة في ظروف غامضة، ويحمّل مسؤولية اختفائها أو قتلها. ويعيش الطبيب والمدينة حالة من الحقد المتبادل فترة طويلة من الزمن، ويركز ماركيز على سردية شخصية الكولونيل الذي يعده بدفن لائق حين وفاته متحدياً البلدة جميعها في إنجاز وعده الذي قطعه للطبيب.

يركّز غابرييل ماركيز اهتمامه الرئيس في المشكلة الحقيقية، حول الشخصية التي تعيش ضمن مجتمع جائر، ويتجلّى هذا الموضوع دائماً في قصصه القصيرة. ويحاول ماركيز بصراحة وجرأة النفاذ إلى أسرار ماكوندو العميقة، فيطرح ويحلّل ويكشف عن المعتقدات والأفكار التي تخالج سكانها حول أنفسهم وحول الآخرين، من خلال تقديم صورة إنسانية واجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية للبلدة، دون إعطاء إجابات أو حلول نهائية حول القضايا التي يتناولها.

إن عالم غابرييل غارسيا ماركيز مفعم بالحياة النشطة النابضة في البشر والأبطال والبيوت والأشجار والزهور والبحار وشركات الموز والمعجزات والسحر والغرائب التي تقبلها جميعها برضى وقناعة. ففي قصة "أجمل رجل غريق في العالم" مثلاً يظهر فقر أهل القرية عندما يجسدون أحلامهم في جسد رجل غريق وجدوه على شاطىء قريتهم. فقد رأت فيه نساء القرية أجمل رجل في العالم، وأكثر الرجال فحولة ونبلاً وعظمة، فيتبارين في إعداد الملابس اللائقة لدفنه، وفي جمع الزهور لتزيين

جثمانه، ولم يكن في بال الهن أو بال القرية أن مصيره سينتهي بإلقائه في البحر. وفي اللحظة الحاسمة يحسون بالألم لأنهم سيعيدونه إلى الماء كشخص يتيم، فيختارون له أباً وأماً من أفضل الناس في القرية، وعمّات وأعماماً وأبناء عمومة، وبهذه الطريقة يغدو جميع سكان القرية أقارب. فالقرية كلها تقع في حب جثمان هذا الرجل الغريق. ولسوف تُخلّد القرية ذكراه بعد إلقاء "استيبان" في البحر، وستتكسر ظهورهم وهم يحفرون الأرض بحثاً عن عيون الماء وسط الصخور، ويزرعون الزهور على منحدرات الجبال، وبذلك يمكن للمسافرين على البواخر الكبيرة العابرة في السنين القادمة، أن يستيقظوا عند الفجر، فينسلّ عبير الحدائق إليهم وهم في عرض البحر، ولسوف يشير القبطان إلى القمم المزروعة بالورود وسط الأفق، ويقول في أربع عشرة لغة، انظروا هناك، حيث الرياح ساكنة وهادئة الآن، لأنها هاجعة تحت الأسرّة، هناك عالياً، حيث تسطع الشمس ببريقها الذهبيّ حتى إنّ أزهار عبّاد الشمس، لا تعرف إلى أي طريق تدير وجهها. نعم هناك عالياً، تلك قرية "أستيبان".

لقد نُشرت هذه القصص الموجودة بين دفتّي هذه المجموعة مع الرواية بالإنكليزية في كتاب بعنوان "عاصفة الأوراق وقصص أخرى" لغابرييل غارسيا ماركيز ضمن مطبوعات بيكادور، ترجمها عن الإسبانية غريغوري راباس والتي صدرت في لندن عام ١٩٧٩.

من دون شك أن الترجمة ليست مجرّد عملية نقل لغويّ لعمل في لغة معينة إلى لغة أخرى، فالترجمة عمليّة معّقدة تنطوي - بالإضافة إلى سعة

الاضطلاع بلغتين - على فهم للأدب والثقافة الحاملة لكلٍّ من هاتين اللغتين. ولا ندعي إلماماً مترامياً بهذه العناصر مجتمعةً، ولكنْ حسبنا أنّنا حاولنا قدر الإمكان الاقتراب مما هو مطلوب على هذا الصعيد. وبالطبع يبقى الكمال هدفاً صعباً خصوصاً في حقل يتسّم بالاحتمال والتجريب، ونقصد حقل الترجمة الأدبيّة. وقبل البدء بترجمة هذه المجموعة من القصص القصيرة مع الرواية شغلنا أمر أساسي، وهو صعوبة فهم النص الماركيزيّ وترجمته على نحو معقول، فهذا النص يتّسم بخصائص فنيّة وتوجّهات فكريّة خاصّة وجذّابة إلى حدٍّ كبير. فهناك أحياناً جمل قصيرة جدّاً لا تتجاوز بضع كلمات، وأحياناً جملٌ طويلة جداً تبدأ في منتصف صفحة لتنتهي في الصفحة التالية، وقد تتجاوز الجملة ذلك كما في قصة "الرحلة الأخيرة للسفينة الشبح" لتكون بدايتها بداية القصة ونهايتها نهاية القصة، أي أن القصة تصبح من بدايتها إلى نهايتها جملة واحدة في النص الإنكليزي، لذلك حرصنا على عدم نقل ذلك الاستطراد الطويل، فقمنا في مواضع عدة بقسم الجملة الطويلة إلى عدّة جمل بما يتناسب والترجمة العربية. ونص ماركيز أيضاً مفعم بالإشارات الدينيّة أو الأسطوريّة أو الاجتماعيّة أو السياسيّة المستمدّة من عمق بيئته المحليّة، لكنها ذات مدلول إنسانيّ وعالميّ واسع. إذ تشغل خيال هذا المبدع، الذي يُعدُّ أحد أهم مبدعي القصّة والرواية في العالم، أفكار وهواجس وقيمٌ ناجمة عن صراع الإنسان مع ذاته وبيئته والطبيعة، مما يؤدي إلى إغناء التجربة الإنسانية والفنية. هذا ولمزيد من الإضاءة على النصوص المترجمة ارتأينا

إيراد نبذة عن سيرة حياة الكاتب إضافة إلى شيء عن أعماله. وفيما يخص تناولنا النصّ وطريقة الترجمة حاولنا ألا نستسلم للترجمة الحرْفيّة فيذهب جمال النص وانسياب أجزائه، ولا أن نركن لتصرّف جامح يجعل العمل إنشائياً خاصاً بنا، ويذهب بخصوصية هدف إليها الكاتب. وارتأينا - ما أمكن - أن ننقل إلى القارىء ما رغب كاتب النص أن ينقله إلى قارئه سواءٌ من حيث الأسلوب أو المضمون، متجرّئين في بعض الأماكن على نقل بعض التراكيب في النص الإنكليزي، إلى تراكيب يمكن أن تساعد تناسق الكلمات أو نسق العبارات بلونيّة مقبولة، محاولين في الوقت نفسه نبذ ما رأيناه يتنافى واللسان العربيّ. وحسبنا أنّنا حاولنا الترجمة بنيّة هاجسها تعرّف مجموعة من الأعمال الأدبيّة المتميّزة التي كتبها أحد أهمّ الكتّاب المرموقين في العالم.

ا تر ان

أجمل رجل غريق في العالم

كانت مجموعة الأولاد أوّل من رأت ذلك النتوء الداكن اللون، المتسلل خلسةً عبر مياه البحر، فظنّته سفينة من سفن الأعداء. ثم لمّا لم ترَ أعلاماً ولا صواري، خمّنت أنّه ربّما يكون حوتاً، لكن عندما جُرّ ذلك الشيء إلى الشاطىء، ونزع الأولاد عنه ما علق به من الطحالب والقناديل البحرية وبقايا السمك وأشياء عائمة أخرى تأكدوا أنّه ليس إلاّ رجلاً غريقاً، وهكذا أمضى الأولاد فترة ما بعد الظهيرة كلّها وهم يلعبون به، كانوا يدفنونه في الرمال تارةً، ثم يزيلونها عنه تارةً أخرى، فصادف أن رآهم أحد المارة من القرية ونشر الخبر. ولاحظ الرجال الذين حملوه إلى أقرب منزل أنّه كان يزن أكثر من أي رجل ميت كانوا قد رأوه من قبل، إذ كان وزنه يقترب من وزن الحصان، وقالوا فيما بينهم: إنه كذلك ربما لأنه كان عائماً لفترة طويلة في البحر، فقد تسرّبت المياه إليه حتى دخلت عظامه. وعندما وضعوه على الأرض، قالوا إنه أطول الرجال على الإطلاق، لأنّ المنزل بصعوبة كاد يتسع له، مما جعلهم يعتقدون أن إمكانية النمو بعد الموت قد تكون جزءاً من طبيعة بعض الغرقى. كانت تفوح منه رائحة البحر، وشكله فقط هو الذي يجعل المرء يفترض أنّه كان جثة لكائن بشري لأنّ جلده كان مغطىً بطبقة من الوحل وحراشف السمك غير أنّهم لم يكونوا بحاجة إلى تنظيف وجهه ليدركوا

أنّ هذا الميت كان رجلاً غريباً. كانت القرية تتألف من عشرين منزلاً خشبياً منعزلاً. وكان لهذه المنازل باحات حجرّية خالية من الزهور تمتد حتى نهاية رأس شبه صحراوي داخل البحر. كانت الأرض صغيرة المساحة حيث إن الأمهات كن يخفن من أن تعصف الرياح فتقذف بأبنائهن وببعض الميتين ممن تخطفتهم يد السنين من بينهم إلى عرض البحر. لكن البحر كان هادئاً ومعطاءً وقد توزع الرجال جميعاً في سبعة قوارب. لذلك عندما وقع نظرهم على الرجل الغريق كان عليهم فقط أن ينظر بعضهم إلى بعض، ليروا أنهم موجودون جميعاً.

لم يخرجوا تلك الليلة إلى عملهم في البحر، خرج الرجال ليكتشفوا فيما إذا فُقد أحد ما في القرى المجاورة بينما بقيت النسوة بجوار الغريق أزحن الوحل عنه بمماسح مصنوعة من العشب، ونزعن الحجارة البحريّة الصغيرة التي تداخلت في شعره وكشطن جسمه بأدوات تنظيف السمك. وبينما كن يقمن بذلك لاحظن أنّ النباتات العالقة به قد أتت من محيطات بعيدة ذات مياه عميقة، وأنّ ثيابه كانت بالية، وكأنّه قد أبحر عبر متاهات شعب مرجانيّة. ولاحظن أيضاً أنّه كان يحمل موته بكبرياء، لأنه لم تكن على وجهه تلك النظرة الموحشة لبعض الغرقى الذين لفظهم البحر، ولا تلك النظرة المنهكة المستغيثة لرجال غرقوا في الأنهار. لكنهن لم يعرفن أيّ نوع من الرجال هو إلا عندما انتهين من تنظيفه، فوقفن مبهورات. كان أطول من رأين من الرجال في حياتهن وأقواهم رجولة وأفضلهم بنية، ولكن بالرغم من أنّهن كن ينظرن إليه لم يكن له وجود

في خيالهن. ولم يكن باستطاعتهن أن يجدن في القرية سريراً كبير الحجم يتسع له، ولم تكن هناك طاولة قوية كما يجب تحمله ليرقد عليها منتظراً دفنه. لم تناسبه أيضاً سراويلات أطول الرجال التي يرتدونها أيام العطل ولا قمصان أكثر الرجال بدانة التي يرتدونها أيام الآحاد، ولا أحذية الرجال الضخام الأقدام، ولما كانت النسوة مفتونات بحجمه الضخم وجماله الأخّاذ، قرّرن أن يصنعن له سراويل من قماش الأشرعة، وقميصاً من الكتان الفاخر بحيث يظل حتى يُوارَى الثرى محتفظاً بكبريائه. وبينما كن يَخطن، وهن جالسات في حلقة دائرية يحدقن بالجثة بين غرزة وأخرى، بدا لهنّ أنّ الرياح لم تكن أبداً قوية هكذا، ولم يكن البحر هائجاً مثل تلك الليلة، واعتقدن أنّ التغيير له علاقة بالغريق الميت، وتخيّلن أنّ هذا الرجل الرائع لو عاش في القرية لكان لمنزله أعرض الأبواب وأعلى السقوف وأقوى الأرضيات، ولكان هيكل سريره قد صُنع من هيكل سفينة، وثُبّت بمسامير حديدية، ولكانت زوجته أسعد الزوجات. وفكّرن أنّه لو عاش في القرية لكان له نفوذ كبير يُمكنّه من اصطياد الأسماك من البحر بمجرد مناداتها بأسمائها ولاستطاع، أيضاً القيام بأعمال كثيرة في أرضه حتى تتفجر الينابيع من بين الصخور، ولتمكّن من زراعة الأزهار حتى على منحدرات الجبال، وسرّاً قارنَّ بينه وبين رجالهن، فوجدن أنّه طيلة حياتهن لم يكن رجالهنّ قادرين على القيام بما يستطيع القيام به، في ليلة واحدة، وانتهين إلى إقصاء أزواجهن في أعماق قلوبهن لكونهم أضعف الكائنات وأحقرها

وأقلها نفعاً على وجه الأرض. كن يطفن في تلك المتاهة من الخيال عندما نظرت أكبر النسوة سنّاً إلى الرجل الغريق نظرة إشفاق أكثر منها نظرة حبّ، وقالت متنهدة: "إن له وجه رجل يدعى استيبان".

كان هذا صحيحاً. كان على معظم النسوة أن يلقين نظرة أخرى عليه فقط ليرين أنه لم يكن بإمكانه أن يحظى باسم آخر غير هذا الاسم، بيدَ أنّ أكثر النسوة عناداً بينهن، وهي الأصغر سناً، ظلّت تعيش بضع ساعات في وهم، فحين ألبسنه ثيابه، وكان نائماً بين الزهور ومنتعلاً حذاءً من الجلد اللمّاع، وقتئذٍ تخيّلت أن اسمه يمكن أن يكون "لوتارو" لكنّ هذا الوهم كان تافهاً. لم يكن لديهن ما يكفي من قماش الأشرعة. فكان سراوله الذي فُصّل على عجل، وخيط بشكل سيء، ضيقاً جداً، كما أن القوة الكامنة في صدره كادت تقطع الأزرار في قميصه. وبعد منتصف الليل هدأ صفير الرياح، وساد البحر هدوءٌ عميق كالهدوء الذي يسوده أيام الأربعاء، ثمّ وضع الصمت نهاية لأية شكوك أخرى: إنّه استيبان. لم تكن النسوة اللواتي ألبسنه ثيابه، ومشّطن شعره، وقلّمن أظافره، وحلقن له قادراتٍ على إخفاء رعشة الشفقة عندما كان عليهن أن يسلّمن بفكرة جرّه، ومواراته الأرض عندها أدركن كم كان تعساً بمثل هذا الجسم الضخم الذي يسبّب له الإزعاج حتى بعد موته. واستطعن تخيّله، وهو حي، وقد حُكم عليه أن يدخل من الأبواب بشكل جانبي، فيصطدم رأسه بالعوارض الخشبية، ويبقى واقفاً أثناء الزيارات لايعرف ماذا يفعل بيديه الناعمتين المتورّدتين

الضخمتين بينما تهمّ سيدة المنزل بالبحث عن أكثر الكراسي مقاومة، وترجوه، وهي خائفة حتى الموت، "اجلس هنا يا استيبان من فضلك، فيبتسم وهو مستند إلى الجدار": لاتهتمي يا سيدتي، إنّني مستريح هكذا "ولقد انسلخ كعبا قدميه واحمرّ ظهره من تكرار القيام بذلك كلما زار أحداً، ولا تهتمي يا سيدتي فأنا بخير حيث أنا" ويقول هذا فقط ليتجنب احتمال كسر الكرسي عندما يجلس عليه، فهو قد لايعلم أبداً أنّ أولئك الذين كانوا يقولون: "لاتذهب استيبان وانتظرْ قليلاً ريثما تجهز القهوة، هم أنفسهم يهمسون فيما بعد: يا لطيف أخيراً غادر ذلك المغفّل الضخم. هذا ما كانت تفكّر به النسوة بالقرب من الجثة قبيل الفجر. وعندما غطّين وجهه بمنديل كي لا يزعجه الضوء بدا ميتاً نهائياً، لا حول له ولا قوة، كرجالهن تماماً، وتفجّرت ينابيع الدموع في قلوبهن، وكانت إحدى النساء الصغيرات السنّ قد بدأت بالبكاء، أما بقية النساء فبدأنَ بالتنهيد، ثم انتهين بالنحيب، وكلما زاد نحيبهن زاد بكاؤهن، وبدا لهنّ أنّ الرجل الغريق هو إستيبان، ولذلك انتحبن كثيراً لأنّه كان أكثر الرجال حرماناً ووداعة ولطفاً على الأرض، إستيبان المسكين. لذلك عندما تأكّد الرجال أن الغريق لم يكن أيضاً من القرى المجاورة شعرت النساء في البداية بالابتهاج في غمرة دموعهن فتنهدنَ قائلات: "مجداً للرب، إنّه ملكنا".

وظنّ الرجال أنّ كل هذه الجلبة ليست إلا من قبيل سخف النساء. ولمّا كان السؤال والتجوال في القرى المجاورة قد أتعب الرجال كلّهم أصبح

جلّ همّهم أن يتخلّصوا من إزعاج ذلك القادم الجديد مرةً واحدة وإلى الأبد قبل أن يشتدّ لهيب الشمس في ذلك اليوم القائظ. فصنعوا محفّةً من بقايا رماح الصيد وخشب الصواري، وثبّتوا بعضها إلى بعض بحبال الأشرعة حتى تتحمّل ثقل الجثة إلى أن يصلوا بها إلى الجروف. ورأوا أن يربطوا به مرساة سفينة كي يغوص بسهولة إلى قاع البحر حيث الأسماك العمياء ومن غاص تلك الأعماق السحيقة طواه النسيان والتيارات القويّة التي لن تسحبه إلى الشاطيء كما حدث لأجساد أخرى. ولكن كلما كانوا يسرعون أكثر كانت النسوة يفكرن بطرق مختلفة لتبديد الوقت، ومشين مثل دجاجات مذعورات، يتذمّرن، وعقود من أصداف البحر على صدورهن، وأخذ بعضهنّ يتدخلن ليضعن وشاحاً لجلب الحظ الطيّب على كتفي الغريق وذهبت أخريات من جهة أخرى ليضعن في معصم يده بوصلة وبعد الكثير من عبارات "ابتعدي من هنا يا امرأة، ابتعدي من الطريق، انظري لقد كدت أقع على رأس الميت" بدأ الرجال يشعرون بعدم الثقة في أعماقهم، وراحوا يتذمرون، ويتساءلون عن سبب كل هذه الزينات التي أُعدت للغريق الغريب، فبالرغم من هذا العدد الكبير من الزينات وقوارير المياه المقدّسة التي وُضعت فوقه، فإن سمك القرش سيلتهمه على كل حال. ولكنّ النسوة استمررن يكدّسنَ تذكاراتهم البالية، وهن يركضن جيئة وذهاباً، ويتعثرن بينما يطلقن بالتنهّدات ما عجزن عن إطلاقه بالدموع حتى انفجر الرجال في النهاية قائلين: "لم نرَ أبداً مثل هذا الصخب لأجل جثة لفظها البحر، جثة غريق مجهول كقطعة من لحم

الأربعاء البارد". وعندها قامت إحدى النسوة، غير مكترثة بشيءٍ فنزعت المنديل عن وجهه، وهنا صُعق الرجال فوقفوا محبوسي الأنفاس. إنه إستيبان. لم يكن ضرورياً أن يكرّروا هذا حتى يتعرّفوه. ولو قيل لهم أنّه السيد "والتر رالي" لأُخذوا بلكنته الغريبة، وبالببغاء على كتفه، وببندقيته لقتل آكلي لحوم البشر. ولكن لا يوجد إلاَّ إستيبان واحد في العالم وها هو ممدّد مثل حوت ضخم حافي القدمين مرتدياً بنطال طفل قياسه صغير، وبأظافره الحجرية التي يجب قصها بسكين لم يكن عليهم إلا إزاحة المنديل عن وجهه ليتبيّنوا أنّه كان خجولاً، وأنها لم تكن غلطته كونه كبيراً جداً وثقيلاً جدّاً، أو حتى وسيماً جداً وأنه لو عرف أن شيئاً كهذا سيحصل لكان اختار مكاناً أكثر عزلة ليغرق فيه. وفي الحقيقة: "كان علي أن أربط مرساة سفينة حول عنقي وأرمي بنفسي من فوق جرف كي لا يتضايق الناس الآن بجسد الأربعاء الميت هذا كما تقولون أنتم، لئلا أزعج أحداً بهذه القطعة النتنة من اللحم البارد التي لا شأن لها بي. كان كلامه يتّصف بالصدق حتى إنّ أكثر الرجال ريبة شعروا بالرجفة تسري داخل عظامهم، أولئك الرجال الذين كانوا يحسّون بوطأة الليالي التي ليس لها نهاية والتي كانوا يقضونها في البحر ينهشهم القلق من أن نساءهم قد يملّون من الحلم بهم، وسيحلمون برجال غرقى، هؤلاء وغيرهم من الرجال الأشدّ قسوة وصلابة منهم أيضاً.

وهكذا جاؤوا ليقيموا أروع جنازة يتخيّلها إنسان لغريق تخلّى عنه الجميع. عادت النسوة اللواتي ذهبن لجلب الزهور من القرى المجاورة،

وبصحبتهن نسوة أخريات لم يصدّقن الخبر، ولكنّ هؤلاء عندما رأين الميت رجعن لجلب المزيد من الزهور، فأحضرن الكثير الكثير، تكوّمت أكداس هائلة من الزهور، واحتشد عدد كبير من الناس فتعذّرت الحركة، وأحسّوا بالألم في اللحظة الأخيرة إذ يعيدونه إلى المياه كشخص يتيم، فاختاروا له أباً وأمّاً من أفاضل الناس وعمّات وأعماماً وأبناء عم، فغدا سكان القرية كافةً أقارب من خلاله، وخرج بعض البحّارة عن صوابهم عندما سمعوا البكاء من بعيد، وسمع الناس عن بحّار ربط نفسه إلى صاري السفينة الكبير متذكّراً الخرافات القديمة عن كائنات أسطوريّة تسحر البحّارة بغنائها فتوردهم الهلاك.

وبينما كانوا يتدافعون ليحظوا بشرف حمله على أكتافهم على طول الحافة الصخرية المنحدرة قريباً من الجروف، أدرك النساء والرجال، ولأوّل مرّة، كم كانت شوارعهم مقفرة وحدائقهم مجدبة وأحلامهم ضيّقة، وهم يواجهون روعة غريقهم وجماله تركوه يذهب بدون مرساة حتى يتمكّن من العودة إذا شاء وحينما يشاء، وأمسكوا جميعهم أنفاسهم لجزء من قرون زمنية استغرقه الجسد ليسقط في الهاوية. لم يحتاجوا إلى أن ينظر بعضهم إلى بعض ليدركوا أنّهم لم يعودوا موجودين، ولن يكونوا موجودين أبداً، ولكنّهم عرفوا أيضاً أن كلّ شيء سيكون مختلفاً من الآن فصاعداً، فبيوتهم سيكون لها أبواب أوسع، وسقوف أعلى وأرضيّات أقوى حتى تستطيع ذكرى إستيبان أن تجول الأمكنة كلها دون أن تصطدم بالعوارض الخشبية كي لا يتجرّأ

أحد في المستقبل على أن يهمس: " لقد مات أخيراً المغفّل الكبير، هذا سيّء لقد مات أخيراً الأحمق الوسيم ". لأنّهم سيقومون بطلاء واجهات منازلهم بألوان زاهية تخليداً لذكرى إستيبان، وسوف يكسرون ظهورهم، وهم يحفرون بحثاً عن الينابيع بين الحجارة ليزرعوا الزهور على الجروف حتّى يتمكّن المسافرون على متن البواخر الكبيرة في السنوات القادمة أن يستيقظوا عند الفجر، وقد أسكرهم عبير الحدائق في عرض البحر، وعندها سينزل القبطان من سفينته على الجسر ببدلته الرسمية وإسطرلابه، ونجمه القطبي، ومجموعة الأوسمة الحربية على صدره، فيشير إلى القمم الوردية في الأفق ويقول بأربع عشرة لغةً: انظروا هناك حيث الرياح هادئة وساكنة الآن فقد ذهبت لتغفو تحت الأسرّة هناك حيث تسطع الشمس بأشعتها الذهبية، فتحتار أزهار دوار الشمس، فلا تعرف إلى أية جهة تستدير، نعم هناك عالياً تقع قرية إستيبان.

(١٩٦٨)

العجوز العظيم الأجنحة

كانوا قد قتلوا العديد من السرطانات في اليوم الممطر الثالث، مما اضطر بيلايو أن يعبر فناءه المبلل ليرمي بها في البحر، لأنّ طفله المولود حديثاً كان محموماً طيلة الليل، وظنّوا أنّ ذلك كان بسبب الرائحة النتنة المنبعثة من تلك السرطانات. كان العالم حزيناً منذ يوم الثلاثاء، وبدت السماء والأرض كقطعة واحدة ذات لون رمادي أشيب. وأضحت رمال الشاطئ التي كانت تلمع في ليالي آذار مثل ذرّات الضوء، خليطاً من الوحل والمحار الفاسدين. كان الضوء خافتاً جداً عند الظهيرة حتى إنّه كان من الصعب على بيلايو، وهو في طريقه إلى منزله، بعد أن تخلص من السرطانات، أن يتبيّن ذلك الشيء الذي كان يتحرك ويتلوى من الألم من الجهة الخلفية من الفناء كان عليه أن يقترب كثيراً ليدرك أنّ ذلك الشيء كان رجلاً عجوزاً منكفئاً على وجهه في الوحل، وقد عجز عن النهوض بالرغم من جهوده الهائلة بسبب جناحيه الكبيرين اللذين كانان يعيقان حركته.

هُرع بيلايو، مرعوباً من ذلك الكابوس، إلى زوجته أليندا التي كانت تضع كمادات للطفل المريض، واصطحبها إلى الجهة الخلفية من الفناء. نظر كلاهما بذهول صامت إلى ذلك الجسم الساقط. كان يلبس ثياباً رثة مثل جامع الثياب والنفايات في الشوارع، وتناثرت شعيرات قليلة ذاوية

على رأسه الأصلع، وظهرت بضعة أسنان في فمه، كما إن مظهره الباعث على الشفقة الذي بدا كمظهر جدّ كبير بلّله المطر، فأزال عنه أيّ شعور بالاحترام كان من المحتمل ان يحظى به. كان جناحاه الضخمان كجناحي الصقر متسخين، ويكادان ينقلعان من مكانيهما، وبدوا كأنهما قد علقا في الوحل إلى الأبد. نظر بيلايو وأليندا إليه مطولاً وعن كثب إلى أن استطاعا السيطرة على دهشتهما، وفي نهاية الأمر وجداه مألوفاً، ثم تشجّعا، وتكلما معه فأجابهما بلكنة بحّار قوية غير مفهومة، وهكذا نظرا في حال الأجنحة الغريبة، واستنتجا بذكاء تام أنّه كان الملفوظ الوحيد من سفينة غريبة كانت قد حطّمتها العاصفة، لم يكتفيا بهذا بل قاما باستدعاء سيدة من الجوار كانت تعرف كل شيء عن الحياة والموت لتراه فلم تحتج إلا نظرة واحدة لتريهما أنهما مخطئان.

"إنّه ملاك" أخبرتهما السيدة: "لابد أنه قد أتى من أجل شفاء الصبي، ولكن هذا الملاك المسكين كان عجوزاً جداً فأنهكه المطر وأوقعه.

عرف الجميع في اليوم التالي أنّ ملاكاً من لحم ودم قد وقع أسيراً في منزل بيلايو. لم تكن لديهم الشجاعة لضربه حتى الموت، على عكس ما ارتأت تلك السيدة الحكيمة من الجوار التي حسبت أنّ الملائكة في الأيام الماضية كانوا ينجون هرباً من صراع سماوي. راقبه بيلايو من المطبخ متسلّحاً بعصا الحارس طيلة فترة بعد الظهر. وقبل أن يذهب للنوم قام بسحبه من الوحل. حبسه مع الدجاج في ذلك القنّ المصنوع من الأسلاك. وعندما توقّف المطر في منتصف الليل بدا أن الحمّى قد فارقته وأظهر رغبة

في الطعام، عندها شعرا بالمروءة وقررا وضع الملاك على متن دفة خشبية وتزويده بالماء العذب والمؤونة الكافية لثلاثة أيام، وتركه لقدره مبحراً في أعالي البحار. ولكن عندما خرجوا إلى الفناء مطلع الفجر وجدوا الجيران جميعهم أمام قنّ الدجاج يلهون مع الملاك دون إظهار أدنى احترام له. كانوا يرمون له بأشياء ليأكلها من خلال فتحات في الأسلاك وكأنه حيوان سيرك وليس مخلوقاً طبيعياً.

وصل الأب "غونزاغا" قبل الساعة السابعة وقد أرعبته الأخبار الغريبة، كما وصل في ذلك الوقت أيضاً متفرجون أقلّ استهتاراً من أولئك الذين قدموا عند الفجر وكانوا يقدّمون شتى أنواع الاقتراحات المتعلّقة بمصير الأسير هنا. اعتقد أكثرهم ببساطة أنّه يجب أن يُلقّب برئيس بلدية العالم، كما شعر آخرون من ذوي الأفكار الأكثر جدّية أنّه يجب أن تتمّ ترقيته ليحظى بلقب جنرال ذي خمسة نجوم حتى يفوز بجميع الحروب، وتمنّى بعض الخياليين أن يتم تكريمه للاستيلاد حتى يُطوروا نسلاً من البشر الحكماء ذوي الأجنحة باستطاعتهم أن يتحملوا مسؤولية العناية بالكون. ولكنّ الأب "غونزاغا" كان قاطع خشب ماهراً قبل أن يصبح قسّاً! استعرض القس مبادىء ديانته بلحظة واحدة، بينما كان واقفاً قرب الأسلاك، وطلب منهم أن يفتحوا له الباب حتى يستطيع أن يلقي نظرة فاحصة على ذلك الرجل المسكين الذي بدا وكأنه أشبه بدجاجة ضخمة عاجزة بين الدجاجات الصغيرة المذهولة كان مستلقياً في زاوية بين قشور الفاكهة وبقايا الفطور التي رماه بها المتفرجون المبكرون، وكان يجفف

جناحيه المفرودين في ضوء الشمس. وعندما دخل "غونزاغا" إلى قن الدجاج وخاطبه باللاتينية: صباح الخير، حدث شيء غريب تماماً، فقد قام برفع عينيه الغائرتين، وتمتم كلاماً بلغته. راودت قسّ الرعيّة أول شكوكه بأنه قد يكون محتالاً لأنه لم يفهم لغة اللّه، ولم يعرف كيف يردّ السلام على كهنته، ثم لاحظ أنه بدا أقرب إلى البشر إذا تم تفحصه عن قرب انبعثت منه رائحة نتنة غير محتملة، وانتشرت الطفيليات على الجهة الخلفية من أجنحته، وأتلفت رياح أرضية ريشه الأصلي، ولم يكن هناك فيه شيء يماثل وقار الملائكة الجليل، ثم خرج من خُمّ الدجاج، وبعظة مختصرةٍ، حذّر الفضوليين من مخاطر القيام بأعمال سخيفة. ذكّرهم أنه من عادة الشياطين السيئة استخدام حيل للهو للإيقاع بالمستهترين، وناقش فكرة أنه إذا لم تكن الأجنحة هي العنصر الأساسي لتحديد الفرق بين الصقر والطائرة فإنها العنصر الأقلّ أهميّة في تعرف الملائكة. ومع ذلك وعد أن يكتب رسالة لرئيسه الأسقف كي يكتب هذا الأخير لمن هو أعلى منه مرتبة ليكتب أيضاً هذا الأخير بدوره للحبر الأعظم حتى يحصل بخصوصه على الحكم النهائي من المحاكم العليا.

لم يلق تحذيره آذاناً صاغية من أحد، فقد انتشر خبر الملاك الأسير بسرعة كبيرة حتى إنه بعد ساعات قليلة كانت الضجّة في الفناء أشبه بضوضاء السوق، وكان عليهم أن يستدعوا قوّاتٍ عسكريّةً مع حرابهم ليفرّقوا الجموع التي كانت على وشك أن تهدم المنزل. فكرت أليندا التي تقوس ظهرها من جراء كنس الكثير من قمامة هذا السوق بتسوير

الفناء، وفرض تعرفة خمس سنتات يدفعها من يرغب برؤية الملاك.

جاء الفضوليون من مكان بعيد جداً ووصل كرنفال متجول مع بهلوان طائر قفز فوق الجموع لعدة مرّات ولكن لم يعره أحد أيّ اهتمام لأن أجنحته لم تكن أجنحة ملاك بل أجنحة خفّاش نجميّ. قدم المرضى الأكثر تعاسة على وجه الأرض بغرض الاستشفاء: امرأة تعسة منذ الصغر بدأت تعد ضربات قلبها حتى نفدت أرقام العد. رجل برتغاليّ لم يكن يستطيع النوم بسبب الضوضاء التي تثيرها النجوم، ورجل يمشي أثناء نومه مستيقظاً في الليل ليخرّب الأشياء التي صنعها أثناء يقظته، كما قدم آخرون ذوو أمراض أقل خطورة. كان "بيلايو" وأليندا سعيدين بتعبهما في خضم تلك الفوضى العارمة التي جعلت الأرض تهتز، لأنهما، وبأقل من أسبوع، قاما بتكديس النقود في غرفهم، ومازال صفّ الزوّار الذين ينتظرون دورهم للدخول ممتداً عبر الأفق.

كان الملاك هو الشخص الوحيد الذي لم يكن له أي دور يقوم به فيما يدور حوله وقضى وقته محاولاً أن يريح نفسه في هذا العشّ المؤقّت تزعجه الحرارة الجهنمية للمصابيح الزيتية والشموع المقدّسة التي وُضعت على طول السلك حاولوا في بادئ الأمر حمله على أكل بعض شرانق الفراشات التي كانت بنظر الجارة الحكيمة الطعام الملائم للملائكة، ولكنه رفضها كما رفض وجبات الغذاء البابوية التي أحضرها له التائبون، ولم يستطيعوا أن يتحقّقوا من سبب رفضه، هذا أكان لأنه ملاك، أم لأنه شيخ هرم يقتصر طعامه على بعض قطع الباذنجان. بدا

كأن الصبر هو فضيلته الوحيدة غير الاعتيادية، خاصة خلال الأيام الأولى عندما أخذ الدجاج ينقره بحثاً عن النباتات الطفيلية النجمية التي نمت على جناحيه، واقتلع المُقعدون ريشاً منه ليمسحوا بها الأجزاء العاجزة من أجسامهم، ورماه أكثرُهم رحمةً بالحجارة، محاولين حمله على النهوض ليتمكنوا من رؤيته واقفاً، وكانت المرة الوحيدة التي نجحوا فيها في إثارته عندما قاموا بحرق جانبه بمكواة تستعمل للكتابة على دفات السفن، إذ إنه كان يقبع دون أي حركة لساعات طويلة حتى اعتقدوا أنه كان ميتاً، فاستيقظ، على حين بغتة يصرخ متحدثاً بلغته السحرية ودموع في عينيه، وخفق بجناحيه مرتين مسبباً زوبعة من روث الدجاج وغبار طائش وعاصفة هلع لم يبد عليها وكأنها تنتمي لهذا العالم. بالرغم من أن العديد من الناس ظن أن رد فعله هذا لم يكن بسبب الغضب بل بسبب الألم، كانوا حذرين من الآن فصاعداً لئلا يزعجوه لأن الغالبية العظمى منهم كانوا فهموا أن هدوءه لم يكن هدوء بطل يأخذ قسطاً من الراحة، ولكنه هدوء العاصفة.

أوقف الأب "غونزاغا" سخافات الناس بصيغ استمدها من إيحاء خادمة ريثما كان ينتظر وصول القرار النهائي حول طبيعة الأسير. ولكن لم يظهر البريد من روما أي شعور بأهمية وإلحاح هذا الموضوع. ومرّ الوقت كله، وهم يحاولون معرفة إذا كان للسجين سُرّة، وإذا كانت لهجته آدمية أم لا، وإلى أي مدى يتأثر بوخز رأس الدبوس، فيما إذا كان مجرد نرويجيٍّ ذي أجنحة. كان من الممكن أن تستمر مسألة إرسال الرسائل

وانتظار استلامها إلى مالا نهاية، غير أنّه حدث حادث رتبته العناية الإلهية ليضع حداً لمتاعب القس.

فقد صادف، خلال تلك الأيام، وصول عرضٌ جوّال إلى البلدة، من ضمن تلك العروض التي تجذب اهتمام الجماهير حول امرأة تحولت إلى عنكبوتة بسبب عدم إطاعتها لوالديها. لم تكن التعرفة المفروضة لرؤيتها أقل من التعرفة المفروضة لرؤية الملاك فحسب، ولكن كان مسموحاً للناس أيضاً أن يسألوها شتى أنواع الأسئلة عن حالتها الغريبة، وأن يقوموا بمعاينتها من مختلف الجهات حتى لايشكّ أحدهم أبداً في أسباب هلعها، تحولت إلى عنكبوتٍ كبيرة مخيفة لها حجم خروف ولها رأس فتاة حزينة. وعلى أي حال كان الأسى الصادق الشديد الذي أعادت به سرد تفاصيل مصيبتها أكثر إيلاماً من شكلها الغريب؛ فقد تسللت من منزل والديها، يوم كانت مجرد طفلة، لتذهب إلى حفلة راقصة. وبعد أن رقصت طيلة الليل دون إذن وفي طريق عودتها من الغابة شق قصف الرعد المخيف السماء إلى قسمين ومن خلال الصدع هبطت صاعقة برق من الكبريت وحولتها إلى عنكبوت، وكانت كرات اللحم التي اختارت النفوس الكريمة أن ترمي بها داخل فمها هي طعامها الوحيد. إن مشهداً كهذا مفعماً بالصدق الإنساني وذا عبرة مؤثرة من شأنه أن يتفوق بدون أدنى عناء على ذلك المشهد لملاك طائش قلما تنازل لينظر إلى البشر. بالإضافة إلى هذا، فإن الأعاجيب القليلة التي نُسبت إلى الملاك سبّبت بعض الاضطراب الذهنيّ، والرجل الأعمى الذي لم يتمكّن من استعادة بصره،

ولكن ظهرت له ثلاثة أسنان جديدة، أو المشلول الذي لم يتمكّن من السير، ولكنه فاز باليانصيب والأبرص الذي نمت أزهار دوار الشمس في جروحه المتقرّحة، وقد حطمت هذه الأعاجيب المغرية التي هي أقرب إلى أن تكون ضرباً من التسلية الساخرة سمعة الملاك، لكن ما أجهز عليه تماماً هو قصة المرأة التي تحولت إلى عنكبوتة، وهكذا عوفي "غونزاغا" إلى الأبد من أرقه، وعاد فناء "بيلايو" ليكون فارغاً كما كان في الوقت الذي نزل فيه المطر ثلاثة أيام، وتسللت السرطانات إلى غرف النوم.

لم يكن هناك أي سبب يدفع بمالكي المنزل للأسى، فبالمال الذي وفره قاموا ببناء منزل ذي طابقين، له شرفات وحدائق وشبكة مرتفعة حتى لا تتمكن السرطانات من دخوله في الشتاء، كما زوّدوه بقضبان حديدية على النوافذ حتى لا تلجه الملائكة. أسس "بيلايو أيضاً" مزرعة للأرانب قريبة من البلدة، وتخلّى عن عمله كحارس من أجل حياة أفضل. كما اشترت أليندا بعض الأحذية الساتانية الخفيفة ذات الكعوب العالية مع العديد من الأثواب الحريرية التي لها ألوان قوس قزح، تلك الأنواع من الأثواب التي كانت ترتديها أكثر النساء إغراءً أيام الآحاد في تلك الأيام. كان خمّ الدجاج الشيء الوحيد الذي لم يلق أي اهتمام. وإذا ما قاموا بيتنظيفه بالسيرولين وأحرقوا قطرات المرّ الكاوي داخله مرات عديدة فإن ذلك لم يكن احتفاءً بالملاك، بل لإزالة رائحة ركام الروث النتنة التي كانت ما تزال منتشرة في كل مكان مثل الشبح، وكانت تحيل البيت الجديد إلى قديم. في بداية الأمر، عندما تعلم الطفل المشي كانوا

حذرين لئلا يقترب كثيراً من قنّ الدجاج. ولكن خوفهم بدأ يتلاشى واعتادوا على الرائحة، وقبل أن يبرز للطفل سنه الثاني دخل ليلعب في قنّ الدجاج حيث كانت الأسلاك متداعية. لم يكن الملاك أقل تحفظاً تجاهه كما كان مع غيره من الناس، ولكنه تحمّل أشد صنوف الأذى بصبر كلب هادئ دون أيّ أوهام. أصيب كلاهما بالجدري في آن واحد، ولم يستطع الطبيب الذي عالج الصبي أن يقاوم إغراء الإصغاء إلى قلب الملاك فوجد أنّ هنالك الكثير من الصفير في القلب، والعديد من الأصوات في كليتيه حتى بدا له أنه من المستحيل أن يبقى هذا الملاك على قيد الحياة. وما أثار دهشته أكثر كان وضع جناحيه، فقد بدا له أنها ملائمة جداً لذلك التكوين البشري حتى إنّه لم يستطع أن يجد تفسيراً لماذا لا يملك أناس غيره مثل هذه الأجنحة. بعد فترة قصيرة من بدء تعليم الصبي في المدرسة أخذ قنّ الدجاج بالانهيار بسبب المطر والشمس.

واستمرّ الملاك يسحب نفسه هنا وهناك كرجل ميت ضال كانوا يخرجونه من غرفة النوم بمكنسة وبعد هذا بلحظة أخرى يعودون ليجدوه في المطبخ. بدا كأنه موجود في عدة أمكنة في وقت واحد. وقادهم تفكيرهم للاعتقاد بأنّ له صوراً طبق الأصل، وأنّه كان يعيد تشكيل نفسه ليظهر في جميع أرجاء المنزل. صرخت أليندا الساخطة والمرهقة بأنه لمن الفظاعة أن يعيش المرء في جحيم مليء بالملائكة كهذا الجحيم. فقلما استطاع الملاك أن يأكل، وتحولت عيناه إلى عينين ضبابيتين حتى إنه كان يرتطم في حركته بالأعمدة، وكل ما كان يخلّفه وراءه هو

أرياش أواخر الأجنحة العارية. رمى "بيلايو" عليه ملاءة وبالغ بكرمه، فقد سمح له بالنوم في الكوخ، وعندئذٍ فقط لاحظوا أن حرارته كانت مرتفعة في الليل، وأنه كان يهذي بلسانٍ ملتوٍ لعجوزٍ نرويجي كانت هذه إحدى المرات التي أثارت ذعرهم، لأنهم حسبوا أنه على وشك الموت، ولم تكن حتى الجارة الحكيمة بقادرة على إخبارهم ماذا يمكنهم أن يفعلوا بملائكة ميتين.

ومع هذا لم يجتز أسوأ شتاء في حياته، بل ظهرت عليه بوادر التحسّن مع بدايات الأيام المشمسة بقي عديم الحراك لعدة أيام في أبعد زاوية من زوايا الفناء، حيث لايتمكّن أحد من رؤيته، وفي بداية كانون الأول بدأ بعض الريش الكثيف مثل ريش الفزاعة بالنمو على أجنحته، تلك الأجنحة التي بدت محنة أخرى من محن الشيخوخة. ولكن لابدّ أنه قد عرف سبب هذه التغيرات لأنه كان حذراً تماماً لئلا يلاحظها أحد، ولئلا يلاحظ أنا شيد البحر التي كان يغنيها في الليل ذات صباح، وبينما كانت أليندا تقطع بعض حزم البصل للغداء عصفت في المطبخ ريح بدت وكأنها هبّت من أعالي البحار، فسارعت إلى النافذة ورأت الملاك في أولى محاولاته للطيران، وكانت محاولاته هذه ثقيلة حتى إن أظافره رسمت أخدوداً في البقعة المزروعة بالخضار. وكان على وشك أن يطيح بالكوخ مع كل الخفقان العقيم الذي كان يجعله يهوي بخفة سريعاً في الهواء ولم يمكنه من الارتفاع عالياً ولكنه تدبّر أمره ليرتفع في النهاية. تنفست أليندا الصعداء من أجلها، ومن أجله عندما رأته يحلق فوق المنازل

الأخيرة، يحاول أن يصمد بطريقة ما معتمداً على حركة خفقان أجنحة خطرة لنسر هرم استمرت بمراقبته حتى في أثناء تقطيعها البصل، وتابعت مراقبته حتى لم تعد قادرة على رؤيته، منذئذٍ لم يعد الملاك مصدر إزعاج في حياتها، بل غدا نقطة خيالية في أفق البحر.

الساحر الطيّب، صانع المعجزات

منذ أول يوم أحد رأيته فيه ذكّرني بثور مصارعة، بحمالات بنطاله التي كانت مخيطة مدروزة بخيط ذهبيّ، وبخواتمه ذات الأحجار الملوّنة في كل إصبع، وبأشرطة الأجراس المجلجلة المجدولة. كان واقفاً على منضدة بالقرب من أرصفة "سانتا ماريا ديل دارينين" وسط قوارير من مواد خاصّة وأعشاب التهدئة، وطاف بها عبر المدن على امتداد البحر الكاريبي بصيحته المبحوحة، غير أنه حتى ذلك الوقت لم يكن يعمل على بيع أيٍّ من الأشياء الهندية المتنوعة، بل كان يطلب من الحشد أن يحضر له أفعى حقيقية حتى يجرب على جسده ترياقاً حضّره بنفسه إنه الترياق الناجع، سيداتي وسادتي لمعالجة لدغات الأفاعي والعناكب وذوات الأربع والأربعين بالإضافة إلى جميع أنواع الثدييات السامّة، فتدبّر أحدهم ممن بدا عليه الإعجاب التام بعزمه، أن يحصل من مكان ما على أفعى من نوع سيدة الأحراش وهي من أسوأ أنواع الأفاعي القادرة على القتل عن طريق تسميم عملية التنفس، فأحضرها له في قارورة، وعندما فتح سدادتها بلهفة كبيرة حنى ظننا جميعنا أنه سيأكلها، ولكن حالما شعر ذلك الكائن بحريته قفز من القارورة ولسعه في رقبته لسعة قطعت أنفاسه في الحال، فعجز عن الخطابة دون أية فرصة لتناول الترياق. فاندفع المداوي الصغير، وهوى باتجاه الجمهور ثم تدحرج على الأرض،

فهزل جسده الضخم وبدا كأنه لا يحتوي على شيء في داخله، غير أنّه كان يضحك كلّ الوقت، وأسنانه الذهبية تبرق في فمه. كان الصخب عظيماً جداً حتى إن السفينة القادمة من الشمال والتي كانت قد توقّفت هناك منذ عشرين عاماً لإنجاز مهمة لها طابع خيري أعلنت الحجر الصحيّ عليه، حتى لا يتسرّب سمّ الأفعى إلى سطحها، كما خرج الناس الذين كانوا يرفعون القدّاس ليوم أحد النخيل مع سعف النخيل المباركة، لأنهم لم يرغبوا في أن يفوتهم عرض الرجل المتسمّم الذي كان قد بدأ لتوه بالانتفاخ. وبدت عليه سيماء الموت، فأصبح أكثر بدانة مما كان عليه بمرتين، كان يسيل من فمه زبدمن مادة مريرة، ويبرز نبضه عبر مسامّ جلده، ولكنّه كان لا يزال يضحك بحيوية شديدة حتى إن الأجراس المجلجلة كانت تقرع على كامل جسده. قطع الانتفاخ شرائط جواربه الجلدية الطويلة، ودرزات ثيابه، وتحول لون أصابعه إلى القرمزي بسبب ضغط الخواتم، وبدا لونه كلون لحم الطرائد المنقوعة بالماء المالح، ودلّت نهاية عجيزته على لحظات الموت الأخيرة، فأدرك كل من رأى شخصاً لدغته أفعى أنّ هذا الرجل كان يتعفن قبل الموت وأنه سينهار كلّياً وسيتوجب عليهم جمع أشلائه بوساطة مجرفة ليوضع في كيس، ولكنّهم اعتقدوا أيضاً أنه سيستمرّ في الضحك حتى في حالة الانهيار هذه. كان مظهره لا يُصدّق، حتى إنّ البحارة صعدوا إلى سطح السفينة ليلتقطوا له صوراً ملونة بعدسات مكبرة ولكن النسوة اللاتي خرجن من الكنيسة ازدردن نواياهنَّ عندما غطّين الرجل المحتضر ببطانية ووضعن سعف النخل

المقدّس على رأسه، بعضهن لأنّهن لم يرغبن أن يدنس الجنود الجثة بأدواتهم السبتية (المجيئية)❖ وبعضهن لأنهن كن خائفات من الاستمرار بالنظر باتجاه ذلك الوثني الذي كان مستعداً أن يموت موتاً من الضحك، وأخريات لأنه بتلك الطريقة على الأقل قد لا تتسمّم روحه، وتركه الجميع معتقدين بأنّه ميت عندما دفع جانباً سعف النخيل بإحدى ذراعيه، وكان لايزال يشعر بالدوار، ولم يتعاف تماماً من اللحظة السيئة التي مر بها، غير أنه أعاد الطاولة كما كانت من دون مساعدة أحد، تسلق عليها كسرطان الماء مرة أخرى. وعاد هناك من جديد يصرخ أن ترياقه لم يكن إلا يد اللّه في قارورة، كما رأينا كلنا بأم أعيننا. لن يكلف هذا الترياق أكثر من قرشين (كوراتيللوس) لأنّه لم يُعده كسلعة للبيع، بل لعمل الخير مع الناس أجمعين، وحالما قال هذا، سيداتي وسادتي أطلب منكم فقط أن لاتتجمّعوا حولي، فهناك ما يكفي للجميع.

بالطبع تجمعوا حوله وحسناً فعلوا، لأنه في النهاية لم يكن هناك ما يكفي الجميع.

اشترى حتى الأميرال من السفينة الراسية قارورة بعد أن أقنعه الساحر أنّ هذا الترياق كان مفيداً أيضاً لمعالجة المصابين بالرصاصات المسمومة التي يطلقها الثائرون. لم يكتفِ البحارة بالتقاط الصور الملوّنة له واقفاً على الطاولة تلك الصور التي لم يستطيعوا التقاطها وهو ميت، بل إنهم جعلوه يوقّع لهم بخط يده على دفاترهم حتى التوت يده من التشنج. كان الظلام على وشك أن يحلّ. لم يبق هناك قرب الرصيف إلا الأشخاص

الأكثر حيرة وارتباكاً من بيننا عندما بحثت عيناه عن شخص يبدو مغفّلاً ليساعده على توضيب القوارير وإبعادها، وكان من الطبيعي أن تقع عيناه علي. كان هذا يبدو وكأنه من مصادفات القدر ليس فقط بالنسبة إلي، ولكن بالنسبة إليه أيضاً، وكأنه قد مضى على هذا أكثر من قرن، مازلنا كلانا نتذكره، وكأنه حدث يوم الأحد الماضي ما حدث هو أنّنا كنا نضع صيدليته البهلوانية في ذلك الصندوق ذي الشرائط القرمزية الذي بدا أقرب إلى خزانة عالم، وكأنه لاحظ عندها بعض النور في داخلي لم يره من قبل، لأنّه سألني بطريقة فظة: من أنت؟ فأجبته بأنني يتيم من الطرفين بيد أن والدي لم يمت بعد، فقهقه بصوت عالٍ أكثر من صوت الضحك الذي أطلقه حين تناول السمّ، ثم سألني: كيف أكسب عيشي؟، وأجبته بأنني لا أفعل شيئاً عدا البقاء حياً، لأنه ما من شيء آخر في الدنيا يستحق العناء، وكان ما يزال يبكي من الضحك عندما سألني: ما هو العلم الذي أتوق إلى تعلّمه في العالم، وهذه كانت المرة الأولى التي قلت فيها الحقيقة دونما خداع، فأجبت: إنني أريد أن أكون عرّافاً. لم يضحك مجدداً، ولكنه أخبرني وكأنه يفكر بصوت عالٍ، إنني لا أحتاج إلى كثير لأتقن ذلك، لأنني أملك أصعب الأشياء التي يجب عليّ تعلمها وهو أن يكون لي وجه مغفّل. في تلك الليلة نفسها تحدث إليّ والدي واشتراني إلى الأبد مقابل ريال واحد وقرشين (٢كوارتيللوس) ومجموعة أوراق اللعب التي تكشف الخيانة الزوجية.

هكذا كان يبدو الساحر الشرير لأنّني كنت أنا الساحر الطيّب.

كان قادراً على إقناع عالم فلكي بأنّ شهر شباط ليس إلا قطيعاً من الفيلة غير المرئية. ولكن عندما انقلب حظه الطيّب ضده تحوّل إلى وحشٍ كاسر. كان في أيام مجده محنِّطاً للرؤساء ويقولون: إنه قد منحهم وجوهاً توحي بالسلطة والقوة، ولسنين طويلة ظلوا يحكمون بها بصورة أفضل مما كانوا يفعلون عندما كانوا أحياء، ولم يتجرّأ أحد على دفنهم حتى أعاد إليهم مظهر الميتين، ولكن هيبته انهارت باختراع لعبة شطرنج لا تنتهي جعلت قساً يُجَنّ، وسبّبت حادثتي انتحار شهيرتين، لذلك راح يهوي في مقامه ليتحوّل من مفسّر أحلام إلى منوّم مغناطيسي في أعياد الميلاد، ومن مقتلع أسنان بالإيحاء إلى مداوٍ في الأسواق العامة. لذلك في الوقت الذي تقابلنا فيه كان الناس، وحتى قطاع الطرق، قد بدؤوا ينظرون إليه شزراً. تنقلنا من مكان إلى آخر من منصة الخداع وكانت الحياة شكلاً أبدياً حيث حاولنا بيع لفائف للهرب تجعل المهرّبين غير مرئيين، وقطرات خادعة لتضعها زوجات معمّدات في الحساء حتى يغرسنَ في أزواجهنَّ الهولنديين الخوف من الله، كما أننا حاولنا بيع أي شيء آخر قد ترغبون في شرائه بمحض إرادتكم أيها السيدات والسادة، لأنّ هذا ليس أمراً بالنهي، بل نصيحة.. وبعد كل شيء فإن السعادة ليست إلزاماً أيضاً. وبالرغم من ذلك كنا كلّما ضحكنا كثيراً على فطنته أصبح من الصعب علينا، في الواقع، أن نتدبّر ما يكفينا لنقتات به، ثم بنى آخر أمل له على مهنتي كعراف.

احتجزني في صندوق كئيب متنكراً بزي يابانيّ، وقيّدني بسلاسل

من جهة اليمين حتى أستطيع أن أحاول التنبؤ ما استطعت، بينما تمعّن في كتاب قواعد السحر بحثاً عن أفضل الطرق ليقنع العالم بعلمي الجديد، وهنا سيداتي وسادتي أمامكم هذا الطفل الذي ابتُليَ بمرض حُباحِب إزكييل وأولئك الذين يقفون منكم هنا يظهرون وجوهاً يعلوها الشك، دعونا نرى إن كنتم تتجرؤون على سؤاله متى ستموتون، ولكنّني كنت غير قادر على معرفة في أيّ يوم من الأيام كنا في ذلك الوقت، لذلك عجز عن جعلي عرّافاً لأنه، كما قال "أليفاس" الذي يضربك بعد الطعام يعطّل غدّة التنبؤ عندك وبعد أن ضربني بشدة على رأسي ليجلب الحظ الجيد، قرّر أن يأخذني إلى والدي، وأن يستعيد ماله. ولكن في ذلك الوقت صادف أن وجد تطبيقاً عملياً لآلية التعذيب، وشرع يصنع آلة للخياطة تشتغل من خلال وضع كاسات على جزء محدد من الجسم حيث يوجد الألم. وبما أنني قضيت الليلة أعاني من الضربات التي ألحقها بي ليطرد الحظ السيّء، كان عليه أن يبقيني ليجرّب عليَّ اختراعه، لذلك تأجّلتْ عودتنا، وبدا يستعيد مرحه إلى أن عملتْ الآلة بصورة جيدة فلم تخط أفضل من راهبة جديدة فحسب، بل زخرفت طيوراً ونجوماً بحسب موقع الألم وشدته. هذا ما كنا نقوم به، وقد اقتنعنا بانتصارنا على الحظ السيء، عندما وصلنا الخبر أنه في فيلادلفيا حاول قائد السفينة أن يعيد التجربة باستعمال الترياق فتحول إلى كرة من الهلام الأميرالي أمام جماعة مساعديه.

لم يضحك ثانية لمدة طويلة، ومضينا عبر ممرات هندية، وكلّما

توغلنا أكثر وصلنا الخبر بوضوح أكثر بأن (قوات البحرية) قامت بغزو البلد بذريعة القضاء على الحمّى الصفراء، وكانوا يشرعون في قطع رأس كل خزّاف يجدونه في طريقهم سواء أكان هاوياً أو خبيراً، لا من السكان المحليين فقط انطلاقاً من الحرص، ولكن من الصينين أيضاً بدافع الإلهاء، والزنوج بحكم العادة، والهندوس لأنهم كانوا من الحواة، ثم أزالوا ما استطاعوا إزالته من النباتات والحيوانات والثروة المعدنية لأن المختصين منهم بأحوالنا أخبروهم أنّ الناس الذين يعيشون على طول الكاريبي لديهم القدرة على تغيير طبيعتهم حتى يحيروا الغرباء. لم أستطع فهم من أين أتى هذا العنف، ولا لماذا كنا خائفين جدّاً إلى أن وجدنا أنفسنا سالمين معافين في مهب الريح الدائمة لغوجيرا، وعندها فقط تسلّح بالشجاعة ليعترف لي أن ترياقه لم يكن إلا نبات الرواند والترينتين، وأنه قد دفع قرشين (٢ كوارتيللوس) لرجل جوّال يبحث عن عمل ليجلب له تلك الأفعى السامّة، وقد أزال كلّ سمّها. مكثنا في خرائب تبشيرية (بعثة استعمارية) نوهم أنفسنا بأمل أن يمر بنا بعض المهربين لأنّهم رجالٌ يمكن الوثوق بهم، وهم الوحيدون القادرون على المغامرة تحت أشعة الشمس المتقلبة في هذه المسطّحات الملحيّة القاسية. في بادئ الأمر أكلنا السمندر المدخن، والأزهار التي وجدناها بين الخرائب، وكان لا يزال لدينا ما يكفي من الروح المرحة لنضحك عندما حاولنا أكل جواربه الجلدية المغليَّة، لكن في النهاية أكلنا حتى بيوت العنكبوت المائية التي وجدناها في الصهاريج، وعندها فقط أدركنا كم نفتقد العالم. وبما أنّني لم

أكن أعرف طريقة أواجه بها الموت في ذلك الوقت، استلقيت أنتظره في مكان لا يمكنه فيه أن يلحق الأذى بي إلا أقل ما يمكن بينما كان هو بانفعال شديد يتذكر امرأة رقيقة جداً كانت تستطيع اختراق الجدران فقط بالتنهد، لكن عملية الاستذكار هذه التي اخترعها كانت حيلة من حيل عبقريته ليخدع الموت بلوعة الحب... ومع هذا ففي اللحظة التي كان يجب أن نكون فيها ميتين، جاءني، وبحيوية غير معهودة، من قبل، وقضى الليلة بأكملها في مراقبة عذابي، وهو يفكر بقوة عظيمة حتى إنني لم أكن قادراً على معرفة فيما إذا كانت الريح أم أفكاره هي سبب الصفير في الخرائب. وقبيل الفجر أخبرني بصوت فيه عزم الأيام الماضية بأنّه الآن أخذ يعرف الحقيقة بأنّني أنا من أفسد عليه حظه مرة أخرى، لذلك جهّزْ نفسك، لأنّه وبنفس الطريقة التي أفسدته ستعمل على تقويمه من جديد.

في تلك اللحظة فقدت القليل من العاطفة التي كنت أكنّها له. نزع عني ما بقي من خرق ولفّ علي بعض الأسلاك الشائكة، وفرك قروحي بالملح الصخري، وغمسني بماء مالح من بولي، وعلّقني من كاحليّ حتى تحرقني الشمس، واستمر بالصراخ عالياً بأنّ التعذيب الجسدي كلّه هذا لم يكن كافياً للتخفيف من اضطهاد مضطهديه، في النهاية ألقى بي لأتعفّن في بؤسي داخل زنزانة العقاب حيث كان المبشّرون المستعمرون يقوّمون الملحدين والكفرة، وبنفس القدر الذي يتمتع به المتكلم من بطنه. وكان يملك منه ما يكفي، بدأ بتقليد أصوات الحيوانات التي

تؤكل، وضجيج السّمندر الناضج، وصوت الينابيع العذبة حتى يعذبني بوهم الموت حرماناً وسط الجنة، وعندما زوّده المهرّبون ببعض الطعام في النهاية نزل إلى الزنزانة ليمدّني بما يؤكل لئلا أموت، ثم جعلني أدفع ثمن هذا الإحسان عند شد أظافري بكماشة، وبرد أسناني بحجر الرحى، فكان عزائي الوحيد أمنية أن تمنحني الحياة الفرصة والحظ الجيد لأتحرر من هذا العار، ولو عن طريق عذابات أقسى، أنا نفسي كنت مندهشاً من قدرتي على مقاومة بلاء إصابتي بالتعفن، واستمر في رمي بقايا طعامه لي وقذف بقطع من لحم السحالي والصقور المتعفن إلى الزوايا حتى يسمعني هواء الزنزانة في نهاية الأمر، لا أدري كم من الوقت قد مضى عندما جلب لي جثة أرنب ليريني أنّه يفضّل أن يرمي بها بعيداً لتتعفن بدلاً من إعطائها لي لآكلها، ولكن نفد صبري، ولم يكن لدي تجاهه إلاّ الحقد، لذلك امسكت بالأرنب من أذنيه وقذفتُ به نحو الجدار متوهماً أنّه هو الساحر وليس الحيوان من كان سينفجر ثم حدث الشيء الذي لايحدث إلا في الأحلام. لم يستعد الحيوان وعيه بصرخة رعب واحدة فحسب بل إنه عاد إلى يديّ واثباً في الهواء.

على هذا النحو بدأت حياتي العظيمة ومنذ ذلك الوقت بدأت بالتجوال في العالم لأشفي ضحايا الملاريا من الحمى مقابل بيزوسين اثنين، ولأعيد البصر للعميان مقابل أربعة بيزوسات ونصف، ولأسحب الماء من المصابين بانتفاخ داء الاستسقاء مقابل ثمانية عشر بيزوساً إذا كانوا على هذه الحال منذ الولادة، ومقابل اثنين وعشرين بيزوساً إذا كان سبب إعاقتهم

حادثةً أو شجاراً ، ومقابل خمس وعشرين بيزوساً إذا كان بسبب الحروب أو الزلازل أو إزالة فرق مشاة أو أعاقتهم لأي سبب آخر من الكوارث العامة. وكنت أعتني بالمرضى من العامة بسعر الجملة وبحسب ترتيب خاص، والمجانين حسب نوع جنونهم والأطفال بنصف السعر، والمغفلين انطلاقاً من مبدأ الإحسان، فمن يتجرّأ ، سيداتي وسادتي، على القول إنني لست من فاعلي الخير، والآن نعم يا سيدي قائد الأسطول العشرين فلتأمر صبيانك بإزالة الحواجز، ولتسمح للإنسانية المعذبة بالمرور: المصابين بالجذام نحو اليسار والمصابين بالصرع نحو اليمين، وأبعد المشلولين حتى لايصطدم أحدبهم، واترك الحالات الأقل خطورة في الخلف. أرجوكم أن لا تحتشدوا من حولي لأنّني غير مسؤول إذا اختلطت الأمراض وشفي الناس من أمراض لايعانون منها ، ولتصدح الموسيقا إلى أن يحمى النحاس، ولتطلق المدافع نيرانها إلى أن تحترق الملائكة، وليتدفق الشراب المسكر حتى تغيب الأفكار، ولتجلبوا الغانيات والبهلوانات وبائعي اللحم والمصدّرين، وكل هذا على حسابي - سيداتي وسادتي- فهنا تنتهي سمعة السحرة السيئة، وتبدأ نوبة الابتهاج الكوني. تلك هي الطريقة التي كنت أتبعها لتنويمهم وهي طريقة عضو مجلس الكونغرس في حال فشل تقديري، وأصبح البعض في حال أسوأ مما كانوا عليه في السابق. ولكن الشيء الوحيد الذي لم أكن أقوم به هو إحياء الموتى لأنّهم كانوا حالما يفتحون أعينهم يستشيطون غضباً ممن أزعج رقادهم وعندما ينتهي كل شيء يموت أولئك الذين لم ينتحروا ميتة ثانية من الخيبة.

في بادئ الأمر تعقبتني مجموعة من الحكماء يستفسرون عن شرعية صنعتي، وعندما اقتنعوا بذلك هددوني بجحيم سيمون ماغوس ونصحوني بحياة التوبة حيث يكون بوسعي أن أصبح قديساً، ولكنّني أجبتهم من دون أن أقلل من احترام سلطتهم: إن هذا ما كنت أنويه بالضبط منذ البداية. وفي الحقيقة أنني لن أكسب شيئاً من كوني قديساً بعد أن أموت، فأنا فنان والشيء الوحيد الذي أريده هو أن أبقى حياً، فأتمكن من أن أتابع مسيرتي هذه ولو بمعدل مسيرة حمار في هذه السيارة السياحية بمحرك ذي ست أسطوانات والتي اشتريتها من قنصل قوات البحرية مع سائق من الترايندداد الذي كان صاحب الصوت الجهير الأول في أوبرا قراصنة نيو أورليانو وبقمصاني الحريرية الخالصة، وبعطوراتي الشرقية، وبأسناني المصنوعة من حجر كريم، وقبعتي القشية المسطحة، وأزراري الثنائية الألوان، ونومي من دون ساعة منبه، ورقصي مع ملكات الجمال، فأسكرهم ببلاغتي اللغوية من دون أن يصيبني أيّ خوف من أن تتلاشى ملكاتي في أحد أيام أربعاء الرماد، لأنه وحتى استمرّ في هذه الحياة التي تشبه حياة راهب كل ما أحتاجه هو وجهٌ مغفّلٌ كوجهي، ولدي أكثر مما يكفيني من سلسلة الحوانيت التي أملكها والتي لاتغيب عنها الشمس حيث السياح أنفسهم الذين اعتادوا على صوري الموقعة بخط يدي، والتقاويم التي دونت عليها قصائد الحب، والميداليات التي تبرز ملامحي، وقطعاً من ثيابي وهذا كله دون البلاء الرائع المتمثل في تمضية النهار بأكمله والليل بأكمله محفوراً على رخام خصّص للفرسان حيث

تلفظ عليها أسراب السنونو أوساخها مثل الآباء في هذا البلد.

إنه لمن المؤسف أن لايتمكن الساحر الشرير من سرد هذه القصة مرة ثانية، فيتمكن الناس من معرفة أنْ لا شيء فيها مختلف، ففي المرة الأخيرة التي رآه فيها الناس في هذه الدنيا كان خسر أساس مجده السابق، فغدت روحه خراباً وارتجفت عظامه من شدة برد الصحراء، لكنه ما يزال لديه ما يكفي من الأجراس المجلجلة كي يظهر من جديد في يوم ذلك الأحد على أرصفة سانتا ماريا ديل دارين بصندوقه الأبدي الكئيب، غير أنه في هذا الوقت لم يحاول بيع أي نوع من أنواع الترياق، ولكنه كان يطلب من أفراد البحرية بصوت يتهدج عاطفة أن يطلقوا النار عليه وعلى مرأى من عامة الناس كي أتمكن بجسدي العاري أن أثبت المقدرة على إعادة الحياة التي يتمتع بها هذا المخلوق غير الطبيعي سيداتي وسادتي، بالرغم من أنّه لديكم كل الحق أن لاتصدقوني بعد أن ذقتم الأمرين لوقت طويل من حيلي الشريرة كغشّاش ومخادع، فأنا أُقسم بعظام والدتي إن هذا البرهان اليوم لايمت بصلة إلى عالم السحر بل، إنه فقط الحقيقة المجردة لا أكثر ولا أقل وفي حال كانت لديكم أية شكوك أخرى فلاحظوا الآن أنني لا أضحك كما اعتدتُ سابقاً، ولكنّني أكبت رغبة بالبكاء، كم كان يبدو مقنعاً، وهو يفك أزرار قميصه وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ويضرب نفسه ضربات عنيفة على قلبه ليدل على المكان الأمثل للموت، ومع هذا لم يتجرأ أفراد البحرية على إطلاق النار عليه خوفاً من أن يكتشف حشد يوم الأحد فقدانهم

لوقارهم تدبر أحدهم ممن لم ينسَ الحركات الساحرية في ماضيات الأيام، ولا أحد يعرف كيف، تجلب له صندوق ما يكفي من جذور نبات الباربسكو لتجلب إلى سطح مياه الكاريبي الغربان كلها، ففتحها برغبة عارمة وكأنّه سيأكلها حقاً، وحقاً قام بأكلها، ولكن -سيداتي وسادتي- أرجوكم لا تتأثروا ولا تُصلّوا صلاة الخلاص لروحي، لأنّ هذا الموت ليس إلاّ زيارة، كان صادقاً جداًّ في تلك المرة، ولم تظهر عليه نوبات الموت، ولكنّه نزل من فوق الطاولة كما ينزل السرطان، ونظر إلى الأرض بحثاً عن أفضل بقعة ليستلقي فيها بعد شيء من التردد حيث نظر إلي كما ينظر إلى أم، وزفر آخر نفس في صدره، وهو لا يزال يحبس دموعه الرجولية التي تلفها كلها تشنجات الأبدية. وهذه كانت بالطبع المرة الأولى التي خذلني فيها علمي. وضعته في ذلك الصندوق البدائي الحجم حيث تتوفر سعة من المكان ليتمدّد فيه ودفعت مبلغ أربعة وخمسين بيزوس دبلون❖ أجرة موسيقا القداس الجنائزي التي أُعدت له، لأن الكاهن كان يرتدي ثياباً موشاة بالذهب وكان هناك ثلاثة أساقفة. أمرت له ببناء ضريح إمبراطوري على تلة لها أفضل مناخ ساحلي، وبكنيسة صغيرة مخصصّة له، وبلوحة معدنية كُتبَ عليها بحروف قوطية: هنا يرقد الساحر الميت الذي كثيراً ما سُمّي بالشرير خادع أفراد البحرية وضحية العلم ولما كانت علامات التكريم هذه تكفيني لأعطي فضائله حقّها بدأت أنتقم لنفسي من سمعته السيئة، فأعدت له الحياة داخل القبر المحصّن، وتركته حبيساً يتخبّط في رعبه. حدث هذا قبل أن

يلتهم النمل الناري سانتا ماريا ديلدارين بوقت طويل. ولكن ما يزال الضريح سالماً لم يصبه أذى على التل تحرسه التنانين التي صعدت لتنام هناك في طيات الرياح الأطلسية، وفي كل مرة أمُرّ من هنا أجلب له سيارة محمّلة بالزهور فيئن قلبي إشفاقاً عليه بسبب فضائله، ولكن عندما أضع أذني على اللوحة المعدنية لأسمعه ينتحب بين بقايا الصندوق المتصدع، فإذا صدف أن فارق الحياة ثانية سأعيده إليها مرة أخرى، لأن متعة العقاب تكمن في أنه سيستمرّ في العيش داخل القبر طالما أنا على قيد الحياة، وهذا يعني إلى الأبد.

الرحلة الأخيرة للباخرة الشبح

خاطب نفسه بصوته القوي، سيعرفون الآن من أنا، بعد أن غدا رجلاً، وبعد أن مرّت سنوات عديدة على رؤيته، ولأول مرة، باخرة المحيطات الضخمة، تلك الباخرة التي مرّت بالقرية ذات ليلة من دون أضواء أو أدنى صوت وكأنّها قصر ضخم غير مسكون.

لقد كانت أطول من القرية بأكملها وأكثر ارتفاعاً من برج الكنيسة، وقد أبحرت في الظلام باتجاه المدينة المُستَعمَرة عند الجانب الآخر من الخليج الذي كان قد تمّ تحصينه لمواجهة القراصنة، بمرفأ العبيد القديم فيها وبالضوء الدوار الذي كانت أشعته الكئيبة تغيّر شكل القرية، وتجعل منها كلّ خمس عشرة ثانية مخيماً يضيئه نور القمر ذات منازل متوهجة وشوارع مثلها مثل صحارى بركانيّة.

وبالرغم من أنه في ذلك الوقت كان صبيّاً، ولم يكن يتمتع بذلك الصوت الرجولي القوي، لكنه حصل على إذن من والدته كي يبقى حتى وقت متأخر على شاطىء البحر يصغي إلى قيثارات رياح الليل. كان لا يزال يتذكر باخرة المحيطات وكأنّه يراها الآن، ويرى كيف كانت تختفي عندما يضيء ضوء المنارة جانبها، وكيف تعود للظهور مرةً أخرى عندما يمرّ عليها الضوء. وهكذا كانت سفينة عابرة تبحر باتجاه مدخل الخليج، وتظهر أحياناً، وتختفي أحياناً أخرى، تمخر عباب الماء باحثة عن

الإشارات الضوئية التي تدلّ على مدخل الميناء مثلها مثل من يسير متلمّساً طريقه، وهو نائم. إلى أن بدا كأن شيئاً قد حصل في إبرة البوصلة، لأنها توجهت نحو الصخور القريبة واصطدمت بها وتحطمت وغاصت من دون أي صوت، بالرغم من أنّ اصطداماً بصخور كهذه كانت ستُحدث دويّاً كدويّ الحديد وانفجاراً للمحركات قد تُجمد من الخوف تلك التنينات من ذوات النوم الثقيل التي تغط في نومها في أعماق غابة خرافية تبدأ مشارفها مع آخر شوارع القرية، وتنتهي في الجانب الآخر من العالم. لذلك لم يكن هذا كله بالنسبة إليه إلا حلماً، وخاصة في اليوم التالي، عندما رأى مياه الخليج الساطعة، وفوضى ألوان أكواخ الزنوج على التلال المطلّة على الميناء، ومراكب المهرّبين القادمين من جزر غوايانا، وهم يحملون حمولتهم من الببغاوات البريئة المملوءة حويصلاتها بالماس. وفكّر، لقد غرقت في النوم، وأنا أعد النجوم، وقد حلمت بالسفينة الضخمة، وكان بالطبع، مقتنعاً جدّاً بهذا حتّى إنه لم يخبر أحداً، ولم يتذكر، رؤياه مرة ثانية إلى أن أتت تلك الليلة نفسها من شهر آذار التالي عندما كان يبحث عن آثار الدلافين في البحر، ولكن ما وجده كان الباخرة الوهمية المظلمة التي تظهر وتغيب مبحرة في الاتجاه الخاطىء نفسه الذي أبحرت فيه أول مرّة، وعندها فقط كان متأكّداً تماماً من أنّه كان يقظاً إذ هُرع ليخبر والدته التي أمضت ثلاثة أسابيع تئنّ، وبخيبة أمل، مردّدة: هذا لأنّ دماغك أخذ يبلى بسبب القيام بالكثير من الأعمال السيّئة ونومك خلال النهار وخروجك خلال الليل مثل المجرم، وبما أنّه أثناء ذلك

الوقت كان عليها الذهاب إلى المدينة لتحصل على شيء ما مريح حيث تستطيع أن تجلس وتفكّر بزوجها الميت، لأنّ كرسيها الهزّاز قد اهترأت خشبتاه نصفا الدائريتين بعد إحدى عشرة سنة من حياتها كأرملة، فقد انتهزت الفرصة وجعلت قائد المركب يتوجه نحو المياه الضحلة حتى يتمكّن ابنها من رؤية ما رآه حقاً على صفحة المياه الصافية، فكان ما رآه هو توالد سمك الشفنين في الربيع، وأسماك البارغو الورديّة والكورفين الزرقاء التي كانت تغطس في مياه أخرى أكثر عمقاً وصفاءً من بقية الأماكن، ورأى كذلك خصلات شعر منثورة لضحايا غرقوا من ركام سفينة استعمارية، ولكنه لم ير أيّ أثر لبواخر غارقة أو ما شابه، مع هذا فقد ركب رأسه في ذلك حتى إن أمه وعدته وبشكل مؤكد أن تأتي معه لتراقب ذلك في آذار القادم، مع أنّ الشيء الوحيد الذي كان مؤكداً أن مستقبلها هو كرسيّ مريح من أيام فرنسيس دراك وقد اشترتها من مزاد مخزن تركيّ. وفي نفس الليلة جلست لتستريح وهي تتنهّد على هذا الكرسيّ، عزيزي أولوفرنوس المسكين، أتمنى لو كان باستطاعتك أن ترى كم هو ممتع التفكير بك على هذه البطانة المخمليّة وعلى هذا الغطاء المطرّز الذي أُخذ من عرش ملكة. لكنها كانت كلما استعادت ذكرى زوجها الميت فار الدم في شرايينها، وتحوّل إلى ما يشبه الشوكولا، وكأنّها عوضاً عن الجلوس كانت تركض، وقد تبللت بسبب القشعريرة والحمى، وكان تنفّسها مشبعاً برائحة التراب، إلى أن عاد ابنها عند الفجر ووجدها ميّتة في الكرسيّ المريح، ولا يزال جسمها

دافئاً، وكأنّها بدأت بالتعفن، كما يحدث للمرء بعد أن تلدغه أفعى. وقد حدث الشيء نفسه مع أربع نسوة، وهذا قبل أن يرموا بالكرسي القاتل إلى البحر بعيداً جداً حيث لن يجلب الشر إلى أحد فقد استخدمه الكثيرون خلال قرون عديدة إلى أن فقد القدرة على منح الراحة لمن يجلس عليه. وهكذا كان على الفتى أن يعتاد على الحياة الروتينيّة الكئيبة ليتيم كان يُشار إليه بالبنان على أنّه ابن الأرملة التي جلبت عرش الحظ التعيس إلى القرية، وكان يعتمد في معيشته على السمك الذي يسرقه من المراكب أكثر من اعتماده على إحسان الناس إليه. وكان كلّما ازداد صوته خشونة يفقد القدرة على تذكّر رؤياه في الأيام الماضية، إلى أن حلّت ليلة أخرى من ليالي آذار، كان وقتئذٍ بالمصادفة ينظر باتجاه البحر وفجأة يا إلهي ها هو ذا الحوت الضخم من المعدن الذي لا يحترق، ذلك الوحش الكبير القوي. صرخ بجنون، تعالوا وشاهدوه، تعالوا وشاهدوه، كان يصرخ بصوتٍ عالٍ يشبه عواء الكلاب وذعر النساء، فتذكّر الرجال المسنّون رعب أجدادهم العظام، وزحفوا تحت أسرّتهم معتقدين أن وليم دامبيه قد عاد من جديد. ولكن أولئك الذين هربوا إلى الشوارع لم يبذلوا جهداً ليروا ذلك الشيء الذي من غير المحتمل ظهوره وكان قد ضاع من جديد في اتجاه الشرق واستُحضر في الذكرى السنوية لوقوع كارثته، لكنّهم انهالوا على الصبي ضرباً وتركوه محطّماً تماماً، عندها قال لنفسه، وهو يرغي ويزبد غضباً: سيرون الآن من أنا، ولكنّه حرص على أن لا يطّلع أحد على قراره، بل أمضى السنة

كاملة وفي ذهنه فكرة واحدة، هي أنّهم سيعرفون الآن من أنا، منتظراً يوم ظهور الشبح مرة أخرى ليقوم بما قام به من قبل وهو أن يسرق زورق صيد، وأن يعبر به الخليج وأن يمضي أمسيته منتظراً لحظته العظيمة عند مداخل صخور الشاطىء التي تقع قرب ميناء العبيد، في مياه البحر الكاريبي المملّحة بأجساد العبيد الميتين، لكنه كان غارقاً في مغامرته حتّى إنه لم يتوقف كما كان يفعل دائماً أمام حوانيت الهندوس ليتفرّج على تماثيل الحكام الصينيين العاجية المحفورة من ناب فيل كامل، كما أنه لم يسخر من الزنوج الهولنديين، وهم راكبون درّاجاتهم الثلاثيّة الطبيّة، ولم يخف كما في مرات سابقة من الملاويين ذوي اللون البرونزي، الذين طافوا العالم مسحورين بحلم لا سبيل لتحقيقه عن حانة سرّية حيث يبيعون قطع لحم مقلية مأخوذة من نساء برازيليات، وذلك كلّه لأنه لم ينته إلى شيء إلى أن لفّه الليل بكلّ ما يحمله من نجوم وعبقت الغابة بروائح عطرة لزهور الغاردينيا والسمندر المتفسّخ، وكان هو هناك يجدف بالزورق المسروق باتجاه مدخل الخليج، وقد أطفأ المصباح لئلاّ يلفت نظر خفر السواحل، فكان يأخذ شكلاً مثالياً كل خمس عشرة ثانية عندما ينيره ضوء المنارة الأخضر، ويعود ليصبح شكله بشريّاً ثانية في الظلام، وهو يعلم أنه يقترب من أضواء مدخل الميناء ليس لأنّ وميض هذه الأنوار كان يشتدّ أكثر، وإنّما لأن تنفّس المياه قد غدا حزيناً، وهكذا أخذ يجدّف، وهو مستغرق في تأملاته، حتى إنه لم يعرف من أين أتاه فجأة صوت تنفّس سمك القرش المخيف. ولم يعرف كيف اشتدّ الظلام،

وأصبح من حوله حالكاً أكثر، وكأنّ النجوم قد ماتت فجأة. ولكن سبب هذا كلّه لأن الباخرة كانت هناك بحجمها الذي لا يُصدّق. يا إلهي! إنها أكبر من أيّ شيء في هذا العالم، وداكنة أكثر من أيّ شيء آخر في البر أو في البحر. كانت تمرّ رائحة ثلاثمائة ألف طن من أسماك القرش قريباً جداً من الزورق فيستطيع تمييز خيوط التحام الصفائح المعدنيّة من دون أن تصدر السفينة ضوءاً واحداً من نوافذها الصغيرة التي لا تحصى، ومن دون أيّ تنهيدة من المحركات أو حتّى أي روح، تحمل معها دائرة صمتها وجوَّها الساكن وزمنها المتوقّف وبحرها الهائم الذي يطفو على سطحه عالم كامل من الحيوانات الغريقة، وفجأة اختفى كلّ هذا عندما ومض ضوء المنارة. وللحظة عاد الكاريبي صافياً كما كان وعادت ليلة آذار وأجواء الطيور البحريّة المعتادة في كلّ يوم، وبقي وحده بين الإشارات الضوئيّة مذهولاً لا يعرف ماذا يفعل، ويسأل نفسه إن كان يحلم وهو لا يزال يقظاً ليس الآن فقط ولكن في تلك الأوقات الماضية أيضاً. غير أن نفحة من الغموض أطاحت بالإشارات الضوئية فأطفأتها بأكملها وهو لا يكاد ينتهي من التساؤل، لذلك عندما سطع ضوء المنارة ظهرت الباخرة من جديد، وقد تعطلّت إبر بوصلاتها حتّى إنّها ربّما لم تعرف في أيّ جزء من المحيط كانت موجودة. كانت تبحث عن الممرّ المائيّ غير المرئي متوجهة حقاً نحو الصخور القريبة من الشاطىء، وعندها مرَّ في خاطره إلهام غامر وعرف أن سوء الطالع الذي جلبته الإشارات الضوئيّة هو آخر مفتاح من مفاتيح السرّ السحريّ. فأضاء المصباح في

الزورق، ولم يكن لضوئه الأحمر الخافت أيّ أثر في تنبيه أيّ شخص في أبراج الحراسة، ولكنّه كان بمثابة شمس تهدي ركاب المركب، فبفضله صححت الباخرة مسارها وعبرت من المدخل الرئيسي للقناة في مناورة لانبعاث حياة موفقة. ثم أُضيئت أنوارها كلّها في لحظة واحدة وارتفع صوت أزيز مراجلها من جديد، وبدت النجوم ثابتة في أوقاتها، وغاصت أشلاء الحيوانات إلى القاع. كان هنالك قرقعة صحون، ورائحة صلصة الغار في المطابخ، ويستطيع المرء أن يسمع أصداء موسيقيّة على السطوح التي يضيئها القمر، ونبض شرايين العشّاق فوق البحر وفي ظلال سطوح السفينة العالية، أما هو فكان لا يزال مشحوناً بالغضب المتراكم، فلم يسمح أن تزعجه الانفعالات أو تخيفه هذه الأعجوبة، ولكنه قال لنفسه بتصميم أكبر من ذي قبل: سيدركون الآن من أنا "الجبناء"، سيدركون الآن، وعوضاً عن الابتعاد عن طريقها كي لا تصدمه تلك الآلة الهائلة الحجم بدأ بالتجديف أمامها، سيرون الآن من أنا، واستمر في توجيه السفينة بواسطة المصباح حتّى غدا متأكداً تماماً من انقيادها له، فأجبرها على تغيير اتجاهها لتترك رصيف الميناء مرة أخرى، فأخرجها من القناة غير المرئيّة وقادها من زمامها وكأنها حمل بحريّ باتجاه أضواء القرية النائمة، فبدت سفينة حيّة لا يصيبها ضوء المنارة ولم يعد يجعلها غير ملائمة، بل جعلها تضيء كل خمس عشرة ثانية، ثم أخذ الضوء يظهر صلبان الكنيسة وبؤس المنازل والوهم، كلّ هذا، والباخرة لا تزال تمضي وراءه وتنفّذ إرادته وبداخلها القبطان النائم

على جنبه الأيسر وثيران المصارعة وقد غمرها المركب الذي يقودها الذي لم يعد يميز ما بين الجروف والسطوح، لأن زئيراً عظيماً انطلق من الصافرة في تلك اللحظة فابتلّ بقطرات البخار التي تساقطت عليه. ومرة ثانية كاد الزورق الذي ليس ملكاً له أن ينقلب، ولكن بعد فوات الأوان كانوا قد اقتربوا من أصداف الشاطىء وأحجار الشوارع وأبواب منازل أولئك الذين لم يصدقوه، وأُضيئت القرية بأكملها بأنوار الباخرة المخيفة نفسها، وبصعوبة كان لديه بعض الوقت ليبتعد، ويتنحى مفسحاً مجالاً لوقوع الكارثة، صارخاً في خضمّ الفوضى: ها هي أيها الجبناء! وذلك قبل لحظة من أن تصطدم مقدمة الباخرة الفولاذيّة بالأرض أو تشقّها، وعندها يستطيع الإنسان أن يسمع صوت التدمير الواضح للتسعين ألفاً وخمسمائة كأس من كؤوس الشمبانيا التي تحطّمت، واحدةً تلو الأخرى، على ظهر السفينة من حافة إلى أخرى. ثم سطع الضوء، ولم يعد الفجر فجر يوم من آذار، بل أصبح ظهيرة يوم أربعاء متألق، وكان الصبي قادراً على منح نفسه سعادة مراقبة الناس الذين لم يصدقوه حيث إنهم، وبأفواه مفتوحة، تأملوا أضخم باخرة رأوها في هذا العالم بجزئها المرتطم بالأرض أمام الكنيسة، والتي كانت أكثر بياضاً من أيّ شيء وأعلى من برج الكنيسة بعشرين مرة، وأطول من القرية بسبع وتسعين مرة تقريباً، وقد حفر بحروف معدنية بارزة "هالاكسبلاغ" والتي كانت تملأ جوانبها مياه بحار الموت الراكدة القديمة.

مناجاة ايزابيل عندما كانت تمطر في ماكوندو

حلّ الشتاء، في يوم أحد بينما كان الناس يخرجون من الكنيسة. وكانت ليلة السبت خانقة جداً. لكن لم يعتقد أحد أنّها ستمطر صباح الأحد. هبّت ريح قويّة مظلمة بعد القدّاس، وقبل أن نحظى - نحن النسوة بالوقت - لنرى ما علق على مظلاتنا إذ بدوّامة واحدة تكنس الغبار حاملة معها أوراق شجر البلوط الجافّة في أيار. قال أحد الأشخاص القريبين مني: "إنّها ريح تُنذر بالمطر". وكنت أوقن ذلك حتى قبل أن يقال هذا.

منذ اللحظة التي خرجنا فيها، وعندما نزلت على درجات سلّم الكنيسة اعترتني رجفة بسبب إحساس ثقيل في معدتي. هرع الرجال إلى المنازل القريبة يمسكون بقبعاتهم بيد وبمنديل باليد الأخرى ليحموا وجوههم من الريح وعاصفة الغبار. ثم أمطرت وأصبحت السماء شيئاً رمادياً هلامياً يصفق بأجنحته على مسافة ذراع من رؤوسنا.

أمضيت ما تبقى من الصباح جالسة مع زوجة أبي بقرب حاجز الشرفة يملؤنا الفرح لأنّ المطر بعد سبعة شهور حارقة وغبار لاذع سينعش زهور إكليل الجبل والناردين العطشى في الأصص. خفّت اهتزازات الأرض عند الظهيرة، واختلطت رائحة الأرض المقلوبة برائحة النباتات التي أفاقت، وتجدّد اخضرارها مع عبير المطر البارد المنعش في حقل ورود إكليل الجبل. قال والدي عند الغداء: "عندما تمطر في أيار تكون إشارة إلى

مواسم جيدة" قالت زوجة أبي، وهي تبتسم وقد أغضبتها إشراقة الفصل الجديد: "هذا ما سمعته في الموعظة" ابتسم والدي وتناول طعامه بشهيّة طيّبة حتى إنّه أخذ يهضم طعامه على مهل قرب حاجز الشرفة. كان صامتاً، وعيناه مغلقتان، لكنّه لم يكن نائماً، وكأنّه كان يحلم وهو يقظ.

أمطرت في فترة بعد الظهر كلّها على وتيرة واحدة. كانت شدّة المطر منتظمة وهادئة إذ كنا نسمع صوت انهماره كما هي الحال عندما تسافر طيلة فترة ما بعد الظهر في قطار. لكن دون أن ننتبه كان المطر يخترق حواسنا ليصل إلى أعماقنا. وفي الصباح الباكر من يوم الإثنين عندما أغلقنا الباب لنقي أنفسنا البرد القارس الآتي من ذلك التيار الثلجيّ الذي كان يهبّ من السّاحة، كانت حواسنا مشبعة بالمطر. ثم طفحت في صباح الإثنين. ذهبت مع زوجة أبي لنلقي نظرة على الحديقة. كانت أرض أيار الرماديّة الصلبة قد تحوّلت أثناء الليلة الماضية إلى مادّة داكنة لزجة مثل الصابون الرخيص. وأخذ يجري مزراب من الماء من أحواض الزهور فقالت زوجة أبي: أظنّ أنّهم حصلوا على أكثر مما ينبغي خلال الليل. لاحظت أنّها لم تعد تبتسم وأن سرورها في اليوم السابق قد تبدّل خلال الليل فتحول إلى جدّية مهملة ومملة. قلت: "أعتقد أنّك على صواب". من الأفضل أن ندع الهنود يضعونها على الشرفة إلى أن يتوقف المطر". وهذا ما قاموا به، بينما عمّ المطر ظهيرة يوم الأحد ولكنّه لم يتكلّم عن المطر. قال: "لا بد أنّني لم أنم جيداً الليلة الماضية لأنّني استيقظت وظهري متيبس". وبقي

هناك جالساً قرب حاجز الشرفة، وقد مدّ رجليه على كرسي، واستدار برأسه نحو الحديقة الفارغة. عند الغسق فقط قال بعد أن رفض الطعام: "يبدو وكأنّها لن تصحو أبداً". وتذكّرت شهور الحرّ. تذكرت شهر آب وفترات القيلولة الطويلة والمرعبة التي كنا ننام فيها كالأموات تحت وطأة وقت الظهيرة وقد التصقت ثيابنا بأجسادنا نسمع الطنين الكئيب والمتواصل للساعة التي لا تنقضي أبداً. رأيت الجدران المفتعلة ووصلات الدعامات الخشبيّة المنتفخة بالماء. رأيت ولأول مرة الحديقة الصغيرة فارغة وقد تدلّت شجيرة الياسمين على الجدار مخلصة لذكرى والدتي. رأيت والدي مستنداً إلى وسادة في كرسيّ هزّاز ليريح فقرات ظهره التي تؤلمه وقد ضاعت عيناه الحزينتان في متاهات المطر. تذكّرت ليالي آب التي لا يسمع شيء في صمتها العجيب سوى الصوت الألفي الذي تصدره الأرض عندما تدور على محورها الصدىء وغير المزيّت. وشعرت فجأة بأنّ حزناً عارماً قد تغلّب عليّ.

هطل المطر طيلة يوم الاثنين كما في يوم الأحد، لكنّه بدا كأنه ينهمر بطريقة أخرى، لأنّ شيئاً مختلفاً ومريراً كان يختلج في قلبي. عند الغسق همس صوت قريب من مكاني: "هذا المطر مصدر ملل". تبيّنت أنّه صوت مارتين دون أن ألتفت. وعرفت أنّه كان يتحدّث عن الكرسيّ المجاور بنفس التعبير البارد والمرعب الذي لم يتغيّر منذ ذلك الفجر الكانونيّ الكئيب الذي أصبح فيه زوجي. مرّت خمسة شهور على ذلك الوقت، وأنا أنتظر طفلاً الآن. ومارتين يجلس بجانبي ويقول: إنّ المطر قد

جعله يشعر بالملل. قلت: "إن المطر ليس مملاً. "بل إنّه محزن جداً بالنسبة إلي بتلك الحديقة الفارغة وتلك الأشجار البائسة التي لم تستطع الدخول من الساحة". ثم التفتُّ لأنظر إليه ولكنّه لم يكن موجوداً. فما بقي هو صوته الذي خاطبني فيه: "لا يبدو وكأنّها ستصحو". وعندما نظرت باتجاه الصوت لم أجد إلا الكرسي الفارغ.

وجدنا بقرة في الحديقة صباح يوم الثلاثاء. بدت مثل نتوء من الطين بجمودها الثوري العنيف. انغرزت حوافرها في الوحل، وتدلى رأسها إلى الأسفل. حاول الهنود إبعادها في الصباح بالعصي والحجارة، لكنّ البقرة بقيت في الحديقة رابطة الجأش صلبة ومنيعة ما تزال حوافرها مغروزة في الوحل ورأسها الضخم قد أذلّه المطر. وقام الهنود بتخويفها حتى سارع والدي بصبره المتسامح ليدافع عنها. دعوها وشأنها قال والدي "ستغادر من حيث أتت".

عند الغروب من يوم الثلاثاء قلّ المطر وبات مؤذياً ثقيلاً مثل الكفن على القلب، وبدأت برودة الصباح الباكر المعتدلة تتحول إلى رطوبة حارّة ودبقة. لم تكن درجة الحرارة لا باردة ولا حارة بل كانت حرارة حمى برديّة. تعرّقت الأقدام داخل الأحذية، وكان من الصعب القول ما الأسوأ: الجلد العاري أو احتكاك الثياب بالجلد. توقفت الحركة في المنزل وجلسنا على الشرفة، غير أنّنا لم نعد نراقب المطر كما فعلنا في اليوم الأول. لم نعد نشعر بانهماره، ولم نعد نرى شيئاً ما عدا ملامح الأشجار في الضباب مع الغروب الحزين والذي لا حياة فيه، والذي يترك على

شفتيك نفس الطعم الذي تشعر به عندما تستيقظ بعد أن حلمت بغريب. علمت أنه كان الثلاثاء وتذكّرت توأم القديس جيروم والبنات الضريرات اللواتي كن يحضرن إلى المنزل كل أسبوع ليغنوا لنا أغاني بسيطة يزيدها حزناً مرارة أصواتهن وطفولتها العجيبة. ومع صوت المطر سمعت أغنية التوأم الأعمى الصغيرة، وتخيّلتهم في المنزل وهم يهمهمون منتظرين توقف المطر ليستطيعوا الخروج للغناء. اعتقدت أن توأم القديس جيروم لم يكن ليأتي ذلك اليوم، ولن تأتي المرأة المتسوّلة بعد القيلولة إلى الشرفة طلباً للغصن الخالد من بلسم الليمون كما اعتادت أن تفعل كل ثلاثاء.

في ذلك اليوم لم نذق الطعام، وعند القيلولة قدّمت زوجة أبي طبقاً من الحساء لا طعم له وكسرة خبز يابسة. وفي الحقيقة لم نكن قد تناولنا الطعام منذ غروب يوم الإثنين، وأعتقد أننا توقفنا عن التفكير منذ ذلك الوقت.

خدرنا المطر، وأعاق حركتنا بالإضافة إلى استسلامنا أمام انهيار الطبيعة بهدوء وانصياع. لم تتحرك سوى البقرة بعد الظهيرة وفجأة هزّتها ضجّة عميقة من الداخل، فغاصت حوافرها في الوحل بقوة كبيرة، ثم رقدت دون حراك نصف ساعة، وكأنّها ميتة، ولكنّها لم تتعرض للسقوط فقد منعها اعتيادها على البقاء حيّة من ذلك، منعتها عادة الثبات في مكان واحد في المطر، إلى أن غدا ذلك الاعتياد أضعف من جسمها. ثم طوت قائمتيها الأماميّتين (وكانت لا تزال ترفع وركيها الداكنين اللامعين في محاولة مؤلمة أخيرة) وغطس أنفها الذي يقطر ماء في الوحل،

وفي النهاية استسلمت لثقل وزنها، فانهارت في احتفاليّة صامتة تدريجيّة وفورة كاملة. "لقد وصلت إلى هذا الحد"، قال أحدهم من ورائي. واستدرت لأنظر، وعلى عتبة الباب رأيت متسوّلة يوم الثلاثاء وقد أتت خلال العاصفة لتطلب غصن بلسم الليمون.

لربما بدأت أعتاد على هذا الجو الغامر يوم الأربعاء لو أنني لم أجد عند دخولي إلى غرفة الجلوس الطاولة، وقد أزيحت نحو الجدار، وتكدّس الأثاث عليها كما تكوّمت صناديق وعلب من أواني المطبخ في الجهة الأخرى على حاجز أُعدّ لذلك خلال الليل. أثار المنظر شعوراً مخيفاً من الفراغ في داخلي. لقد حدث شيء ما خلال الليل، فقد عمّت الفوضى في المنزل وكان هنود الغوجيرو حفاة عراة وقد لفّوا سراويلاتهم حتى وصلت إلى ركبهم، وهم يحملون الأثاث إلى غرفة الطعام. ويستطيع المرء أن يرى في تعابير الرجال وفي اجتهادهم الكبير الذي كانوا يعملون به قسوة تمرّدهم المحبط الناشئ عن دونيّتهم المهنيّة والمحتومة تحت المطر. وتحرّكت بلا هدف أو إرادة. فشعرت بأنّني قد تحوّلتُ إلى مرج مهجور مزروع بالطحالب والأشنة والفطر الطريّ اللّزج التي تغذّت بالنباتات الكريهة من الرطوبة والظلّ. كنت أتأمل المنظر المقفر للأثاث المتراكم في غرفة الجلوس عندما سمعت صوت زوجة أبي تحذّرني، وهي في غرفتها بأنّني قد أصاب بذات الرئة. وعندها فقط أدركت أنّ الماء قد وصل إلى كاحلي، وقد طاف المنزل وتغطّت الأرض بغطاء ثخين من المياه الميتة اللزجة.

وفي يوم الأربعاء ظهراً لم تكن الشمس قد طلعت بعد، وحلّ الليل نهائياً قبل وقته بكثير قبل الساعة الثالثة بعد الظهر كئيباً وبنفس إيقاع المطر البطيء والملّ والعديم الرحمة، فكان غسقاً قبل أوانه رقيقاً حزيناً يكبر وسط هدوء الغوجيرو الذين كانوا جاثمين على الكراسي مقابل الجدار مهزومين عاجزين أمام اضطراب الطبيعة. هكذا كان الحال عندما بدأ الخبر بالوصول من الخارج. لم يأت به أحد إلى المنزل، ببساطة وصل الخبر دقيقاً مميزاً وكأنه قد أتى مع نهر الوحل الذي ملأ الشوارع، وجرف معه الأدوات المنزلية وأشياء وأشياء وبقايا نكبة بعيدة ونفايات وحيوانات ميتة. استغرقت الأحداث التي وقعت يوم الأحد عندما كان لا يزال المطر يعلن فصلاً مقدساً لمدة يومين كي نسمع بها في المنزل. ووصل الخبر يوم الأربعاء تدفعه حركة العاصفة الداخلية العميقة. وعرفنا وقتئذٍ أن الكنيسة قد امتلأت بالماء وأن انهيارها متوقع. قال أحدهم ممن لم يكن له سبيل للمعرفة: "لم يستطع القطار العبور منذ يوم الإثنين، وبدا وكأن النهر قد جرف خطوط السكة الحديدية". واختفت امرأة مريضة من سريرها، ووُجدت طافية في الساحة بعد ظهيرة ذلك اليوم.

وجلستُ في الكرسي الهزّاز مرعوبة، وقد تملّكني الخوف وطوفان المطر، وقد رفعت ثيابي عن رجلي، وعيناي مثبّتتان على الظلمة الرطبة يكتنفها التنبّؤ الغامض. وظهرت زوجة أبي في مدخل الدار تمسك بالمصباح عالياً، ورأسها منتصب. بدت مثل شبح منزلي لم أشعر أمامه بأيّ خوف لأنّني شاركتها تلك الحالة غير العاديّة.

أتتني حيث كنت، وما يزال رأسها مرفوعاً، والمصباح عالياً في الهواء، وهي تشقّ طريقها خلال الماء على الشرفة قائلة: "علينا أن نصلّي الآن". لاحظت وجهها الجاف المتغضّن، وكأنّها غادرت قبرها لتوّها أو كأنّها جُبلت من غير جبلّة البشر. كانت تمرّ أمامي، ومسبحتها في يدها وهي تقول: "علينا أن نصلّي الآن. فقد فتح الماء القبور وطفا الموتى المساكين في المقبرة".

نمت قليلاً تلك الليلة واستيقظت مرعوبة من رائحة نافذة حادة ونتنة مثل رائحة الجثث المتعفنة. وبقوة قمت بهزّ مارتين الذي كان يشخر قربي لأسأله: "ألا تلاحظ هذا؟" فأجاب: ماذا؟ فقلت: "الرائحة يجب أن تكون رائحة الموتى الذين طفوا في الشوارع". أرعبتني الفكرة لكن مارتين استدار نحو الجدار وقال بصوت ناعس مبحوح: "هذا شيء أنت اختلقته، فالحوامل دائماً يختلقن الأشياء".

توقفت الرائحة عند فجر الخميس وضاع الإحساس بالمسافة واختفى تماماً الإحساس بالوقت منذ اليوم الفائت، وعندها لم يكن هناك من خميس، فاليوم الذي كان يجب أن يكون خميساً كان شيئاً مادياً هلاميّاً يمكن أن تقسمه اليد كي يمكن التطلع إلى يوم الجمعة. لم يكن هناك رجال ولا نساء. كان أبي وزوجته والهنود مجرد أجساد من مادّة ذهنيّة غريبة تتحرّك في مستنقع الشتاء. قال لي والدي: "لا تبتعدي عن ههنا إلى أن نخبرك بما تفعلين"، وكان صوته بعيداً وغير مباشر لا يمكن إدراكه بالأذن، ولكن باللمس تلك الحاسّة الوحيدة التي بقيت فعّالة.

ولكن والدي لم يعد، فقد تاه في هذا الطقس. لذلك ناديت زوجة أبي عندما حلّ الليل لأخبرها أنْ ترافقني إلى غرفة نومي. نمت نوماً هادئاً وساكناً طيلة الليل. كان الجوّ ما يزال نفسه في اليوم التالي بلا لون ولا عبق ولا حرارة. قفزت إلى كرسي حالما استيقظت، وبقيت بلا حراك لأنّ شيئاً ما أخبرني أنّه لا يزال هناك جزء من وعيي لم يستيقظ تماماً. ثم سمعت صفير القطار، وكانت صفيره طويلاً وحزيناً وكأنّه يطرد العاصفة. قلت لنفسي: "لا بد وأنّها قد صحت في مكان ما" وأجاب أفكاري صوت أتى من ورائي: "أي" فسألت وأنا أنظر: "من هناك" ورأيت زوجة أبي بذراعها الطويلة الرفيعة ممدودةً باتجاه الجدار وقالت: "هذا أنا" فسألتها: "أتستطيعين سماعه" أجابت: "نعم، ربّما قد صحت في الضواحي وقاموا بتصليح خطوط السكك الحديدية". ثم أعطتني الصينيّة وعليها فطور ساخن انبعثت منه رائحة صلصة الثوم والزبدة المغلية، فقد كان طبقاً من الحساء. سألت زوجة أبي، وأنا محبطة: "ما الساعة؟" فأجابتني بهدوء بصوت يشوبه الاستسلام المرهق: "يجب أن تكون حوالي الثانية والنصف" فقلت: "لم يتأخر القطار بعد كل هذا. كيف أمكنني النوم كل هذا الوقت" فأجابتني: "لم تنامي لوقت طويل فالساعة لم تتعدَّ الثالثة" قلت، وأنا أرتجف، وأشعر بالطبق ينزلق من بين أصابعي: "الثانية والنصف من يوم الجمعة؟" ردت بسكون كبير: "الثانية والنصف من يوم الخميس يا صغيرتي إنها ما تزال الثانية والنصف من يوم الخميس. لا أدري قدر الوقت الذي مرّ، وأنا مستغرقة في نومي حيث تفقد الحواس أهميتها.

أعرف فقط أنّني بعد ساعات لا تحصى سمعت صوتاً من الغرفة المجاورة يقول: "تستطيع الآن أن تطوي السرير إلى هذا الجانب". كان صوتاً متعباً، ولكنّه ليس صوت مريض بل صوت من يتماثل للشفاء. ثم سمعت صوت القرميد في الماء. بقيت متجمّدة حتى أدركت أنّني كنت في وضع أفقي ثم شعرت بفراغ هائل. شعرت بسكون البيت المتمرّد القاسي ذلك السكون الذي لا يُصدّق والذي أثّر في كل شيء. وفجأة شعرت بقلبي يتحول إلى حجر صلد. اعتقدت أنّني ميتة. يا إلهي إنني ميتة. قفزت من فراشي وصرخت: "آدا، آدا" فأجابني صوت مارتين البغيض من الجهة الأخرى: "لا يمكنهم سماعك، فهم خارج البيت". وعندها فقط أدركت أنّ الجوّ قد صحا، وأنّ كل ما حولنا هو سكون مطبق وغبطة عميقة غامضة. إنّها حالة موت مثاليّة. ثم كان من الممكن سماع وقع خطوات على الشرفة وصوت واضح وحي وفيما بعد هزّت نسمة منعشة لوح الباب فجعلت مقبضه يصرصر، ووقع جسد ضخم وقاس مثل الفواكه الناضجة عميقاً داخل صهريج في الساحة. أعلن شيء ما في الهواء وجود شخص غير مرئي يبتسم في الظلام. ففكّرت عندها: "يا إلهي العظيم" وأربكني ذلك الاضطراب الذي اعترى الوقت. لن يدهشني الآن إذا ما جاؤوا ينادوني للذهاب إلى آخر قداس أحد.

نابو، الرجل الأسود الذي جعل الملائكة تنتظر

كان نابو مستلقياً على القشّ، وهو منكفىء على وجهه. شعر برائحة البول تنبعث من الإسطبل، فتجعله يحكّ جسده. شعر بجمرة الخيول الأخيرة الدافئة على بشرته السمراء اللامعة، ولكنه لم يستطع أن يتلمّس جلدها.لم يشعر نابو بشيء، وكأنّ الرفسة الأخيرة لحدوة الحصان على جبهته قد أسلمته للنوم، وآنئذٍ كان هذا هو الشعور الوحيد الذي أحسّ به. فتح عينيه وأغلقهما من جديد ثم كان هادئاً وهو متمدّد ومتصلب كما كان طيلة ما بعد الظهر. لقد كان يشعر، كأنّه ينمو من دون أن يشعر بالوقت حتى صاح أحدهم من ورائه: "هيا نابو لقد نمت ما يكفي حتى الآن." فاستدار نابو ولكنه لم ير الجياد فقد كان الباب مغلقاً. لا بد وأن نابو قد اعتقد أنّ الحيوانات راقدة في الظلام مع أنّه لم يسمع ضرباتها النافدة الصبر. تخيّل أنّ من يتكلم معه كان خارج الإسطبل، فالباب كان موصداً من الداخل. قال الصوت من ورائه مرة أخرى: "حسنٌ نابو لقد نمت ما يكفي. لقد نمت تقريباً لثلاثة أيام". وعندها فقط فتح نابو عينيه وتذكر: "أنا هناك لأن حصاناً رفسني".

لم يعرف كم كانت الساعة. فقد ترك الأيام تمضي من ورائه، وكأنّ أحدهم قد مرّر إسفنجة رطبة على ليالي السبت البعيدة التي اعتاد فيها الذهاب إلى ساحة البلدة. لقد نسي كل شيء عن القميص الأبيض،

ونسي أنّه كان يملك قبّعة خضراء مصنوعة من القشّ الأخضر وسروال غامق اللون. نسي أيضاً أنّه لا يملك حذاء. كان نابو يذهب في ليالي السبت إلى الساحة، ويجلس في زاويةٍ صامتاً لا يستمع إلى الموسيقا، بل ليراقب الرجل الأسود. كان يراه كلّ سبت، وكان الزنجيّ يضع نظّارات حوافها ذات قرون، وقد ارتكزت على أذنيه وكان يعزف الساكسفون على إحدى الحوامل الموسيقيّة الخلفيّة.

رأى نابو الرجل الأسود، ولكن الأخير لم ير نابو. على الأقل لو عرف أحد أن نابو ذهب في ليالي السبت إلى الساحة ليرى الزنجيّ، وسأله (ليس الآن لأنه لا يتذكّر) إن كان الرجل الأسود قد رآه فأجاب نابو نافياً ذلك. وكانت مراقبة الرجل الأسود هو الشيء الوحيد الذي يقوم به بعد تنظيف الجياد.لم يكن الزنجيّ في مكانه في الغرفة في يوم سبت. وفي البداية ربما اعتقد نابو بأنه توقّف عن العزف في الحفلات الموسيقية العامة رغم أنّ حامله الموسيقيّ ما يزال موجوداً. وربما لذلك السبب نفسه كان الحامل الموسيقيّ ما يزال موجوداً.

فيما بعد اعتقد نابو أن الزنجيّ سيعود لمكانه في السبت القادم. لكنه لم يعد، ولم يكن الحامل الموسيقيّ في مكانه.

تدحرج نابو على جهة فرأى الرجل الذي كان يكلّمه. لم يتعرّف عليه بادئ الأمر، فقد حالت ظلمة الإسطبل دون ظهوره. كان الرجل جالساً على عارضة خشبيّة بارزة، وهو يتكلم ويربّت على ركبتيه. قال نابو مجدّداً، وهو يحاول تعرّف الرجل: "لقد رفسني حصان." قال الرجل: "هذا

صحيح لكن الجياد ليست هنا الآن ونحن ننتظرك في الجوقة." هزّ نابو رأسه. لم يكن قد بدأ بالتفكير بعد، ولكنه بدأ يعتقد أنه قد رأى الرجل في مكان ما. لم يفهم نابو غير أنّه لم يستغرب أن يقول له أحدهم ذلك لأنه كان يخترع بعض الأغاني لإلهاء الجياد بينما كان يقوم بتنظيفها، ثم كان يغني الأغاني نفسها ليسلّي الفتاة الخرساء في غرفة الجلوس. ولم يكن ليندهش لو قال له أحدهم أثناء غنائه: إنه سيأخذه إلى الجوقة. وكانت دهشته أقلّ الآن لأنّه لم يفهم، فقد كان مرهقاً متوحشاً كئيباً بليداً. قال: "أريد أن أعرف أين هي الجياد" وقال الرجل: "لقد قلت لك لتوّي: إن الجياد ليست هنا. وكل ما نهتمّ به الآن هو الحصول على صوت كصوتك." ربما سمع نابو وهو منكفىء على وجهه، ولكنّه لم يستطع تمييز الإحساس بالألم الذي سبّبته حدوة الحصان على جبهته من بقيّة أحاسيسه المضطربة. استدار، وألقى برأسه على القشّ، وغرق في النوم.

تابع نابو الذهاب إلى الساحة لأسبوعين أو ثلاثة على الرغم من أنّ الزنجيّ لم يكن في الغرفة. ولو سأل نابو عما حدث للرجل الأسود، فربما أجابه أحدهم، وحدّثه بما جرى للرجل الأسود. ولكنّه لم يسأل، واستمر يذهب إلى الحفلات الموسيقيّة إلى أن أتى رجل آخر بساكسفون آخر ليأخذ مكان الزنجيّ. وأخيراً اقتنع نابو أنّ الزنجي لن يعود، وقرّر أن لا يرجع إلى الساحة. عندما استيقظ اعتقد نابو أنه نام مدة قصيرة جداً. وكانت رائحة القشّ الرطب لا تزال تلهب أنفاسه، وكان الظلام ما يزال أمام عينيه ومحيطاً به، وكان الرجل في الزاوية. قال الرجل ذو الصوت

الهادىء الغامض وهو يربّت على ركبتيه: "نحن ننتظرك يا نابو فقد نمت لسنتين تقريباً وترفض أن تستيقظ." وأغلق نابو عينيه ثانية. فتحهما من جديد، واستمر في النظر إلى الزاوية ورأى الرجل مرتبكاً ومحتاراً مرة أخرى. وعندها فقط تعرّف عليه.

لو عرف سكان المنزل ماذا كان يفعل نابو في الساحة ليالي السبت لربما أدركوا أنه توقف عن الذهاب لأنه حظي بالموسيقا في المنزل وحصل هذا عندما أحضرنا الحاكي لتسلية الفتاة، وبما أنه كان يحتاج لأحد ما ليقوم بتدويره طيلة اليوم فقد بدا من الطبيعي أن يكون نابو. كان يقوم بهذا عندما ينتهي من الاعتناء بالجياد. وبقيت الفتاة جالسة تستمع إلى الأشرطة. كانت تنهض الفتاة أحياناً من كرسيها بينما تصدح الموسيقا، وهي تنظر إلى الجدار وقد سال لعابها، وتجرّ نفسها نحو الشرفة. وعندها كان يرفع الإبرة ويبدأ الغناء. في بادىء الأمر عندما أتى نابو إلى المنزل وسألناه ماذا يمكنه القيام به أجاب إنه يمكنه الغناء ولكن هذا لم يهمّ أحداً. ما كنّا نحتاجه هو لتنظيف الجياد.

بقي نابو، ولكنه استمر بالغناء كم لو أنّنا قد استخدمناه ليغنّي أمّا تنظيف الجياد فكان فقط مصدر إلهاء ليسهل عليه العمل. استمرّ هذا لأكثر من سنة حتى اعتدنا نحن الذين في المنزل على فكرة أنّ الفتاة لن تكون قادرة على المشي أبداً ولن تتعرّف أحداً وستكون دائماً الفتاة الميتة الوحيدة التي كانت تستمع إلى الحاكي، وهي تنظر إلى الجدار ببرود حتى نرفعها من كرسيها ونأخذها إلى غرفتها.

ثم توقفت عن بعث الألم في نفوسنا، وبقي نابو مخلصاً ومنتظماً في تدويره للحاكي. حدث هذا عندما كان نابو يذهب في ليالي السبت إلى الساحة. ذات يوم وعندما كان الصبيّ في الإسطبل قال أحد ما بجانب الحاكي: "نابو!" كنا على الشرفة ولم يسترعِ اهتمامنا شيء لم يقله أحد، ولكن عندما سمعناه للمرة الثانية: " نابو" رفعنا رؤوسنا وسألنا: "من مع الفتاة؟" وأجاب أحدهم: "لم أر أحداً يدخل" وقال آخر: "أنا متأكد من أنني سمعت صوتاً ينادي نابو". ولكن كل ما وجدناه عندما دخلنا لنرى هي الفتاة على الأرض ومستندة إلى الجدار. عاد نابو مبكراً وذهب للنوم. وفي السبت التالي لم يعد إلى الساحة لأن الزنجيّ قد استبدل. وفي يوم الاثنين من بعد ثلاثة أسابيع بدأ الحاكي يصدح بالألحان بينما كان نابو في الإسطبل. في البداية لم يقلق أحد، ولكن فيما بعد عندما رأينا الصبيّ الأسود قادماً، وهو يغنّي وما يزال مبلّلاً بمياه الجياد سألناه: "كيف خرجت؟" فأجاب: "عبر الباب. لقد كنت في الإسطبل منذ الظهر". سألناه: "إن الحاكي يصدح بالألحان. ألا تسمع؟" وأجاب "نعم" ثم سألناه: "من قام بتدويره؟" فهز كتفيه قائلاً: "إنّها الفتاة، فهي تديره منذ وقت طويل."

هكذا جرت الأمور إلى أن وجدنا نابو ذلك اليوم منكفئاً على وجهه في القشّ محتجزاً في الإسطبل، وقد تركت ضربة حافة الحدوة قشرة على جبهته. قال نابو عندما رفعناه من كتفيه: "أنا هنا لأن حصاناً رفسني." ولكن لم يهتم أحد بما قاله، فقد كان اهتمامنا محصوراً بعينيه الميتتين الباردتين وفمه المملوء بالزبد الأخضر. أمضى الليلة

بأكملها منتحباً وملتهباً بنار الحمى، وهو يهذي متكلّماً عن المشط الذي فقده بين القشّ في الإسطبل. كان هذا في اليوم الأول. وفي اليوم التالي فتح عينيه وقال: "إنني عطشان" فجلبنا له الماء، وشربه كله بجرعة واحدة وطلب المزيد مرتين، وعندها سألناه كيف يشعر فأجاب: "أشعر وكأن حصاناً رفسني" واستمرّ يتكلم طيلة الليل والنهار. في النهاية جلس في سريره مشيراً بسبابته إلى الأعلى وقال: " إن صوت جري الجياد قد أبقاه مستيقظاً طيلة الليل." ولكن كانت الحمى قد فارقته منذ الليلة السابقة. لم يعد يهذي، ولكنه استمر في الكلام إلى أن وضعوا منديلاً في فمه. ثم بدأ نابو الغناء من وراء المنديل قائلاً: "إنه يستطيع سماع الجياد وهي تتنفس قريباً من أذنيه باحثة عن الماء أعلى الباب الموصد. توجّه نحو الجدار عندما نزعنا المنديل من فمه ليأكل شيئاً، واعتقدنا جميعنا أنّه نام، وكان ممكناً أنّه نام لفترة قصيرة. ولكنّه عندما استيقظ لم يكن على السرير، فقد كانت قدماه ويداه مقيّداتٍ إلى زوج من العوارض الخشبية في الغرفة. بدأ نابو الغناء وهو مقيّد.

قال نابو للرجل عندما تعرّفه: "لقد رأيتك من قبل"، وقال الرجل: "اعتدت أن تراقبني كلّ سبت في الساحة." فأجاب نابو: "هذا صحيح، ولكنّني اعتقدت أنني رأيتك، ولكنك لم ترني" فقال الرجل: أنا لم أرك أبداً، لكن فيما بعد عندما لم أعد أذهب شعرت، وكأنّ شخصاً قد توقف عن مراقبتي أيام السبت." قال نابو: "إنك لم تعد أبداً لكنني تابعت الذهاب ثلاثة أسابيع أو أربعة ". قال الرجل، وكان ما يزال لا يتحرك،

وهو يربّت على ركبتيه: "لم أستطع أن أعود إلى الساحة رغم أنّها كانت الشيء الوحيد الذي يستحق العناء". حاول نابو أن يجلس فهزّ رأسه في القشّ، وكان ما يزال يسمع ذلك الصوت البارد العنيد إلى أن لم يعد لديه الوقت ليعرف أنّه كان يغفو مجدّداً. كان هذا يحدث دائماً منذ أن رفسه الحصان. كان دائماً يسمع الصوت القائل: "نحن بانتظارك يا نابو. لم يعد هناك من أداة لقياس المدّة التي قضيتها نائماً."

كان نابو يمشط ذيل أحد الجياد بعد انقضاء أربعة أسابيع منذ أن توقّف الزنجيّ عن المجيء إلى الغرفة. لم يسبق له أن قام بذلك أبداً. كان فقط ينظّف الجياد، ويغنّي أثناء ذلك. ولكنّه ذهب إلى السوق يوم الأربعاء، ورأى مشطاً وقال لنفسه: "إن هذا المشط لتسريح ذيول الجياد." كان هذا عندما حدثت القصة كاملة مع الحصان الذي رفسه، وتركه مشوّشاً بقية حياته منذ عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً. قال أحدهم في المنزل: كان من الأفضل له لو مات ذلك اليوم، ولم يبق هكذا يتفوه بالسخافات طيلة حياته." لكن لم يره أحد مجدّداً منذ ذلك اليوم الذي حبسناه فيه. كنّا نعرف فقط أنّه كان هناك في الغرفة محتجزاً، ومنذ ذلك الحين لم تحرّك الفتاة الحاكي من جديد. لكنّنا في المنزل لم نهتمّ كثيراً بهذا الموضوع. لقد احتجزنا نابو كما لو أنه كان حصاناً، وكما لو أنّ الرفسة قد نقلت له بلادة الحصان البهيميّة، وشكلت قشرة على جبهته. تركناه وحيداً بين أربعة جدران، وكأنّنا قرّرنا أنّه يجب أن يموت من السَجن، فلم تجر فينا دماء باردة بشكل كاف لنقتله بطريقة ما.

مرّت أربع عشرة سنة على هذا النحو إلى أن كبر أحد الأولاد، وقال: إن لديه دافعاً لرؤية وجه نابو، وفتح الباب.

رأى نابو الرجل مجدّداً وقال: "رفسني حصانٌ". قال الرجل: "لقد استمررت في قول ذلك لقرون، وكنا ننتظرك في الجوقة في غضون ذلك؟. هزّ نابو رأسه ثانية، وغاصت جبهته المجروحة في القشّ مرة أخرى وقال في نفسه: إنه تذكر فجأة كيف حدثت الأمور. "كانت المرة الأولى التي قمت فيها بتمشيط ذيل حصان" وقال الرجل: نريد الأمر أن يتمّ بهذه الطريقة حتى تستطيع أن تأتي وتغنّي في الجوقة. قال نابو: "كان عليّ أن أشتري المشط" وقال الرجل: "كنت ستجده على أية حال. فقد قرّرنا أن نجد المشط ونمشط ذيول الأحصنة" قال نابو: "لم أقف أبداً وراء الأحصنة من قبل." قال الرجل، وهو ما يزال في حالة هدوء متوتر يخفي قلة صبره: ولكنك وقفت هناك ورفسك الحصان. إنها الطريقة الوحيدة بالنسبة لك حتى تأتي إلى الجوقة. وهكذا استمر الحديث يوميّاً من دون أيّ تغيير إلى أن قال أحدهم في المنزل: لا بد أنّ هذا الباب لم يفتح منذ خمس عشرة سنة." كانت الفتاة جالسة تنظر إلى الجدار عندما فتحوا الباب (لم تكن قد كبرت بعد فقد كانت قد تجاوزت الثلاثين من عمرها وكان الحزن في سبيله لأن يبدو في عيونها.) أدارت وجهها نحو الجهة الأخرى، وهي تتنشق. وعندما أغلقوا الباب قالوا من جديد: "إن نابو هادىء، ولا شيء يتحرّك في الداخل بعد الآن. سيموت يوماً ما وسنعرف فقط من الرائحة". وقال أحدهم: "نستطيع أن نعرف من الطعام فلم يتوقف أبداً عن الأكل.

إن حالـه جيـدة الآن وهـو محجـوز في الـداخل لا يزعجـه أحـد. إذ يصـله مـا يكفي من الضوء من الجهة الخلفية. بقيت الأمور على هذا المنوال ما عدا أنّ الفتاة تابعت النظر نحو الباب وهي تتنشّق الدخان الدافئ الذي كان ينساب من الشقوق. بقيت الفتاة على هذه الحال حتى ساعة مبكرة من الصباح عندما سمعنا صوتاً معدنيّاً في غرفة الجلوس، وتذكّرنا أنّه كان نفس الصوت الذي سمعناه منذ خمس عشرة سنة عندما كان نابو يدير الحاكي. نهضنا، فأشعلنا النور، وسمعنا المقدمة الموسيقية للأغنية المنسية، تلك الأغنية الحزينة التي كانت قد ماتت في التسجيلات لمدّة طويلة. استمرّ الصوت يصدر، ويصبح أكثر توتّراً إلى أن سمعنا صوتاً حادّاً لحظة وصولنا إلى غرفة الجلوس، وكنّا ما نزال نسمع الموسيقا تدور، ورأينا الفتاة عند الزاوية بقرب الحاكي تنظر إلى الجدار، وتمسك بذراع تدويره. لم نتفوه بكلمة، لكن عدنا إلى غرفنا وتذكّرنا أنّه قد قيل لنا منذ بعض الوقت: إن الفتاة تعرف كيف تدير الحاكي. بأفكار كهذه بقينا يقظين، ونحن نستمع إلى النغمة الصغيرة البالية من جهاز التسجيل الذي كان ما يزال يدور على ما تبقى من النابض المكسور.

انبعثت رائحة تفسّخ جسد ميت عندما فتحوا الباب في اليوم السابق، وصرخ الشخص الذي فتح الباب: "نابو! نابو" لكن لم يجب أحد من الداخل. كان هناك الصحن الفارغ بالإضافة إلى فتح الباب. لثلاث مرات في اليوم وضع الصحن تحت الباب، ولثلاث مرات أعيد الصحن فارغاً. بهذه الطريقة عرفنا أن نابو ما يزال على قيد الحياة، وليس بأية طريقة

أخـرى. لم يكـن هنـاك حركـة أو غنـاء في الـداخل. ولا بـدّ أنّ نـابو قـال للرجـل بعـد أن أغلقـوا البـاب: "لا أسـتطيع الـذهاب إلى الجوقـة". وسـأل الرجل: "ما السبب؟" فأجاب نابو: "لأنّه ليس لدي حذاء." وقال الرجل رافعاً قدميه: "إنّ هذا لا يهمّ فلا ينتعل أحد حذاء هنـا." ورأى نـابو بـاطن قدمي الرجـل العـاريتين الصـفراوين والمتصـلبتين اللـتين كـان قـد رفعهمـا. قـال الرجل: "لقد انتظرتك طويلاً". فقال نابو: "ولكن رفسني حصانٌ، وسأرشّ وجهي بالقليل من الماء، وأخـرج الجيـاد للتريّض." قـال الرجـل: لـن تحتاجـك الجياد بعد اليوم، فليس هناك من جيـاد وعليـك أن تـأتي معنـا." وقـال نـابو: "يجب أن تكون الجياد هنا." رفع نفسه قليلاً وغاصت يداه في القشّ بينمـا قال الرجل: لم يكن لديهم أحد للاعتناء بهم لخمس عشـرة سـنة، ولكـن نابو كان ينبش الأرض تحت القشّ قـائلاً: "يجـب أن يكـون المشـط هنـا". وقـال الرجـل: لقـد أغلقـوا الإسـطبل منـذ خمـس عشـرة سـنة، وقـد امـتلأ بالنفايات بظهيرة يوم واحد، ولن أتحرك من هنا إلى أن أجد المشط."

سمعوا الحركـات الصـعبة في الـداخل مجدّداً بعد أن أغلقـوا البـاب في اليـوم التـالي، ثـم لم يتحـرّك أحـد. لم يقـل أحـد شـيئاً عنـدما سمـع صـوت صرير الباب الذي بدأ ينهار بسبب ضغط غير عادي. سُمع في الداخل شـيء يشبه لهاث حيوان محتجـز، وأخيراً سُمع صوت صـرير المفصّلات الصـدئة الـتي انكسـرت عنـدما هـزّ نـابو رأسـه ثانيـة قـائلاً: "لـن أذهـب إلى الجوقـة حتى أجد المشط. يجب أن يكون هنا في مكـان مـا." وحفـر في القش وهـو يتكسـر، ونـبش الأرض حتـى قـال الرجـل: "حسـنٌ نـابو. إذا كـان الشـيء

الوحيد الذي تنتظره لتأتي إلى الجوقة هو أن تجد المشط فاذهب وابحث عنه." ومال نحو الأمام وقد أظلم وجهه بغطرسة حالمة. وضع يديه على الحاجز وقال: "هيّا نابو سأعمل على أن لا يوقفك أحد." ثم انهار الباب، وظهر الزنجيّ الضخم المتوحش ذو الندبة الخشنة على جبهته على الرغم من حقيقة مرور خمس عشرة سنة متعثراً بالأثاث بقبضتيه المرفوعتين والمهددتين، وما تزالان مقيدتين بنفس الحبل الذي قيّد به منذ خمسة عشر عاماً (عندما كان صبياً صغيراً أسود اللون يعتني بالجياد) (وقبل أن يصل إلى الساحة) مرّ بالفتاة التي بقيت جالسة، وما يزال ذراع تدوير الحاكي في يدها منذ الليلة الماضية (عندما رأت القوة السوداء المتحرّرة من القيود تذكّرت شيئاً كان في وقت ما كلمة) ووصل إلى الساحة (قبل أن تجد الإسطبل) بعد أن أسقط بكتفه مرآة غرفة الجلوس، لكن من دون أن يرى الفتاة سواء في المرآة أو قريباً من الحاكي. وقف، ووجهه نحو الشمس وعيناه مغلقتان كالأعمى (بينما كانت الضجة التي أحدثتها المرآة المكسورة ما تزال تدوّي في الداخل)، وركض بدون هدف مثل حصان معصوب العينين يبحث غريزياً عن باب الإسطبل الذي محته من ذاكرته، وليس من غريزته سنوات السجن الخمس عشرة. (منذ ذلك اليوم البعيد الذي مشط فيه ذيل الحصان وترك مخبولاً لبقية حياته).

ركض مخلّفاً وراءه المأساة والفناء والخراب مثل ثور معصوب العينين بين عدد كبير من المصابيح، وحفر الأرض وربما بالغضب العاصف نفسه الذي أوقع به المرآة ربما معتقداً أنه بنبشه الأرض قد ينشر رائحة بول

الفرس من جديد إلى أن وصل أخيراً إلى أبواب الإسطبل، وفتحها بسرعة واقعاً على وجهه في الداخل ربما، وهو يعاني من آلام الموت، لكنّه كان لا يزال مضطرباً من تلك السمة الحيوانية المفترسة التي منعته منذ نصف ثانية مرّت من سماع الفتاة التي رفعت ذراع تدوير الحاكي عندما سمعته يمرّ، وتذكّرت، وهي تهذي، لكن دون أن تتحرّك من كرسيها، ودون أن تحرّك فمها، لكنّها بينما كانت تدير ذراع الحاكي في الهواء تذكّرت الكلمة الوحيدة التي تعلّمتها طيلة حياتها، فأخذت تصيح من غرفة الجلوس: "نابو! نابو!".

عاصفة الأوراق

وصلت فجأة شركة الموز مثل دوامة من الرياح، وضربت جذورها في قلب المدينة، تتبعها عاصفة الأوراق. نشطت دوّامة العاصفة التي حملت معها حثالات بشريّة وموادّ من المدن الأخرى، وبقايا حرب أهليّة بدت مستبعدة الحدوث تماماً وغير معقولة. كانت دوّامة لا تهدأ أبداً، فقد لوّثت كل شيء برائحة ما لفته من هذا الحشد المختلط من الأشياء، رائحة إفرازات الجلد والموت الخفيّ. فلم يمض عام على ذلك حتى نُثرت فوق المدينة أنقاض كوارث عديدة حلّتْ قبلها، مبعثرة في الشوارع ما حملته من نفايات مختلطة. وسرعان ما تمايزت تلك النفايات وتفرّدت في وقت متناسب مع الإيقاع المجنون الذي لا يمكن أن يتنبأ بالعاصفة إلى أن تحوّل، ما كان شارعاً ضيّقاً، ينتهي بنهر في أحد طرفيه ومقبرة في طرفه الآخر، إلى بلدة مختلفة وأكثر تعقيداً، تكوّنت من نفايات مدن أخرى.

وصلت بعدئذٍ مخلفات المستودعات والمستشفيات وصالات اللهو ومعامل الكهرباء واختلطت بعاصفة الأوراق البشريّة مدفوعة إلى ذلك بقوّتها المحمومة. تألّفت هذه المخلفّات من نساء ورجال عَزَبِ حين ربطوا بغالهم إلى أوتاد قريبة من الفندق، وكانوا يحملون معهم متاعاً واحداً، إما صندوقاً خشبياً أو صرّة من الملابس. وبعد شهور قليلة صار لكل منهم بيت وعشيقتان، ولقب عسكري استحقّه عن جدارة نظراً لتأخّره عن دخول الحرب.

كما وصلت إلينا مع الدوّامة أيضاً مخلّفات الحبّ الحزين من المدن الأخرى، وبنت بيوتاً خشبيّة صغيرة ففي البداية كان ركن ونصف سرير يكفيان لصنع بيت بائس لليلة واحدة، وبعدئذٍ شارع سريّ صاخب، ومن ثم قرية داخلية كاملة من التسامح داخل البلدة.

ومن قلب تلك الزوبعة العنيفة، تلك العاصفة من الوجوه المجهولة والمظلاّت والنوافذ على طول الشارع العام، ومن الرجال الذين يبدلّون ملابسهم في الشارع، ومن النساء الجالسات على الصناديق الخشبيّة، ومظلاّتهن مفتوحة حيث كانت البغال الواحد إثر الآخر يتخلّف على الرصيف المحاذي للفندق، فيجنح لينفق جوعاً، ومن هذا كلّه قدم الأولون منا ليكونوا آخر من يبقى، فقد كنا، نحن الدخلاء القادمين الجدد.

عندما أتينا بعد الحرب إلى ماكوندو، وعرفنا نوعيّة تربتها الطيّبة عَلِمنا أنّ عاصفة الأوراق قادمة لا ريب في ذلك، ولكنّنا لم نأبه لما ستحمله معها. ولهذا عندما شعرنا أنّ السيل الكبير قادم، لم يعد أمامنا سبيل آخر، إلاّ أن نضع طبقاً فيه سكين وشوكة، ونجلس خلف الباب بصبر منتظرين القادمين الجدد حتى يتعرّفونا. ثم أطلق القطار صفيره للمرّة الأولى. فاستدارت عاصفة الأوراق، وتوجّهت لتحيّته، وعندها فقدت مسارها.

لكنّها تمكنت من تكوين وحدة وتماسك كبيرين، ثم خضعت لعملية التخمير الطبيعية التي جعلتها تتحد مع إنبات الأرض.

(ماكوندو ١٩٠٩)

I

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها جثّة إنسان ميت. ومع أنّ ذلك اليوم كان الأربعاء فقد كنت أشعر وكأنّه الأحد لأنني لم أذهب إلى المدرسة، ولأنّهم ألبسوني بذلة خضراء من قماش قطني مخطط، كنت أحس بها ضيّقة عليَّ في أكثر من موضع. وبينما كنت أمسك بيد أمي، وأتبع جدي، وهو يتلمس طريقه بخيزرانته خطوة إثر خطوة كي لا يتعثّر بالأشياء (فقد كان لا يبصر كثيراً في الظلام، وهو يعرج أيضاً)، عبرتُ أمام مرآة غرفة الجلوس فرأيت صورتي بكامل طولي مرتدياً الأخضر والياقة البيضاء الناصعة التي كانت تقرص رقبتي من جهة واحدة. رأيتُ نفسي في المرآة المدوّرة المزركشة، وقلت في نفسي: هذا أنا، وكأنّ اليوم أحد.

قصدنا الدار التي سُجّيتْ فيه جثة الرجل الميت.

كانت الحرارة داخل الحجرة المغلقة تكتم الأنفاس. وكان بإمكانك أن تسمع الشمس تئزّ في الشوارع، وكان هذا كلّ شيء. فالهواء هنا راكد مثل الخرسانة، ويعتريك شكّ أنّه قد يلتوي مثل صفيحة من الفولاذ. وكانت تنبعث في الغرفة، حيث وُضعت الجثّة، رائحة صناديق خشبية،

غير أنني لم أر أيّ صندوق في أيّ زاوية. رأيتُ أرجوحة مشبّكة معلّقة بحلقة من أحد طرفيها. وفي المكان رائحة قمامة أيضاً. أعتقد أنّ الأشياء من حولنا قد تكسّرت وتداعت، ولها شكل الأشياء التي تفوح منها رائحة القمامة، بالرغم من أن رائحة شيء آخر كانت تنبعث منها.

لطالما اعتقدت أن الميتين يجب أن يضعوا القبّعات على رؤوسهم. أمّا الآن فأدرك أنّ هذا ليس ضرورياً. فبإمكاني رؤية أنّ لهم رأساً مثل الشمع ومنديلاً معقوداً حول عظام أفكاكهم. وأستطيع أن أرى أنّ أفواههم مفتوحة قليلاً وأنّه بإمكانك رؤية أسنانهم الوسخة وغير المنتظمة خلف الشفاه القرمزية. أستطيع أن أرى أنّهم يبقون لسانهم معضوضاً ومائلاً إلى أحد الجوانب وهو سميك ولزج، وذو لون أغمق بقليل من لون وجوههم مثل لون الأصابع التي تقبض على عصا. وأستطيع أيضاً رؤية عيونهم المفتوحة بسعة أكبر من عيون الأحياء، وتبدو قلقة وهائجة، وإنّ بشرتهم تبدو وكأنّها مصنوعة من التراب الرطب المضغوط. اعتقدت أنّ الميت سيبدو مثل شخص هادئ ونائم، لكنّني أرى الآن عكس هذا تماماً، فإنّه يبدو مثل شخص استيقظ غاضباً بعد عراك.

ارتدت أمّي ثياباً تدلّ على أنّ اليوم أحد أيضاً. فقد اعتمرت قبعة القشّ القديمة التي تنزل حتى أذنيها ولبست ثوباً أسود اللون مزرّراً حتى العنق، له أكمام تصل إلى معصميها. وبما أنّ اليوم أربعاء فقد بدت لي وكأنّها شخص آخر بعيد غريب. ساورني أنّها تودّ إخباري شيئاً عندما نهض جدّي ليستقبل الرجال الذين جلبوا التابوت، وتجلس أمي إلى جانبي وظهرها

نحو الباب المغلق.

إنّها تتنفس بتثاقل، وتواصل إبعاد خصل الشعر التي ما انفكّت تسقط من تحت القبعة التي اعتمرتها على عجل. أمر جدّي الرجال أن يضعوا التابوت بجانب السرير. وعندها فقط أدركت أنّ تابوتاً كهذا قد يناسب حجم الميت. فحينما أدخل الرجال التابوت اعتقدت أن حجمه كان صغيراً بالنسبة إلى جسد ممدّد على طول السرير كلّه.

لا أدري لماذا أحضروني معهم فأنا لم أدخل هذا المنزل من قبل، واعتقدت أنّه ما من أحد يسكن فيه. إنّه بيت كبير يقع على ناصية الشارع، ولا أظنّ أنّ بابه قد فُتح من قبل. فقد كنت أعتقد دائماً أنّ هذا البيت لا يقطنه أحد. والآن فقط، بعد أن أخبرتني أمي: "لن تذهب إلى المدرسة عصر اليوم"، لم أشعر بالفرح لأنّها قالت هذا بصوت صارم ومتحفظ، ورأيتها تعود مع بذلتي المصنوعة من القماش القطنيّ المضلّع لتلبسني إياها دون أن تنبس ببنت شفة، وتوجهنا نحو الباب لننضمّ إلى جدي، واجتزنا البيوت الثلاثة التي تفصله عن منزلنا، عندها أدركتُ، والآن فقط، أنّ أحداً قد عاش في هذه الناصية. إنّه الشخص الذي مات، ولا بدّ أن يكون ذلك الرجل الذي كانت أمي تتحدث عنه عندما قالت: "عليك أن تتصرّف بأدب أثناء جنازة الطبيب".

لم أر الرجل الميت عندما دخلنا. رأيت جدي عند الباب يتحدث إلى الرجال، ثم رأيته يأمرنا بالدخول. اعتقدت حينئذٍ أنّ هنالك شخصاً ما في الغرفة، ولكن عندما دخلت الغرفة شعرت أنّها كانت مظلمة وفارغة.

لفحت الحرارة وجهي منذ اللحظة الأولى، وشممتُ رائحة القمامة تلك، الرائحة التي كانت في بادىء الأمر قوية ومتواصلة، وأصبحت فيما بعد مثل الحرارة تتدفّق على هيئة موجاتٍ بطيئة ومتقّطعة، ثم تختفي.

قادتني أمي، وهي تمسك بيدي نحو الغرفة، وأجلستني إلى جانبها في إحدى زوايا الغرفة. استطعت بعد برهة من الزمن أن أتبّين الأشياء في الغرفة، فرأيتُ جدي، وهو يحاول أن يفتح نافذة بدت وكأنّها التصقت بإطارها، وصُمّغت بالخشب الذي أحاط بها. رأيته يضرب المزلاج بخيزرانته، وقد غطي معطفه بالغبار الذي أخذ يتطاير مع كل ضربة.

أدرت رأسي ناحية جدي الذي كان يتحرّك، ويقول: إنّه لم يستطع فتح النافذة، وحينئذٍ رأيت رجلاً على السرير. كان الرجل أسمر اللون ممّدداً بلا حراك. التفتُّ إلى حيث كانت تجلس أمي، فرأيتها جالسةً بوقار دون أن تُصدر أدنى حركة، وتنظر نحو مكان ما في الغرفة. ولما كانت قدماي لا تلامسان الأرض، وقد تدلّتا في الهواء بارتفاع يقارب نصف قدم، وضعت كفّي تحت فخذي، وكان باطن الكفّين على الكرسي، وبدأت أؤرجح رجلي دون التفكير بأيّ شيء إلى أن تذكرت ما قالته أمي: "عليك أن تحسن التصرّف أثناء جنازة الطبيب". ثم شّعرت بشيء بارد خلفي فاستدرتُ فلم أر سوى ذلك الجدار المصنوع من الخشب الجافّ والمحفور. ولكنْ بدا وكأنّ أحداً يخاطبني من وراء الجدار: لا تحرك رجليك، فإنّ الرجل الممدّد على السرير هو الطبيب، وقد فارق الحياة. وعندما نظرت نحو السرير لم أره كما رأيته من قبل، فأنا لم أره

مسجّىً الآن بل رأيته ميتاً.

ومنذ تلك اللحظة كنت كلمّا حاولت أن أبعد نظري عنه أشعر وكأنّ أحدهم يرغم وجهي على الاستدارة نحو ذلك الاتجاه. ولم يكن بصري يقع إلاّ عليه حتى لو حاولت النظر نحو أماكن أخرى في الغرفة، فقد كنت أراه بعينيه الجاحظتين وبوجهه الشاحب الميت في الظلال.

لا أعرف لماذا لم يأت أحدٌ للسهر على الميت قبل دفنه. فقد كنّا نحن كلّ من أتى: جدي وأمي والهنود الكواخيرو الأربعة الذين يعملون عند جدي، أحضر الرجال كيساً من الجير، وأفرغوه داخل التابوت، ولو لم تبد لي أمي غريبة وبعيدة لسألتها عن سبب قيامهم بذلك. فلم أفهم لماذا كان عليهم رشّ الجير داخل التابوت.

عندما انتهى الرجال من إفراغ الكيس قام أحدهم بنفضه فوق التابوت، فسقطت بعض النتف الصغيرة، وبدت أقرب إلى نشارة الخشب منها إلى الجير. رفعوا الميت من كتفيه وقدميه، وكان يرتدي قميصاً رمادياً وسروالاً رخيصاً مربوطاً إلى خصره بحبل أسود عريض وقميصاً رمادياً. لم يكن في قدمه إلا فردة حذائه اليسرى وكما تقول آدا: "فقد كانت القدم الأولى له قدم ملك والقدم الأخرى قدم عبد" كانت فردة الحذاء اليمنى على الطرف الآخر من السرير. وبدا الميت عندما كان على السرير، وكأنّه في ضيق، وبدا أكثر ارتياحاً وطمأنينة، وهو في التابوت. وبدت على وجهه الذي كان كوجه رجل حيّ استيقظ بعد عراك ملامح الاطمئنان والاسترخاء. كانت صفحة وجهه أكثر نعومة، وكأنّه شعر أنّه الآن، وفي

هذا التابوت، قد بات في مكانه المناسب كميت.

كان جدي يتحرك طيلة الوقت ضمن الغرفة، فقد التقط بعض الأشياء، وقام بوضعها في التابوت. نظرت من جديد إلى أمي، ولكي آمل أنها ستخبرني لماذا يرمي جدي بالأشياء داخل التابوت. لكنّ أمي بقيت جامدة في ثوبها الأسود وبدا أنّها تبذل جهداً لئلا تنظر حيث الرجل الميت. وكنت أحاول أن أقوم بالشيء نفسه، ولكنّني لم أستطع، فأخذت أحدّق فيه، وأعاينه. رمى جدي كتاباً داخل التابوت، وأشار إلى الرجال، فقام ثلاثة منهم بوضع الغطاء على الجثة. وعندها فقط شعرت بأنّني قد تحرّرت من الأيدي التي كانت تمسك برأسي، وتديره نحو ذلك الاتجاه، فبدأت أطوف بنظري في أرجاء الغرفة.

نظرت إلى أمي من جديد. وللمّرة الأولى منذ قدومنا إلى المنزل نظرتْ إليّ وابتسمت ابتسامة مصطنعة لا توحي بشيء. ومن بعيد استطعت سماع القطار يصفر وهو يختفي عند المنعطف الأخير أسمع صوتاً صادراً من زاوية الغرفة حيث كانت الجثة. أرى أحد الرجال يرفع حافة الغطاء ليضع جدي حذاء الميت في التابوت، تلك الفردة التي كانوا قد نسوها على السرير. يُصفر القطار من جديد ويبتعد أكثر فأتذكّر فجأة: أنها الساعة الثانية والنصف. أتذكّر بأنّها الساعة التي يصفر فيها القطار عند منعطف البلدة الأخير، ويصطفّ فيها الأولاد في المدرسة ليدخلوا إلى الحصّة الأولى من فترة بعد الظهر.

"إبراهام" أفكر في نفسي.

كان يتوجب عليّ أن لا أحضر الطفل معي. فمثل هذا المشهد لا يناسبه أبداً. وحتى بالنسبة إليّ، بالرغم من أنّني في بداية الثلاثينات من عمري، فإن مثل هذا الجو الذي يفرضه وجود الجثة مؤذٍ. بإمكاننا العودة الآن، ونستطيع أن نقول لبابا: إننا لا نشعر بالارتياح في غرفة حيث توجد فيها بقايا رجل انقطعت علاقته بكلّ شيء، وأصبح مصدر حبّ وامتنان يتراكم عبر سبعة عشر عاماً. ولعل والدي هو الشخص الوحيد الذي بدا منه شيء من العطف نحوه. وهذا شعور لا تفسير له وإن كان مفيداً له الآن لكي لا يظلّ يتعفن داخل هذه الجدران الأربعة.

لقد انزعجت لسخافة هذا الأمر برمته. وكانت تضايقني فكرة أننا بعد لحظة سنندفع إلى الشارع لنسير وراء تابوت لا يحرّك أيّ شعور إلاّ السرور في نفوس الجميع. أستطيع أن أتخيل تعابير وجوه النساء المطلّة من النوافذ وهنّ يراقبن والدي ماراً بهن ينظرن إليّ وأنا أمرّ بهنّ مع صبي خلف نعش يوجد في داخله الشخص الوحيد الذي طالما رغبت المدينة بأكملها في رؤيته على هذه الحال يتعفن في طريقه إلى المقبرة في خضم تخلٍ لا رجعة عنه، لا يتبعه إلا ثلاثة أشخاص قرّروا أن يقوموا بعمل إحسان تجاهه كان بداية الانتقام منه. وهذا يعني أنّ القرار الذي اتخذه والدي سيؤدي إلى امتناع الجميع عن السير وراء موكبنا حين نموت في المستقبل القريب.

ولعلّ هذا هو السبب الذي دعاني إلى أن أحضر الصبي معي. ومنذ اللحظة التي أخبرني فيها والدي: "عليك مرافقتي" فإنّ أول شيء خطر

ببالي هو أن أحضر الصبي حتى أشعر بالحماية.

وها نحن الآن في عصر يوم من أيام أيلول الخانق، نشعر بأنّ الأشياء من حولنا ليست إلا وسائل تخلو من الرحمة في أيدي أعدائنا. ولم يكن هناك سبب ليقلق والدي، ففي الواقع لقد أمضى حياته، وهو يقوم بأشياء كهذه، كان يكفيه أن يفي بوعد تافه قطعه على نفسه كي يغضب البلدة كلها مديراً ظهره لأعراف الناس فيها.

ولا بدّ أن والدي اعتقد منذ الوقت الذي قدم فيه هذا الرجل إلى بيتنا منذ خمسة وعشرين عاماً (وبملاحظته لأخلاق الزائر الغريبة) أنّه في مثل هذا اليوم يوم موته لن يكون في البلدة ثمة رجل واحد على استعداد حتى لرمي جثته إلى الصقور. ربما قد تنبأ والدي بكل هذه العقبات، وحسب وقدّر المضايقات المحتملة. والآن وبعد خمسة وعشرين عاماً لا بد أنّه شعر أنّ هذا ليس إلا تحقيقاً لتلك المهمّة البغيضة التي فكّر فيها لمدة طويلة من الزمن. إنّها فكرة كان يجب أن ينفّذها في أية حال من الأحوال طالما كان عليه أن يقوم بنفسه بنقل الجثة عبر شوارع ماكوندو.

ومع هذا عندما حان الوقت لم تكن لديه الشجاعة ليقوم بالمهمة وحده فجعلني أشارك بذلك الوعد الذي لا يُحتمل، والذي قطعه على نفسه منذ وقت طويل حتى قبل أن يغدو لي عقل أفكّر به. عندما قال لي: "عليك مرافقتي" لم يمنحني الوقت كي أفكر إلى أيّ مدى قد تؤدي بي كلماته، ولم أستطع تقدير العار والسخرية اللذين كانا سيلحقان بي من جرّاء المشاركة في دفن هذا الرجل الذي تمنى له الجميع أن يتحوّل إلى تراب

داخل مخبئه، لأنّ الناس لم يتوقعوا موته فقط، بل إنّهم كانوا مستعدّين لذلك أن يحدث في تلك الطريقة تمنوا حدوثه من أعماق قلوبهم، من دون أيّما ندم، بل على العكس فقد ساورهم شعور بالرضى المتوقع أنّه في أحد الأيام قد يشمّون رائحة تحلّل جسده المفرحة والتي كانت ستنتشر عبر البلدة دون أن يشعر أحد بالتأثر أو بالخوف أو بالعار، بل كان سيعتريهم شعور بالرضى لأنّ الساعة التي طالما انتظروها قد أتت،فهم يرغبون أن يستمر الوضع على هذه الحال إلى أن تُشبع رائحة الميت الفائحة حتى أعمق مشاعر الكراهية الكامنة في نفوسهم. فها نحن الآن سنحرم ماكوندو من بهجتها التي طالما انتظرتها. أشعر كأننّا بتصميمنا هذا لم نولّد بطريقة ما في قلوب الناس شعوراً كئيباً بالإحباط بل شعوراً بتأجيله. وهذا سبب آخر دفعني إلى إبقاء الصبي في البيت، كي أجنبّه التورّط في هذه المؤامرة التي ستحيط بحياتنا الآن كما أحاطت بالطبيب طيلة عشرة أعوام. كان حرياً بنا أن نترك الصبي خارج حدود هذا الوعد، فهو لا يعرف حتى سبب وجوده هنا ولا لماذا أحضرناه إلى هذه الغرفة المليئة بالقمامة كان جالساً لا يتفوّه بكلمة يؤرجح رجليه مريحاً يديه على الكرسي وهو ينتظر أحدهم كي يحلّ طلاسم هذا اللغز المرعب.

وكل ما أتمناه هو ألاّ يقوم أحد بذلك، أن لا يقوم أحد بفتح ذلك الباب الخفيّ الذي يحول بينه وبين أن يتجاوز حدود إدراكاته.

نظر إليّ عدة مرات، وأعلم أنّه كان يجدني غريبة، شخصاً لا يعرفه بذلك الثوب الخشن وتلك القبعة القديمة التي كنت أعتمرها حتى لا

تتمكن حتى مخاوفي ذاتها من التعرّف عليّ.

لربما قد اختلف الوضع لو كانت ميم على قيد الحياة هنا في هذا المنزل. لربما اعتقد أهل البلدة أنيّ أتيت لأجلها كي أشارك في حزن من المحتمل أنهّا لم تكن تشعر به، بل قد تتمكن من التظاهر به، وربما وجدت له البلدة تفسيراً. فقد غابت ميم منذ أحد عشر عاماً. ووضع موت الطبيب نهايةً لإمكانية اكتشاف مكانها أو على الأقلّ مكان وجود عظامها. ميم ليست هنا، ولكن من المرجح أنهّا لو كانت موجودة – إذا كان الأمر الذي حدث وانكشف سرّه لم يكن قد حدث – لكانت قد اتخذت موقف البلدة نفسه ضد الرجل الذي كان يدفىء فراشها لستّ سنوات بكلّ الحب والمشاعر الإنسانية التي قد يملكها أيّ بغل من البغال.

أستطيع سماع القطار يصفر عند المنعطف الأخير. إنها الثانية والنصف الآن على ما أعتقد، وأنا لا أستطيع منع نفسي من التفكير أنّ أهالي موكاندو يتساءلون في هذه اللحظة عمّا كنّا نفعله في هذا المنزل. أفكر بالسنيورة ربيكا، النحيلة مثل الرقاقة، وتبدو على هيئة شبح منزليّ بمنظرها وثوبها، وهي جالسة قرب مروحتها الكهربائية، تظلّل وجهها ستائر نوافذها. وبينما كانت تسمع القطار وهو يغيب عن النظر عند المنعطف الأخير مالت سنيورة ربيكا برأسها ناحية المروحة، يعذّبها الحر وشعور بالكراهية فتدور شفرات قلبها مثل شفرات المروحة (و لكن في اتجاهٍ معاكس) وتتمتم:

إنّ للشيطان يداً في هذا الأمر. فترتعش ويشدها إلى الحياة البحث عن

الأساسيات الصغيرة للأشياء اليوميّة.

وأغويدا الكسيحة ترى سوليتا عائدة من المحطة بعد أن ودّعت صديقها، فتراقبها، وهي تفتح مظلّتها، بينما تنعطف عند الزاوية المهجورة، وتسمعها تقترب، وذلك الفرح الجنسيّ يعتريها والذي كانت تشعر به يوماً والذي تغير في داخلها ليصبح مرض الصبر الدينّي الذي يجعلها تقول: "ستتخبطين في فراشك مثل الحيوان في حظيرته".

لا أستطيع التخلّص من تلك الفكرة. ولا أن أتوقف عن التفكير.. أنّها الثانية والنصف وأنّ البغل الذي يحمل البريد يمرّ تحت غطاء غيمة ملتهبة من الغبار يتبعه الرجال الذين قطعوا قيلولة يوم الأربعاء ليلتقطوا رزم الجرائد، وينام الأب أنجيل بينما هو جالس في غرفة المقدسات والملابس في الكنيسة وكتاب الصلوات مفتوح فوق صدره الدهني، يسترق السمع إلى البغل الذي يمرّ، ويبعد الذباب الذي يزعج رقاده فيتجشأ، ويقول: "لقد سمّمتني بكفتة اللحم التي صنعتها".

تحلّى أبي بأعصاب باردة أثناء كل هذا حتى إنّه طلب من الرجال أن يفتحوا التابوت ليضعوا فيه زوج الحذاء الذي كان قد ترك على السرير. ولم يكن ليثير انتباهه إلاّ أخلاق الرجل الوضيعة، ولن أستغرب أن تنتظرنا الحشود حين مغادرتنا مع الجثة مع كل الأوساخ التي استطاعوا جمعها خلال الليل ليرشقونا بوابل من القاذورات لأننا خالفنا مشيئة سكان البلدة. ربما لن يفعلوا هذا لأجل والدي، وربما سيقومون به لأنّه شيء مرعب يوازي إحباط بهجة تلقت لها البلدة لسنين عديدة وفكرت بها

أثناء فترات ما بعد الظهيرة الخانقة كلّما مرّ الرجال والنساء من هذا المنزل، وقالوا في أنفسهم: "عاجلاً أم آجلاً سنتغذى على هذه الرائحة". هذا ما قاله الجميع من أولّهم إلى آخرهم.

ستحين الساعة الثالثة بعد قليل والسنيوريتة تعرف هذا الآن. رأتها سنيورة ربيكا تمرّ وودّعتها من وراء الستائر التي حجبتها فخرجت من وراء تلك المروحة للحظة وقالت لها: "إنّه الشيطان يا سنيوريتا كما تعرفين". وغداً لن يكون ابني من يذهب إلى المدرسة، لكن حبّي مختلف تماماً، صبيّ سينمو وينجب، ويموت في النهاية دون أن يجد من يمنّ عليه بجميل دفنه كما يدفن المسيحيّ.

ألعلّيّ كنت أنعم بالسكينة الآن في منزلي لو لم يأت ذلك الرجل لزيارة والدي منذ خمسة وعشرين عاماً يحمل رسالة توصية (ولم يعرف أحد من أين أتى). لنعمت بالهدوء لو لم يقم معنا يلتهم الأعشاب وينظر إلى النساء بعينين خرجتا من محجريهما ككلب شهوانيّ. لكن عقابي كان مكتوباً قبل ولادتي، وبقي مخفيّاً ومكبوتاً إلى أن حلّت تلك السنة الكبيسة المشؤومة عندما بلغتُ الثلاثين، وأخبرني والدي: "عليك مرافقتي". وعندها وقبل أن يتسنّى لي الوقت كي أستفسر عن أيّ شيء، ضرب الأرض بخيزرانته قائلاً: "علينا أن نقوم بهذا كما ينبغي، فقد شنق الطبيب نفسه هذا الصباح".

غادر الرجال الغرفة وما لبثوا أن عادوا يحملون مطرقة وعلبة مسامير، ولكنهم لم يقوموا بإحكام إغلاق التابوت. وضعوا الأغراض على

الطاولة، وجلسوا على السرير حيث كان الميت ممدّداً.

بدا جدي هادئاً، لكن هدوءه كان يائساً وغير طبيعي، ويختلف عن هدوء الجثة في التابوت فهو هدوء رجل نافد الصبر يبذل جهداً كي لا يظهر ما يشهر به، كان هدوءه قلقاً ومتمرّداً، من النوع الذي يبدو عليه دائماً، بينما كان يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، وهو يعرج ويلتقط الأشياء التي علقت ببعضها البعض.

حين اكتشفت أنّ الغرفة مليئة بالذباب بدأت تعذّبني فكرة أنّ التابوت قد امتلأ بالذباب، فالرجال لم يسمرّوه بعد. ولكن يبدو لي أنّ صوت الطنين الذي اعتقدت في بادئ الأمر أنّه صوت مروحة كهربائية في الجوار ما هو إلا صوت أسراب الذباب التي كانت ترتطم بجوانب التابوت ووجه الرجل بصورة عمياء. أهزّ رأسي، وأغمض عيني، فأرى جدي يفتح التابوت، ويخرج بعض الأشياء التي لا أعرف ما هي. أستطيع أن أرى على السرير جمرات السجائر الأربعة، لا من قام بإشعال هذه السجائر. ولما كنت محاصراً بالحرارة الخانقة، وبالوقت الذي لا ينقصني، وبطنين الذباب فقد شعرت وكأنّ شخصاً يقول لي: "هذا ما ستؤول إليه حالك يوماً ما. سيضعونك داخل تابوت مملوء بالذباب: فأنت لم تبلغ بعد الحادية عشرة من عمرك، ولكن يوماً ما ستغدو على هذه الحال، وستُترك للذباب داخل تابوت مغلق". أمدّد رجلي الواحدة تلو الأخرى، وأنظر إلى جزمتي السوداء اللامعة. أفكر وأرى أنّ أحد الأشرطة مفكوك فأتطلع إلى أمّي مجدداً. تنظر هي أيضاً نحوي وتنحني لتقوم بربط شريط حذائي.

تذكّرني من جديد الرائحة التي تنبعث من رأس أمي بالتابوت المغلق، تلك الرائحة الدافئة التي تشبه رائحة الخزانة العتيقة، رائحة الخشب الملقى. فيغدو الجو مطبقاً للأنفاس، فتعتريني رغبة في أن أغادر الغرفة وأن أستنشق هواء الشارع الملتهب، وأن ألجأ إلى آخر ملاذ لي، فأقول لأمي بصوت خافت عندما تنهض: "ماما!" فتبتسم وتقول: "أمم؟" فأميل نحوها، نحو وجهها الغر المشرق، وأرتجف قائلاً: "أنا محصور".

تنادي أمي جدي وتخبره شيئاً. فأرى عينيه الصغيرتين الجامدتين من وراء نظارته عندما يقترب ويقول لي: "هذا مستحيل الآن". فأتمطى وأبقى هادئاً غير مكترث بفشلي. ولكن عادت الأمور لتمرّ ببطء من جديد. هناك حركة سريعة تليها وأخرى ثم أخرى. وتميل أمي صوب كتفي من جديد قائلة: "ألم يذهب عنك ذلك الشعور؟" تقولها بنبرة جادّة وقويّة أقرب إلى التوبيخ منها إلى السؤال. كانت معدتي مشدودة ومتصلّبة، ولكنّ سؤال والدتي جعلها تلين، فتصبح ممتلئة ومسترخية، ثم أخذ كلّ شيء طابعاً عدوانياً ومتحدياً بالنسبة إلي، بما في ذلك جديّتها. وأجيبها: "لا، مازلت محصوراً". فأعصر معدتي وأحاول أن أضرب الأرض بقدمي (كحلٍ أخير) ولكني لا أجد غير الفراغ تحتي، وهو المسافة التي تفصلني عن الأرض.

يدخل أحد رجال جدي الغرفة يتبعه رجل الشرطة ورجل آخر يرتدي بنطالاً من الجينز الأخضر ويضع حزاماً فيه مسدس، ويمسك بيده قبعةً لها حافّة عريضة ملتفّة. توجّه جدي نحوه ليحييه، فيسعل الرجل ذو

البنطال الأخضر في الظلام، ويُسرّ بشيء لجدّي، ويسعل ثانية، ويصدر أوامره للشرطيّ أن يفتح النافذة، وهو ما يزال يسعل.

بدت الجدران الخشبية. كأنّها ستنزلق، وكأنها قد بنيت من رماد بارد مضغوط. عندما ضرب الشرطي المزلاج بعقب بندقية ساورني شعور بأن المصاريع لن تنفتح. سيتداعى المنزل وتتهاوى الجدران بصمت مثل قصر من الرماد ينهار أمام الريح. وأشعر أنّنا سنغدو في الشارع عقب الضربة الثانية، جالسين تحت أشعة الشمس، وقد غطّتنا الأنقاض. ولكن المصاريع انفتحت إثر الضربة الثانية وعمّ النور أرجاء الغرفة. تكسّرت المصاريع بعنف، وانفتحت البوابة كأنّها تنفتح أمام حيوان هائج، يركض ويشمّ دون أن يصدر صوتاً فيثور غضباً ويخرمش الجدران، فيسيل لعابه ويعود ليرتمي بهدوء في أكثر زوايا القفص برودة.

بدت الأشياء أكثر وضوحاً إثر فتح النافذة، ولكنّها تتّحد مع بعضها بغرابتها غير الواقعيّة. أخذت والدتي نفساً عميقاً، وقادتني من يدي قائلة: "هيا، دعنا نلقي نظرة على منزلنا من النافذة." رأيت البلدة مجدّداً كما لو كنت عائداً إليها بعد رحلة. وأستطيع أن أرى منزلنا يتلاشى، ويتداعى، ولكنّه يبدو رائعاً بين أشجار اللوز.

أشعر من مكاني هنا وكأنّني لم أكن أبداً داخل تلك البرودة الخضراء المنعشة، وكأنّ منزلنا كان المنزل الخياليّ المثاليّ الذي كانت تعدني أمي به في تلك الليالي التي كنت أحلم بها بأحلام مزعجة. وأرى بَبي يمر بنا ولا يرانا وهو مستغرق في أفكاره، أرى الصبي من المنزل

المجاور الذي يمرّ بنا وهو يصفر، لكنه يبدو مختلفاً وغريباً، وكأنّه قد قص شعره لتوّه.

ينهض العمدة بقميصه المفتوح والعرق يتصبّب منه، وتعكس قسمات وجهه ضيقاً شديداً. ثم يتقدم نحوي يخنقه الانفعال الذي سببّته حجّته هو عندما قال: "لا يمكننا أن نتأكّد من موته ما لم تفح رائحته." وأنهى كلامه وهو يزرّر قميصه ويشعل سيجارته. وقد استدار بوجهه نحو التابوت من جديد، فقال ربما وهو يفكر: "والآن لا يمكنهم القول: إنّني أخالف القانون." أنظر في عينيه، فأشعر أنّني نظرت إليه بما يكفي من الصرامة لأجعله يفهم أنّني أستطيع النفاذ إلى أعمق أفكاره. أقول له: "إنك تخالف القانون حتّى ترضي الآخرين." فيجيب وكأنّ هذا تماماً ما توقّع أن يسمعه: "إنك رجل محترم أيها الكولونيل، فأنت تعرف أنّني لم أتجاوز صلاحياتي." فأقول له: إنك تعرف أكثر من أيّ إنسان آخر أنّه ميت: فيقول: "هذا صحيح ولكنّني في نهاية الأمر لست أكثر من موظف حكومي ولا يكون الأمر قانونيّاً إلا بشهادة وفاة." وأجيبه: "إذا كان القانون إلى جانبك فلمَ لا تستغل ذلك وتحضر طبيباً لتنظيم شهادة وفاة"؟ فيردّ عليّ، ورأسه مرفوعة بهدوء من دون غطرسة وحتى من دون أدنى مظهر من مظاهر الضعف والارتباك: "إنّك شخص محترم، وتعرف أنّ هذا سيكون سوء استخدام للسلطة." وعندما أسمعه أدرك أنّه مضطرب التفكير ليس بسبب الخمر، بل بسبب الجبن.

أرى الآن أنّ العمدة يشارك البلدة سخطها. إنّه شعور قاموا بتغذيته

طيلة عشر سنوات منذ تلك الليلة العاصفة التي أحضروا فيها الرجال الجرحى إلى باب الطبيب، ونادوه (لأنّه لم يفتح الباب، بل تحدث إليهم من الداخل). صرخوا قائلين: "أيّها الطبيب عليك الاعتناء بالجرحى لأنّه لا يوجد ما يكفي من الأطباء في المنطقة." لكنه لم يفتح الباب (لأنّ الباب بقي مغلقاً، والجرحى ممدّدون أمامه): "إنّك الطبيب الوحيد المتبقّي، وعليك أن تقوم بعمل الخير." فأجاب أيضا من دون أن يفتح الباب) وقد تخيّله الحشد أنّه كان واقفاً في منتصف غرفة الجلوس وقد رفع المصباح عالياً ليضيء عينيه الصفراوين القاسيتين: "لقد نسيت كل ما عرفته عن الطب. خذوهم إلى مكان آخر." وأبقى الباب مغلقاً (لأنّه لم يُفتح أبداً منذ ذلك الوقت) بينما ازداد الغضب وانتشر، وتحوّل إلى مرض جماعيّ الأمر الذي ظلّ يبعث عدم الراحة في ماكوندو لما تبقى من عمره. تردّدت الجملة تلك الليلة في كل أذن، تلك الجملة التي أدانت الطبيب وحكمت عليه أن يتعفن خلف هذه الجدران. واستمرّ صداها يتردّد حتى وقت طويل.

وكان أن مرت عشر سنوات دون أن يشرب من ماء البلدة فقد انتابه الخوف من أن يكون مسموماً فكان يعيش على الخضار التي زرعها مع عشيقته الهنديّة في باحة المنزل. ويشعر أهل البلدة الآن أنّ الوقت قد حان ليحرموه من الشفقة التي حرمهم منها منذ عشرة سنوات، وماكوندو التي تعرف أنّه ميت (لا محالة وأنّ السكان قد استيقظوا الآن شعور أقلّ وطأة هذا الصباح) تستعد للاستمتاع بالفرصة التي انتظرتاه طويلاً والتي عدَّها الجميع من حقها. كانت رغبتهم الوحيدة أن يشمّوا رائحة التفسّخ

العضوي من وراء الأبواب التي لم يفتحها في ذلك الوقت.

بدأت أعتقد الآن أنّه ما من شيء يساعدني على تحقيق وعدي في مواجهة شراسة البلدة؛ فقد حاصرتني كراهية مجموعة من المستائين، وضيق صدورهم. وحتى الكنيسة وجدت طريقة لتقف ضد ما صمّمت عليه؛ فقد قال لي الأب أنجيل منذ لحظة: "لن أسمح لهم بدفن رجل شنق نفسه في التراب المقدس بعد أن عاش ستين عاماً لا يعرف الله".

سيرضى الله عنك إذا توقفت عن القيام بما تحسبه عمل خير، ولكنّه في الحقيقة خطيئة العصيان. فرددت عليه: "إنّ دفن الموتى هو عمل من أعمال الخير كما ورد في الإنجيل."

وأضاف الأب أنجيل قائلاً: "هذا صحيح، ولكن في هذه الحالة ليس الأمر بيننا لنقوم بدفنه. إنّه من مسؤولية السلطات الصحيّة."

أتيت وناديت على لكواخيرو الأربعة الذين تربوا في منزلي، وأرغمت ابنتي ايزابيل على الذهاب معي. فبتلك الطريقة يتخذ الأمر صفة أكثر عائلية وإنسانية ويصبح غير شخصيّ وأقلّ تحدياً مما لو قمت به بمفردي بنقل الجثة إلى المقبرة عن طريق شوارع البلدة.

أعتقد أن ماكوندو قادرة على القيام بما تريده بعد الشيء الذي رأته يجري خلال هذا القرن من الزمن. ولكن إذا لم يحترموا كبر سني وكوني كولونيلاً في جيش الجمهورية والأكثر من ذلك عرجي وسلامة طويّتي فإنّني أتمنى على الأقل أن يحترموا ابنتي لأنّها امرأة. فأنا لا أقوم بهذا من أجلي ولا من أجل راحة نفس الميت أيضاً. قد يكون هدفي إيفاء

وعد مقدس قطعته على نفسي. فقد اصطحبت ايزابيل معي، ليس بدافع الجبن، بل بدافع الإحسان، اصطحبت الصبي أيضاً (وإنّني لأدرك أنّها فعلت ذلك للسبب نفسه) وها نحن الثلاثة الآن نتحمل وزر هذا العمل الاضطراري الصعب.

وصلنا منذ لحظة، واعتقدت أنّنا سنجد الجسد لا يزال متدلّياً من السقف ولكن وصل الرجال في بادىء الأمر ووضعوه على السرير وكادوا ينتهون من تكفينه، يملؤهم اعتقاد خفيّ أنّ الأمر كلّه لن يستغرق أكثر من ساعة. آمل أن يحضروا التابوت حين وصولي، فأرى ابنتي والصبي جالسين عند الزاوية. وألقي نظرة فاحصة على الغرفة، فيساورني تفكير أنّ الطبيب ربما قد ترك شيئاً وراءه يمكن أن يفسّر لماذا شنق نفسه. كانت طاولة الكتابة مفتوحة تغصّ بفوضى الأوراق التي لم يكتب أية واحدة منها. وأرى على الطاولة مجلّد الوصفات الطبية ذاته الذي أحضره إلى منزلي منذ خمسة وعشرين عاماً عندما فتح ذلك الصندوق الضخم الذي يتّسع لثياب جميع أفراد عائلتي. ولكنّه لم يكن في الصندوق إلا قميصان رخيصان وطقم من الأسنان الاصطناعية، الذي لا يعود له لسبب بسيط وهو أنّ أسنانه كانت ما تزال قويّة وكاملة، ولوحة مجلّد الوصفات الطبية. أفتح جميع الأدراج وأجد فيها أوراقاً مطبوعة قديمة يغطّيها الغبار، وأجد في الأسفل، في الدرج الأخير الأسنان الاصطناعية نفسها التي جلبها منذ خمسة وعشرين عاماً وكانت مغطّاة بالغبار، وقد اصفرّت بفعل القِدَم وعدم الاستعمال. كان هناك عدة حزم من الجرائد التي لم تفتح قرب المصباح

غير المضاء على الطاولة. تفّحصتها بإمعان. كانت مطبوعة بالفرنسية ويعود تاريخ أكثرها حداثة إلى ما قبل ثلاثة أشهر: تموز ١٩٢٨. وكانت هناك جرائد غيرها لم تُفتح أيضاً: كانون ١٩٢٧، وتشرين الثاني ١٩٢٦ وأقدم الأعداد تعود إلى تشرين الأول ١٩١٩.

أعتقد أنّه منذ تسع سنوات أي بعد سنة واحدة من صدور الحكم عليه لم يفتح الجرائد. فمنذ ذلك الوقت تخلّى عن الشيء الأخير الذي يربطه بأرضه وشعبه.

يجلب الرجال التابوت وينزلون الجثة فيه. ثم أتذكر ذلك اليوم الذي وصل فيه إلى منزلنا منذ خمسة وعشرين عاماً وأعطاني رسالة توصية مكتوبة في بنما، كتبها القائد المقيم لساحل الأطلسي، الكولونيل أورليانو بويندا في نهاية الحرب العظمى. أبحث بين الأشياء الصغيرة المختلفة في ظلمة الصندوق الذي يبدو وكأنّه لا قعر له، ولا يوجد أيّ دليل في زاوية الحجرة الأخرى بل فقط الأشياء نفسها التي جلبها معه منذ خمسة وعشرين عاماً. أتذكّر: أنّه كان له قميصان من القمصان الرخيصة وطقم من الأسنان ولوحة وذلك المجلّد القديم للوصفات الطبية. رحت أجمع هذه الأشياء قبل أن يغلقوا التابوت ووضعتها في الداخل.

كانت اللوحة ما تزال في قعر الصندوق تقريباً، في المكان نفسه الذي كانت فيه آنذاك. وتمثل صورة أخذت حسب الطريقة القديمة على لوح فضي لضابط يتقلّد وساماً. رميت الأسنان الاصطناعية داخل الصندوق كما رميت مجلّد الوصفات في النهاية. عندما انتهيت أعطيت إشارة إلى

الرجال ليغلقوا التابوت، وقلت في نفسي: سيبدأ الآن رحلة أخرى، ومن الطبيعي أن يأخذ معه في رحلته الأخيرة الأشياء التي كانت في جعبته من أوّل حتى آخر رحلة له. وسيبدو هذا الأمر أكثر الأمور طبيعية على الأقل. بدا لي أنّني أراه للمرة الأولى ميتاً تظهر على قسمات وجهه علائم الارتياح.

أفحص الغرفة فأرى أنّهم قد نسوا زوج حذاء على السرير. أشير إلى رجالي مرة ثانية بفردة الحذاء في يدي فيرفعون الغطاء في نفس اللحظة الحاسمة التي يصفر فيها القطار وهو يختفي عند منعطف البلدة الأخير. فأفكّر: إنّها الثانية والنصف، إنّها الساعة الثانية والنصف من الثاني عشر من أيلول عام ١٩٢٨، وتقريباً إنّها الساعة نفسها من ذلك اليوم عام ١٩٠٣ عندما جلس هذا الرجل إلى مائدتنا للمرّة الأولى، وطلب بعض أنواع الأعشاب ليأكلها. سألته إديلايدا حينذاك: "ما نوع الأعشاب التي تريدها يا دكتور؟" فيجيبها بصوته الشحيح المتأمّل الذي ما زال يصدر من أنفه: "أعشاب عاديّة يا سيّدتي من ذلك النوع الذي تأكله الحمير عادة."

II

في الحقيقة أن ميم لم تعد تقطن في المنزل، وربما ليس بمقدور أحد أن يعرف بالضبط متى غادرت المنزل. كانت آخر مرة رايتها فيها منذ أحد عشر عاماً. وكانت لا تزال على هذه الزاوية في دكانها الصغير الذي تبدّل بشكل تلقائي ليلبّي احتياجات الجيران فتحوّل إلى مخزنٍ لبيع أشياء مختلفة. كان كل شيء فيه منظّماً، وقد أشرفت على ترتيبه ميم الدؤوب المجتهدة التي كانت تمضي أيامها وهي إمّا تخيط للجيران على واحدة من أربع آلات خياطة منزلية كانت موجودة في تلك الأيام، أو خلف طاولة البيع تلبّي طلبات الزبائن بتلك الطريقة الهندية اللطيفة التي لم تفارقها أبداً والتي كانت في الوقت نفسه طريقة منفتحة ومتحفّظة بمزيج من البراءة والشكّ.

لم أر ميم منذ أن غادرت منزلنا، ولكنّني لا أستطيع أن أحدّد تماماً زمن قدومها إلى هنا لتعيش مع الطبيب عند ناصية الشارع أو حتى كيف انحطّت إلى هذه الدرجة لتصبح عشيقة رجل بخل عليها بخدماته، بالرغم من كلّ شيء ومن حقيقة أنّهما عاشا في منزل والدي، ميم كابنة بالرضاعة والطبيب كضيف دائم. علمت من زوجة أبي أنّ الطبيب لم

يكن رجلاً طيباً ، وبأنّه قد تجادل مطوّلاً مع والدي محاولاً إقناعه أنّ ما تعاني منه ليس بشيء ذي بال، وذلك دون أن يغادر غرفته. وبأية حال حتى ولو كان ما تعاني منه الفتاة الكواخيرو ليس أكثر من مرض عابر لوجب عليه أن يلقي نظرة عليها على الأقلّ مراعاة للمعاملة التي تلقّاها في منزلنا خلال السنوات الثماني التي عاشها فيه.

لا أعرف تماماً كيف جرت الأمور. وأعرف فقط أنّه ذات صباح لم تعد ميم موجودة في المنزل ولا حتى الطبيب. ثم طلبت زوجة أبي أن يوصدوا غرفته ولم تذكره من جديد إلا بعد سنوات عديدة عندما كنا نهيّىء ثياب زفافي.

ذهبت ميم إلى الكنيسة بعد ثلاثة أو أربعة أيام آحاد من مغادرتها منزلنا لتحضر قدّاس الساعة الثامنة. كانت ترتدي ثوباً من الحرير المطبوع المبهرج وقبّعة مضحكة تكلّلها باقة من الزهور الاصطناعية. عندما كانت في منزلنا كانت دائماً شديدة البساطة فقد كانت حافية معظم الوقت، لذلك بدا لي أنّ الشخص الذي دخل الكنيسة ذلك الأحد شخصٌ مختلف تماماً عن ميم التي عرفناها. سمعت ميم القدّاس، وهي منتصبة بين السيّدات، وكانت تبدو جلدة ومتصنعة تحت كومة أشياء رخيصة الثمن. كانت راكعة على ركبتيها وكان الورع الذي تابعت فيه القدّاس شيئاً جديداً عليها ظهر في الطريقة التي رسمت فيها علامة الصليب، فقد كان هناك شيء من تلك السوقيّة الزاهية المبتذلة التي دخلت بها الكنيسة فحيّرت الناس الذين عرفوها كخادمة في منزلنا

وأدهشت أولئك الذين لم يروها من قبل.

تساءلت و(لم أكن قد بلغت الثالثة عشرة في ذلك الوقت): ما الذي سبّب ذلك التغيير ولماذا اختفت ميم من منزلنا وظهرت في الكنيسة ذلك الأحد، وهي تبدو أقرب ما تكون لشجرة عيد الميلاد منها إلى سيدة فقد كانت ترتدي من الثياب ما يكفي كلباس كامل لثلاثة نساء في عيد الفصح. حتى إن الفتاة الكواخيرو هذه كانت تحمل من الخرز والمصوغات ما يكفي لإلباس امرأة رابعة. وقف الرجال والنساء عند الباب عندما انتهى القدّاس ليلقوا نظرة عليها، وهي خارجة. وقفوا على الدرج في صف مزدوج عند الباب الرئيسي، وأعتقد أنّه لا بد وأن يكون هناك شيء سريّ متعمد في تلك الطريقة الرضية والمتكاسلة المضحكة التي كانوا ينتظرون فيها دون أن يتفوّهوا بكلمة حتى خرجت ميم من الباب، وأغمضت عينيها وفتحتهما مجدّداً بإيقاع متناسب مع مظلّتها ذات الألوان السبعة. وهكذا مرّت بين صفّ الرجال والنساء المزدوج تبعث على السخرية بتنكرّها الطاووسي وهي تنتعل الكعب العالي، إلى أن شرع أحد الرجال بإغلاق الحلقة، وبقيت ميم في الوسط مذهولة ومضطربة تحاول أن ترسم ابتسامة متميزة كانت مبهرجة ومتصنّعة مثل ثيابها. ولكن عندما خرجت ميم وفتحت مظلّتها، وشرعت تسير، سحبني أبي الذي كان بجانبي نحو مجموعة الناس. لذلك عندما أخذ الرجال يغلقون الحلقة فتح والدي طريقاً لخروج ميم التي كانت تحاول الهروب بسرعة. أمسكها أبي من ذراعها دون أن ينظر إلى الناس المتجمعين هناك، وقادها

نحو منتصف الساحة وملامح التكبّر والتحدي بادية على وجهه، تلك الملامح التي تبدو عليه عندما يقوم بأمر يعارضه الناس.

مرّ بعض الوقت قبل أن أكتشف أن ميم قد ذهبت لتعيش مع الطبيب كعشيقة.

ظل الدكان مفتوحاً في تلك الأيام، وكانت ما تزال تذهب لحضور القدّاس مثل أرفع النساء مقاماً، لا يزعجها ما قاله الناس أو فكروا به. وكأنّها نسيت ما حدث لها في أوّل يوم أحد. ومع هذا بعد شهرين لم يعد يراها أحد في الكنيسة مرة أخرى.

أتذكّر الطبيب عندما كان يقيم من منزلنا. وأتذكّر شاربه الأسود المفتول وطريقته في النظر إلى النساء بعيني كلب شهوانيّ شره. كما أتذكر أنني لم أقترب منه أبداً، ربما لأنّني حسبته حيواناً غريباً يبقى جالساً إلى المائدة بعد أن يغادرها الجميع ويأكل الحشائش نفسها التي تأكلها الحمير. لم يغادر الطبيب مكانه عند الناصية خلال مرض أبي منذ ثلاث سنوات كما لم يغادره ولا حتى مرة واحدة بعد الليلة التي رفض فيها أن يعالج الجرحى، كما لم يغادره قبل هذا بست سنوات عندما تنكّر للمرأة التي أصبحت خليلة له بعد يومين فقط. كان المنزل الصغير قد أغلق أبوابه قبل أن تصدر البلدة حكمها على الطبيب، ولكنّني أعرف أن ميم كانت ما تزال تعيش في المنزل بعد عدة أشهر أو عدة سنوات من إغلاق المخزن. لا بد أنّ الناس اكتشفوا أنها اختفت بعد وقت طويل، لأنّ هذا ما نصّت عليه الورقة المجهولة التي عُلّقت على الباب،

وورد فيها أنّ الطبيب قتل عشيقته، ودفنها في الحديقة خوفاً من أن تستغلّها البلدة لتقوم بتسميمه.

لكنّني رأيت ميم قبل زواجي. حدث هذا منذ أحد عشر عاماً بينما كنت عائدة من حديقة الورد عندما أقبلت المرأة الكواخيرية نحو باب دكّانها، وقالت لي بطريقتها المرحة، والساخرة نوعاً ما: "تشابيلا... ستتزوجين ولم تخبريني حتّى بذلك."

أقول له "نعم لا بد أن تكون هكذا". ثم أسحب الأنشوطة حيث يمكن رؤية نسيج الحبل المقطوع حديثاً من إحدى نهايتيه. أعيد ربط العقدة التي قطعها رجالي ليتمكنوا من سحب الجثة وأرمي بإحدى النهايتين على العارضة الخشبية حتى تتدلّى الأنشوطة فتبقى عالقة بقوة تكفي لموت كثير من الناس مثل هذا الرجل. تغيّرت قسمات وجهه بفعل الخمرة، وتسارعت أنفاسه بينما كان يهوي وجهه بقبّعته فيقول وهو ينظر إلى الأنشوطة ويقدر قوتها: "إن أنشوطة رفيعة كهذه قد لا تتمكن من أن تحمل ثقل جسمه."

فأجبته: "إن هذا الحبل نفسه قد حمل أرجوحة نومه لسنين عديدة". فيسحب كرسياً ويعطيني قبّعته ويتعلّق على الأنشوطة فيحمرّ وجهه من الجهد الذي بذله. ويقف على الكرسي مرة أخرى ثم ينظر إلى طرف الحبل المتدلي ويقول: "هذا مستحيل، فالأنشوطة لا تصل إلى رقبتي" وعندها أدرك أنه يتعمد أن لا يكون منطقياً بحثاً عن طرق ليمنع الدفن.

أنظر إلى وجهه مباشرة وأتفحصه بإمعان قائلاً: "ألم تلاحظ أبداً أنه

كـان أطـول منـك براسـه علـى الأقـل؟" يسـتدير لينظـر إلى التـابوت ويقـول: "ليس هناك فرق، فأنا لست متأكداً أنه شنق نفسه بهذه الأنشوطة."

إنني متأكـد من أنه فعلها بتلك الطريقة. ويعرف هو ذلـك أيضـاً ولكـن لديه خطة لإضاعة الوقت لأنه خائف من تعـريض نفسـه للفضيحة. ويتجلّـى جبنـه في طريقـة تحركـه دون هـدف. كـان جبنـاً مزدوجـاً ومتناقضـاً مـن جانبـه أن يقـوم بإيقـاف مراسـم الـدفن، ثـم أن يسـمح بإقامتهـا. ثـم عنـدما يصـل إلى التـابوت يسـتدير علـى كعبيـه وينظـر إلـيّ ويقـول: "يجـب أن أراه مشنوقاً حتى أقتنع."

وكـان مـن الممكـن أن أقـوم بهـذا فكنـت سـأقول لرجـالي أن يفتحـوا التابوت وأن يعيدوا الرجل المشنوق مكانه كمـا كـان منـذ لحظـة مضـت. ولكـنّ هـذا سـيكون أكثـر ممـا تسـتطيع ابـنتي أن تتحملـه، وسـيكون أيضاً فوق طاقة الصبيّ. وكان عليها أن لا تحضره معها. مـع أنـه ليـزعجني أن أعامل ميتاً بتلك الطريقة، وأن أضايق جثة لا حول لها ولا قوة وأثير رقاد إنسان وجد راحته للمـرة الأولى، بـالرغم مـن أن تحريـك جثـة تتمـدّد بسـلام وبصورة لائقة في تابوتها هو أمر ضد مبادئي، غير أنني كنت سأشنقه من جديـد لمجـرّد أن أرى المـدى الـذي سيصـل إليـه هـذا الإنسـان. ولكـن هـذا مسـتحيل، فـأخبره بـذلك: "يمكنـك أن تكـون واثقـاً مـن أنّـني لـن آمـرهـم بالقيـام بـذلك، وإذا أردت بإمكانـك أن تشنقه بنفسـك ولكنـك سـتكون مسؤولاً عما يحدث. وتذكـر أننا لا نعرف كم مضى على موته؟"

لم يتحـرك، وكـان لا يـزال قـرب التـابوت، ينظـر إلـيّ، ثـم إلى ايزابيـل

والطفل، ثم من جديد إلى التابوت. وفجأة تصبح تعابير وجهه صارمة ومتوعّدة، فيقول: "عليك معرفة ما يمكن أن يحدث بسبب هذا." وأدرك ما يعنيه بتهديده فأقول له: "بالطبع أعرف فأنا رجل مسؤول" فيجيبني وقد طوى ذراعيه حينها وكان يتصبّب عرقاً وهو يتوجّه نحوي بحركات مدروسة ومضحكة يظهر من خلالها وكأنّه يتوعدني: "هل لي أن أسألك كيف اكتشفت أنّ هذا الرجل شنق نفسه ليلة البارحة؟"

أنتظره إلى أن يصبح أمامي. وأبقى ساكناً وأنا أنظر إليه حتى تلفح أنفاسه الحارة الخشنة وجهي. أنتظره حتى يقف وذراعاه مطويتان، وهو يحرك قبّعته وراء أحد إبطيه، ثم أقول له: "سيسرنّي أن أجيبك عن هذا السؤال عندما توجّهه لي بصفة رسميّة. يقف بمواجهتي في المكان نفسه ولا يُظهر أدنى دهشة أو استياء عندما أتكلّم إليه ويقول: "بالطبع أيها الكولونيل. فأنا أسألك بصفة رسمية."

سأرخي له الحبل على غاربه وأنا متأكد أنه مهما حاول اللعب فيه سيترتّب عليه أن يستسلم أمام موقف صارم في القضية، لكنه موقف هادئ ويمتاز بالصبر. فأقول له: "أنزل هؤلاء الرجال الجثة لأنني لم أستطع إبقاءها معلّقة حتى تقرّر أنت الحضور. لقد طلبت منك أن تأتي منذ ساعتين، لكنّك استغرقت كلّ هذا الوقت لتمشي على امتداد مجمّعين سكنيّين فقط.

ظلّ ساكناً فأواجهه وأنا مستند إلى عكازتي، منحنٍ نحو الأمام قليلاً وأقول له: "الشيء الآخر أنه صديقي" يبتسم بسخرية قبل أن أنهي

كلامي، لكن دون أن يغيّر مكانه وينفث أنفاسه الغليظة والكريهة في وجهي ويقول: "هذا من أكثر الأشياء سهولة في العالم، أليس كذلك؟" فجأة يتوقف عن الابتسام ويقول: "إذاً فأنت تعرف أنّ هذا الرجل سيشنق نفسه".

فأردّ عليه بهدوء وصبر مقتنعاً أنّه كان يتكلم على هذا النحو ليعقّد الأمور: "أكرّر أنّ أول ما قمت به عندما اكتشفت أنّه شنق نفسه كان الذهاب إلى بيتك وقد حدث هذا منذ ساعتين." فأجاب وكأنّني سألته سؤالاً ولم أدلِ بواقعة: " لقد كنت أتناول طعام الغداء" وأقول له: "أعرف هذا كما أعتقد أنّك قد تمتعت بقيلولة."

لم يعرف ما يقول حينئذٍ. فيتراجع وينظر إلى إيزابيل التي كانت تجلس قرب الصبيّ.

ينظر إلى الرجال، وينظر إليّ في النهاية، ولكنّ تعابير وجهه تغيرت الآن. ويبدو أنّه كان ينظر إلى شيء ما شغل تفكيره للحظة. فيدير ظهره إليّ، ويذهب نحو المكان الذي فيه رجل الشرطة، ويخبره بشيء ما، فيهزّ الشرطيّ رأسه ويغادر الغرفة.

ثم يعود ويأخذني من ذراعي ويقول: "أودّ أن أتكلم معك في الغرفة الأخرى أيها الكولونيل." تغيّرت نبرة صوته تماماً، فقد أصبحت نبرة متوترة وقلقة الآن.

استحوذت عليّ فكرة أنني أعرف ما سوف يخبرني به، بينما كنت أنتقل معه إلى الغرفة الأخرى شعرت بضغط غير مؤكد من يده على يدي.

كانت هذه الغرفة واسعة وباردة على عكس الغرفة الأخرى، وكان النور يدخلها من الباحة. داخل الغرفة كنت أستطيع أن أرى عينيه القلقتين والابتسامة التي لا تتناسب مع التعبير المنبعث من عينيه، وكان باستطاعتي سماع صوته يقول: "أيها الكولونيل ربما كان بإمكاننا أن نسوي هذه المسألة بطريقة أخرى" فسألته دون أن أعطيه الفرصة ليتابع كلامه: "ما المبلغ؟" فيتحول عندئذٍ إلى شخص مختلف تماماً.

أحضرت ميم صحناً من الجيلي وكعكتين مالحتين من ذلك النوع الذي تعلّمت صنعه عن أمي. دقّت الساعة التاسعة وكانت ميم تجلس قبالتي في نهاية المخزن تأكل بتكاسل، وكأنّ الجيلي والكعك وأشياء أخرى تجعل الزيارة ممكنة. أدركت هذا وتركتها تستغرق في متاهاتها وتغرق في الماضي بحماسة حزينة ملؤها الحنين، الأمر الذي جعلها تبدو في ضوء المصباح الزيتي المشتعل على طاولة البيع أكثر ذبولاً وتقدّماً في السنّ عما كانت عليه يوم دخلت الكنيسة، وهي تعتمر القبعة، وتنتعل الكعب العالي.

كان واضحاً أن ميم شعرت برغبة في أن تستعيد ذكرى الأشياء تلك الليلة وفي أثناء ذلك يساور المرء انطباع أنّها جعلت نفسها خلال السنوات الماضية حبيسة عصر ثابت لا ينتمي إلى زمن، وأنهّا بينما كانت تستعيد ذكرى بعض الأشياء تلك الليلة كانت تعيد الحركة إلى أيامها الشخصية من جديد، وتبدأ باجتياز عملية نضوجها المؤجّلة.

كانت ميم جامدة وكئيبة، وهي تتكلّم عن بهاء عائلتنا ومجدها

الإقطاعيّ خلال السنوات الأخيرة من القرن السابق قبل الحرب العظمى. استعادت ميم ذكرى والدتي تلك الليلة عندما كنت عائدة من الكنيسة، فقالت لي بطريقتها الساخرة المتهكّمة نوعاً ما: "ستتزوجين يا تشابيلا ولم تخبريني حتى بذلك". وتلك الأيام كنت أحنّ إلى والدتي، وكنت أحاول أن أستعيد ذكراها بقوة أكبر. قالت: "أنت صورة حيّة وصدّقتها تماماً. كنت أجلس مقابل المرأة الهندية التي كانت تتكلّم بلكنة تشوبها الدقة والغموض، وكأنّ هناك الكثير من أسطورة لا تصدق فيما تستعيد ذكراه، ولكنّها كانت تستعيد هذه الذكرى بإيمان راسخ وباعتقاد أنّ مرور الوقت قد غيّر الأسطورة إلى حقيقة بعيدة يصعب نسيانها. حدّثتني عن الرحلة التي قام بها والداي خلال الحرب وعن الحجيج الشاق الذي انتهى باستقرارهم في ماكوندو، فقد هرب والداي من أهوال الحرب بحثاً عن منعطف هادئ ومزدهر في الطريق ليستقرا فيه، وكانا قد سمعا بالعجل الذهبيّ وقدِما بحثاً عمّا كان وقتئذٍ بلدة قيد التكوين أنشأتها العديد من العائلات المهاجرة التي كان أفرادها حريصين على التمسّك بتقاليدهم وشعائرهم الدينيّة مثل حرصهم على تسمين خنازيرهم. كانت ماكوندو الأرض الموعودة والسلام والمأوى بالنسبة إلى والدي. فقد وجد هنا الأرض الملائمة لإعادة بناء المنزل الذي أصبح بعد عدة سنوات منزلاً ريفياً بثلاثة إسطبلات وغرفتين للضيوف. استعادت ميم هذه التفاصيل من دون شعور بالندم، وتحدثت عن أكثر الأشياء بذخاً برغبة لا تقاوم في أن تعيشها مجدداً أو انطلاقاً من المرارة

التي تولّدت من حقيقة أنها لن تستطيع أن تعيش ذلك من جديد أبداً. قالت: إنّه لم يكن ثمة معاناة أو حرمان في الرحلة، حتى الخيول كانت تنام تحت شبكة للحماية من البعوض، ليس لأنّ والدي كان مبذّراً أو مجنوناً، ولكن لأنّ أمي كانت تتمتّع بإحساس غريب ملؤه البرّ والمشاعر الإنسانية فقد اعتقدت أنّ عين اللّه سيسرّها أن ترى أنّك تحمي حيواناً من البعوض مثلما تحمي إنساناً.

كانت حمولة الخيول المتعبة والمبالغ فيها مبعثرة في كل مكان، فقد كان هنالك صناديق الأمتعة المملوءة بثياب أناس ماتوا قبل أن يولد والداي بوقت طويل تعود لأجداد لا يمكنك أن تجد رفاقهم ولا حتى على عمق ٢٠ قدماً من سطح الأرض، وصناديق مملوءة بأدوات المطبخ لم تستعمل منذ وقت طويل وتعود لأبعد أنسباء والديّ (فوالدي ووالدتي كانا أولاد عمّ من الدرجة الأولى). كان هنالك أيضاً صندوق مملوء بصور القدّيسين وهي صور استخدموها لإعادة بناء مذبح للعائلة في كلّ مكان توقفوا فيه. لقد كان موكباً احتفالياً غريباً بالخيول والدجاج والهنود والكواخيرو الأربعة (رفاق ميم) الذين ترعرعوا في المنزل وتبعوا والدي في كافة المناطق مثل حيوانات سيرك مدربة.

استعادت ميم ذكرى الأشياء بحزن. ويتولّد لدى المرء انطباعٌ أنّها عدّت مرور الوقت خسارة شخصيّة، وكأنّها أحسّت في قلبها ذاك الذي روّعته الذكريات أنه لو لم يمرّ الوقت لكانت لا تزال في غمرة الرحلة، التي لا بدّ أنها كانت حينذاك عقاباً لوالدي ولكنّها كانت نوعاً من التسلية

للأولاد بمشاهدها الغريبة مثل مشهد الخيول تحت شبكة الوقاية من البعوض.

تابعت ميم قولها: إنّ كلّ شيء بدأ يتراجع. كان وصولهم إلى قرية ماكوندو التي وُلدت حديثاً، وصول عائلة مدمّرة ما تزال تنتمي إلى ماضٍ رائع قريب وقد شتّتت الحرب شملها. تذكّرت المرأة الهندية وصول والدتي إلى البلدة جالسة على سرج جانبيّ على بغل. كانت حاملاً وبدا وجهها أخضر اللون من تأثير الملاريا، كما ضعفت قدماها بسبب الورم. ربما كانت بذور السخط تنضج في روح والدي غير أنّه كان مستعداً أن يكتم غيظه، وثبت بانتظار أن تضع والدتي مولودها الذي كان ينمو في أحشائها أثناء العبور، وكان يقرّبها تدريجياً من الموت كلّما اقترب موعد الولادة.

أبرز ضوء المصباح ملامح وجه ميم. وبدت بتعابيرها الهندية القاسية، وبشعرها الكثيف المستقيم مثل عرف حصان أو ذيله أو مثل صنم طيفيّ أخضر اللون جالس في الغرفة الصغيرة الحارّة في مؤخرة المخزن. وكانت تتكلم كما يتكلّم صنم إذا قُدّر له أن يستعيد مجده القديم على الأرض. لم أكن أبداً قريبة منها، ولكن شعرت تلك الليلة بعد تلك الحميميّة المفاجئة والعفويّة، أنني مرتبطة بها بروابط أقوى من روابط الدم.

وفجأة سمعت خلال إحدى المرات التي توقفت فيها ميم عن الحديث، سعالاً صادراً من الغرفة المجاورة، هذه الغرفة نفسها حيث أنا الآن مع أبي والصبي.

كان سعالاً جافاً قصيراً تبعه صوت تنحنح، ومن ثم سمعت صوتاً جليّاً

لإنسان يتقلّب في فراشه. توقفت ميم عن الكلام في الحال، وأظلم وجهها بسحابة كئيبة وصامتة. كنت قد نسيت أمر ذلك الرجل. كانت الساعة(تقارب العاشرة) في الوقت الذي كنت فيه هناك، وشعرت وكأنّني كنت بمفردي مع تلك المرأة الكواخيرو. ثم تغير الجوّ تماماً. وشعرت أنّ ذراعي التي كنت أمسك بها صحن الجيلي والكعك قد تعبت، ولم أتذوّق شيئاً منها فانحنيت عليها وقلت: إنه مستيقظ. بدا وجهها خالياً من أيّ تعبير، وبدت باردة الشعور ومختلفة تماماً فقالت: "سيبقى مستيقظاً حتى الفجر" أدركت فجأة الوهم الذي اعترى ميم عندما استعادت ذكرى تاريخ منزلنا. لقد تبدّلت حياتنا جميعاً فقد كنا نقضي أوقاتاً طيبة، فماكوندو كانت تعجّ بالنشاط آنذاك وكان هناك ما يكفي من المال لننفقه في ليالي السبت، غير أن ميم كانت تعيش مقيّدة إلى الماضي الذي كان أفضل. فبينما كانوا يجزّون العجل الذهبيّ في الخارج، كانت حياة ميم في الداخل في نهاية المخزن،حياة عقيمة ومجهولة تقضيها أثناء النهار خلف طاولة البيع،وفي أثناء الليل مع الرجل الذي لم يكن يغفو إلا عند الفجر ويقضي الوقت، وهو يمشي في أرجاء المنزل يذرعه جيئة وذهاباً وهو ينظر إليها بشبق بتلك العينين الكلبيّتين الشهوانيّتين اللتين يصعب عليّ أن أنساهما. أحزنني التفكير بميم وهي تعيش مع ذلك الرجل الذي ضنّ عليها بمساعدته ذات ليلة، واستمّر يحيا كحيوان متصلّب لا يشعر بمرارة أو حنان، فيقضي يومه يطوف في أرجاء المنزل من دون توقف، الأمر الذي يخرج أعقل الناس عن طوره ويفقده صوابه.

وحين عرفت أنه كان مستيقظاً في غرفته، وربّما كان يفتح عينيه الشهوانيّتين الكلبيّتين كلّ مرة تصل إلى مسامعه كلماتنا في نهاية المخزن، استعدت نبرة صوتي وحاولت أن أغيّر مجرى الحديث.

فسألتها: "كيف العمل هذه الأيام"

ابتسمت ميم وكانت ضحكتها حزينة وصامتة، وكأنّها لا تمتّ بصلة لمشاعر اللحظة التي كنا نعيشها، ومثل شيء ما احتفظت به في الخزانة، ولم تكن تخرجه إلا عندما تكون مجبرة على ذلك، فتستخدمه من دون أيّ شعور أنهّا تملكه. وكأنّ قلة ابتساماتها جعلتها تنسى كيف تبتسم بشكل طبيعيّ. قالت، وهي تحرّك رأسها بغموض: "الأمور كما ترين"، ثم عادت إلى صمتها وشرودها من جديد، فأدركت أنّ الوقت حان لأنصرف.

ناولت ميم الصحن من دون أن أشرح لها لماذا لم أتناول شيئاً من الطعام، وراقبتها وهي تنهض لتضعه على طاولة البيع. نظرت إليّ من مكانها وهي تردد: "إنّك صورة حيّة عنها." لا بدّ أنني كنت أجلس بعكس الضوء الذي كان يحيطني بهالته، وهو يتدفّق بالاتجاه المعاكس، فلم تتمكن ميم من رؤية وجهي أثناء حديثها، لذلك عندما نهضت لتضع الصحن على الطاولة رأتني بمواجهتها، والضوء يشعّ خلفي، فقالت: "إنّك صورة حيّة عنها" وعادت ثانية لتجلس أمامي.

ثم بدأت تستعيد ذكرى الأيام التي وصلت فيها أمي إلى ماكوندو.

فما لبثت أن انتقلت من فوق ظهر البغل إلى كرسيّ هزّاز، وبقيت

جالسة فيه دون حراك لثلاثة أشهر. كانت تتناول طعامها بفتور. وكانوا أحياناً يحضرون لها الطعام في أثناء فترة ما بعد الظهيرة، تمسك بالصحن في يدها، المتخشّبة، وقد امتنعت عن هزّ كرسيّها وأراحت قدميها على كرسي آخر فينتابها شعور أنّ الموت ينمو داخلها فتبقى على هذه الحال إلى أن يأتي شخص ما ويأخذ الصحن من يدها. وعندما حلّ اليوم الموعود، أخرجتها آلام المخاض من عزلتها، بدأت تقف بمفردها بالرغم من أنّه كان عليهم مساعدتها دائماً لتمشي الخطوات العشرين التي تفصل الشرفة عن غرفة النوم.. باتت ضحيّة انشغالها بفكرة الموت التي سيطرت عليها عبر أشهر تسعة من المعاناة الصامتة. كان انتقالها من الكرسيّ الهزّاز إلى السرير حافلاً بكلّ الألم والمرارة وألوان العقاب التي لم تتعرّض لها خلال الرحلة التي قامت بها منذ بضعة أشهر، ولكنّها وصلت إلى حيث أدركت أنّه كان عليها أن تصل قبل أن تحقّق آخر فصل من فصول حياتها.

قالت ميم: إنّ والدي بدا يائساً بسبب موت والدتي. إلاّ أنّه وفقاً لما قاله هو بنفسه فيما بعد عندما بات وحيداً في المنزل: "لا يثق أحد بأخلاق بيت لا تكون فيه إلى جانب الرجل زوجة شرعيّة" وبما أنه قرأ في مكان ما أنه عندما تموت المحبوبة علينا أن نقيم لها سريراً من الياسمين لنتذكّرها كلّ ليلة، فقد زرع نبات الكرمة على جدار باحة الدار، بعد سنة واحدة من وفاتها تزوج للمرة الثانية من إديلايدا زوجة أبي.

كنت أحسب أحياناً أنّ ميم ستبكي في أثناء كلامها، غير أنها بقيت

متماسكة تتوقف عن الإحساس بالسعادة بملء إرادتها. ابتسمت، ثم استرخت في كرسيّها، وبدت تماماً مخلوقة من البشر. بدا الأمر وكأنّها قد استمدّت نفحات معنوية من أحزانها عندما مالت نحو الأمام، ورأت أنّها لا تزال تملك رصيداً من الذكريات الطيبة المتبقية، ثم ابتسمت مرة ثانية بتلك الروح القديمة المفعمة بوداد مثير. وقالت لي: إنّ الأمر الآخر لم يبدأ إلا بعد خمس سنوات عندما هرعت إلى غرفة الطعام حيث كان والدي يتناول طعام الغداء، وقالت له: "كولونيل، كولونيل هناك رجل غريب يرغب في مقابلتك في مكتبك."

III

خلف الكنيسة، كانت هناك أرض جرداء لا شجر فيها، تقع في الجانب الآخر من الشارع.

كان ذلك في نهاية القرن الماضي، وكنّا حينذاك قد أتينا إلى ماكوندو ولم يكونوا بدؤوا ببناء الكنيسة بعد، وكانت تلك الأرض قطعة جافة عارية من اليابسة يلعب فيها الأولاد بعد المدرسة. وفيما بعد عندما بدأ بناء الكنيسة أقاموا أربعة أعمدة على ما فعلوه وكانوا يحتفظون بالمواد اللازمة لبناء الكنيسة في داخله.

عندما انتهى العمل في بناء الكنيسة قام أحد الناس بإكساء جدران الكوخ الصغير باللبن وفتح له باباً في الجدار الخلفي الذي يقع بمواجهة تلك الأرض الصغيرة الصخرية الجرداء التي لم يكن يوجد فيها حتى غصن من نبات الصبير. انتهى بناء الكوخ الصغير خلال عام، وكانت مساحته كافية لإيواء شخصين. أخذت تفوح رائحة الجير الحيّ من داخله، وهي الرائحة اللطيفة الوحيدة التي بقيت تفوح داخل الفناء لفترة طويلة، كانت الرائحة الوحيدة المقبولة التي أمكن للكوخ أن يعرفها طيلة تاريخه، وعندما قاموا بتبييض الجدران قام ذلك الشخص نفسه

الذي أكمل البناء بوضع قضيب حديديّ عبر الباب الداخلي ثم وضع مزلاجاً على الباب المطلّ على الشارع.

لم يكن هناك مالك للكوخ، ولم يهتمّ أحد بتثبيت حقوقه سواء في قطعة الأرض أو في مواد البناء. وعندما وصل أول كاهن للأبرشية تدبر أمر إقامته لدى إحدى العائلات الميسورة في ماكوندو. ثمّ نقله إلى أبرشية أخرى، ولكن خلال تلك الأيام (وربما قبل أن يغادر الكاهن الأوّل المنطقة) شغلت الكوخ امرأة قدمت مع طفل رضيع، ولم يعرف أحد متى أتت، ولا من أين ولا كيف تدبرّت أمرها لتفتح الباب.

كان هناك موقد فخاريّ في إحدى زوايا الكوخ وقد غطّته الطحالب السوداء والخضراء كما كان هناك جرّة عُلِّقت بمسمار إلى الجدار. ولكن لم يكن قد بقي شيء من البياض على الجدران، كما تشكّلت طبقة من التراب التي تصلّبت بفعل المطر فوق الحجارة في باحة الدار. صنعت المرأة شبكة من الأغصان لتقي نفسها من الشمس، ولأنها لم تكن قادرة على رفع سقف من سعف النخيل والصفيح والقرميد على هذه الشبكة، سارعت إلى زراعة كرمة عنب قرب الأغصان، وعلقت مجموعة من الأزهار ورغيف خبز على الباب المطل على الشارع لتحمي نفسها من الأرواح الشرّيرة.

كانت المرأة لا تزال تعيش في الكوخ مع طفلها عندما أُعلن قدوم الكاهن عام ١٩٠٣. خرج نصف سكان ماكوندو إلى الطريق العام في انتظار وصول الكاهن. كانت الفرقة القرويّة تعزف ألحاناً عاطفية

عندما وصل الصبي راكضاً يلهث تكاد أنفاسه تتقطع ليخبرهم أنّ البغل الذي يركب عليه الكاهن قد وصل إلى المنعطف الأخير من الشارع. ثم غيّر الموسيقيون أماكنهم وبدؤوا بعزف أحد المارشات. صعد الشخص الذي أوكلوا إليه كلمة الترحيب إلى منصّة أُعدّت كيفما اتفق، وانتظر ظهور الكاهن ليبدأ ترحيبه. لكن توقفت الموسيقا العسكريّة بعد لحظة، ونزل الخطيب من فوق منبره، وأخذ الحشد الغفير يراقب بدهشة رجلاً غريباً يمتطي بغلاً قد حمل على ظهره أكبر صندوق أمتعة وقع نظرهم عليه في ماكوندو. تابع الرجل طريقه إلى البلدة دون أن ينظر إلى أحد.

وحتى لو افترضنا أنّ الكاهن قد ارتدى ثياباً مدنية للرحلة فإنّه لن يخطر ببال أحد أن المسافر ذا البشرة البرونزية والجزمة العسكرية ليس إلا كاهناً يلبس ثياباً مدنية.

وفي الحقيقة، لم يكن الرجل كاهناً، لأنه في اللحظة نفسها وعلى امتداد الطريق المختصر، في الجانب الآخر من البلدة كان الناس يرون كاهناً غريباً يتقدّم نحوهم على بغل بخطوات عريضة. كان هزيلاً للغاية ذا وجه مشدود جاف الملامح، وقد رفع ثوبه الكهنوتيّ حتى ركبتيه وحمى نفسه من أشعة الشمس بمظلّة باهتة اللون ومهترئة. استفسر الكاهن عن مكان بيت الأبرشيّة في المنطقة المحاذية للكنيسة، ولا بدّ أنه توجّه بسؤاله إلى شخص لم تكن لديه أدنى فكرة عن الموضوع لأن الجواب الذي حصل عليه هو: "إنه الكوخ الذي يقع وراء الكنيسة يا

أبتاه" كانت المرأة قد خرجت من الكوخ وبقي الطفل يلعب في الداخل. وخلف الباب الموارب، ترجّل الكاهن عن بغله، ودحرج حقيبة منتفخة نحو الكوخ. لم تكن الحقيبة مقفلة، ولكنّها كانت مربوطة بحزام جلدي يبدو مختلفاً عن الجلد الذي صُنعت منه الحقيبة. وبعد أن عاين الكوخ قاد البغل، وربطه في الباحة في ظل أوراق الكرمة، ثم فتح الحقيبة وأخرج منها أرجوحة النوم، التي لا بد وأنهّا على الدرجة نفسها من القدم، وقد أصابها من الاستعمال ما أصاب المظلة، وعلّقها أفقياً عبر الكوخ من عمود إلى آخر، ثم خلع حذاءه وحاول النوم غير عابىء بالطفل الذي كان ينظر إليه بعينين واسعتين مذعورتين.

لا شكّ أنّ المرأة حين عادت ساورتها الحيرة من هذا الحضور الغريب للكاهن الذي كان وجهه خالياً من أي تعبير ولا يختلف مطلقاً عن جمجمة بقرة. لا بدّ وأنّ المرأة قد مشت على أطراف أصابعها عبر الغرفة، وسحبت سريرها النقّال، وضعت صرّة من ثيابها ومن خرق الطفل، وغادرت الكوخ دون أن تكترث بالموقد الحجريّ والجرّة. لأنّه وبعد ساعة حين عاد الوفد تتقدمه الفرقة إلى البلدة في الاتجاه المعاكس وسط حشد من الصبية الذين هربوا من المدرسة، وجدوا الكاهن وحده في الكوخ ممدّداً في أرجوحته على هواه، وقد خلع حذاءه وتفككّت أزرار ثوبه الكهنوتي. لا بد وأنّ أحداً ما قد نقل الخبر إلى الناس في الشارع الرئيسيّ، ولكن لم يخطر على بال أحد أن يستفسر ماذا كان يفعل الكاهن في الكوخ. لا بدّ وأنّهم حسبوا أنّه كان يمّت بصلة قربى للمرأة،

تماماً مثلما أنهّا اضطرت لمغادرة الكوخ لاعتقادها أن الكاهن لديه أوامر كي ينزل في الكوخ أو أن هذا الكوخ كان من أملاك الكنيسة أو أنها غادرته خوفاً من أن يسأل أحد لماذا عاشت لأكثر من سنتين في كوخ ليس ملكاً لها دون أن تدفع إيجاراً أو تطلب إذناً من أحد قبل أن تسكن فيه. لم يخطر على بال أحد من أعضاء الوفد أن يسأل عن أي تفسير مهما كان نوعه سواء في تلك اللحظة أو فيما بعد لأنّ الكاهن لم يقبل أن يدلي بحديث من أيّ نوع. فقد ترك الهدايا على الأرض، واكتفى بتحيّة الرجال والنساء وببرود واقتضاب، لأنه وحسب ما قال لم يغمض له جفن طيلة الليل.

فكان أن تفرّق الوفد بعد هذا الاستقبال البارد الذي قام به أغرب كاهن وقعت عليه عينه. لاحظ جميعهم كيف بدا وجهه مثل جمجمة بقرة، بشعره الرماديّ الذي قصّره للغاية. لم تكن لديه شفتان بل مجرد فتحة أفقيّة بدا أنهّا لم تكن موجودة عند الولادة، ولكن صنعت فيما بعد بسكين خاصة وعلى عجل. تبيّنوا عصر ذلك اليوم أنّه كان يشبه أحد الأشخاص، وقبيل الفجر عرفوا جميعاً من هو هذا الشبيه. تذكّروا أنهّم قد سبق لهم رؤيته وبيده مقلاع وحجر، عارياً ينتعل حذاء ويعتمر قبعة، خلال الوقت الذي كانت فيه ماكوندو قرية فقيرة يلوذ بها الناس، تذكّر شيوخ البلدة نشاطاته أثناء الحرب الأهلية عام ١٨٨٥ وتذكّروا أنّه في السابعة عشرة من عمره كان كولونيلاً في الجيش، وتذكّروا عناده وبسالته وموقفه المعارض للحكومة. ولكن لم يعد أحد يسمع عنه شيئاً

في ماكوندو حتى ذلك اليوم الذي عاد فيه إلى موطنه ليتولّى مسؤولية الأبرشية. تذكر عدد قليل من الناس الاسم الذي عُمّد فيه وتذكر الشيوخ من جهة أخرى الاسم الآخر الذي أطلقته عليه أمّه (لأنه كان عنيداً ومتمرّداً) وكان هو الاسم نفسه الذي عرف به فيما بعد بين رفاقه في السلاح. فقد أطلقوا عليه اسم (البب) وهو الاسم نفسه الذي كان يُطلق عليه في ماكوندو حتى ساعة موته: " بب، بوبي".

إذن فقد جاء هذا الرجل إلى منزلنا في اليوم نفسه، وتقريباً في الساعة نفسها التي وصل فيها بب إلى ماكوندو. فقد وصل الأول على الطريق الرئيسي بصورة غير متوقعة ومن دون أن يكون لأحد أدنى فكرة عن اسمه أو مهنته، بينما وصل الكاهن عبر الطريق المختصر وكانت البلدة بأسرها تترقبّ وصوله على الطريق الرئيسي.

عدت إلى المنزل بعد حفل الاستقبال، وكنّا قد جلسنا توّاً إلى المائدة – وقد تأخرّنا قليلاً عن الوقت المعتاد – عندما جاءتني ميم لتقول لي: "كولونيل، كولونيل، هناك رجل غريب يودّ رؤيتك في المكتب." فقلت لها: "دعيه يتفضل"، فأجابت ميم: "إنّه في المكتب ويقول إنّ عليه أن يراك في الحال." توقفت إديلايدا عن إطعام ايزابيل الحساء (إذ لم تكن قد بلغت الخامسة في ذلك الوقت) وذهبت لتهتمّ بالقادم الجديد. لكنها عادت بعد لحظة والقلق بادٍ على وجهها، وقالت: "إنه يذرع المكتب جيئة وذهاباً."

رأيتها تمشي خلف الشمعدانات، ثم عادت لإطعام ايزابيل حساءها ثانية، فقلت وأنا لا أزال أمضغ طعامي: "كان عليك أن تدعيه يدخل."

وردّت قائلة: "هذا ما كنت سأفعله، ولكنّه كان يذرع المكتب ذهاباً وإياباً عندما دخلت وألقيت عليه التحيّة التي لم يردّها لأنه كان ينظر إلى دمية الفتاة الراقصة المصنوعة من الجلد والموضوعة على الرفّ. وعندما كنت على وشك إلقاء التحية ثانية ملأ نابض دمية الفتاة الراقصة، ووضعها على الطاولة وبدأ يراقبها وهي ترقص. ولا أعرف إن كانت الموسيقا هي السبب الذي منعه من سماعي عندما قلت: مساء الخير مرّة ثانية، غير أنّني كنت واقفة هناك مقابل الطاولة حيث كان ينحني، وهو يراقب الفتاة الراقصة التي كانت لا تزال تدور إلى حدٍ ما. كانت إديلايدا تطعم ايزابيل حساءها فقلت لها: "لا بد أن اهتمامه بالألعاب كبير" فردّت وهي ما تزال تطعم ايزابيل: "لقد كان يذرع المكتب ذهاباً وإيابا، ولكن عندما رأى الفتاة الراقصة أنزلها من مكانها وكأنه أدرك مسبقاً غرض وجودها وآلية عملها. فقد كان يملؤها عندما ألقيت عليه التحية للمرّة الأولى قبل أن تبدأ الموسيقا عزفها. ثم وضعها على الطاولة، ووقف يتفرّج عليها، لكن دون أن يبتسم، وكأنّه لم يكن مهتّماً بالرقصة بل بآلية عملها."

لم يكونوا يعلموني بقدوم أيّ من الزوار، لأنهمّ كانوا يجيئون إلينا كلّ يوم ومنهم المسافرون الذين كنّا على معرفة بهم، والذين كانوا يتركون حيواناتهم في الإسطبل يؤمون البيت بثقة كاملة وبإلفة من يتوقّع أن يجد لنفسه مكاناً فارغاً على مائدتنا. قلت لإديلايدا: "لا بدّ وأنّه يحمل رسالة أو شيئاً ما"، فأجابت: "على أية حال من الأحوال إنّه يتصرف

بغرابة، فقد بقي يراقب الفتاة الراقصة حتى توقفت في أثناء ذلك كنت واقفة في الجهة المقابلة من الطاولة دون أن أدري ماذا عليّ قوله لأنني كنت أعرف أنه لن يجيبني طالما أن الموسيقا تصدح. ثم عندما صدر عن الفتاة الراقصة تلك القفزة الصغيرة التي تقوم بها عندما تفرغ، كان لا يزال واقفاً مستغرقاً في النظر إليها بفضول وهو منحنٍ على الطاولة دون أن يحاول الجلوس. ثم نظر إليّ وأدركتُ حينها أنّه قد عرف بوجودي طيلة الوقت في المكتب، ولكنّه لم يكترث بي لأنّه أراد أن يعرف كم من الوقت تدوم رقصة الفتاة.لم ألق عليه تحية المساء من جديد، ولكنني ابتسمت عندما نظر نحوي لأنّني لمحت بؤبؤين أصفرين في عينيه الضخمتين واللتين كانتا تنظران إلى كل جزء من جسد الإنسان في آنٍ واحد. بقي على مظهره الرصين عندما ابتسمت له غير أنه أومأ برأسه بحركة متكلّفة، وقال: "إنّه الكولونيل من عليّ أن أراه". كان صوته عميقاً، وكأنه قادر على الكلام وفمه مغلق، وكأنّه كان مخلوقاً يتكلم من بطنه.

كانت تطعم ايزابيل حساءها وقالت: "كان يذرع المكتب ذهاباً وإياباً باديء الأمر"، وعندها أدركت أن الغريب قد ترك انطباعاً غير عادي في نفسها، وأنهّا كانت تظهر اهتماماً خاصاً حول عنايتي به، ولكنني تابعت طعامي بينما كانت تطعم ايزابيل حساءها وتتكلم: "ثم عندما طلب رؤية الكولونيل قلت له: من فضلك تعال إلى غرفة الطعام، فانتصب بقامته حيث كان واقفاً وبيده الفتاة الراقصة. ثم رفع رأسه وبدا متصلباً

وحازماً كجنديّ، واعتقدت هذا لأنه كان ينتعل جزمة ويرتدي بزة قماش عاديّ، وقد زرّر قميصه حتى العنق. لم أدر ماذا عليّ أن أقول عندما لم يجبني، وبقي هادئاً واللعبة في يده، وكأنّه كان ينتظرني أن أغادر المكتبة حتى يقوم بملئها من جديد. وفي تلك اللحظة "ذكرني هذا الرجل بشخص ما وأدركت أنّه رجل عسكري".

فقلت لها: "إذاً أنت تعتقدين أن الأمر خطير". نظرت نحوها من فوق الشمعدانات لكنها لم تكن تنظر إليّ بل كانت تطعم ايزابيل حساءها، قالت:

"عندما دخلت الغرفة كان يذرع المكتب ذهاباً وإياباً لذلك لم أستطع رؤية وجهه. لكن عندما وقف في الخلف وكان رأسه مرفوعاً وبصره مركزاً أدركت حينها أنّه رجل عسكري فقلت له (لابد أنك تريد أن ترى الكولونيل على انفراد، أليس كذلك؟) فأومأ برأسه موافقاً. ثم أتيت لأخبرك أنه يشبه شخصاً ما وأنّه ذلك الشخص بعينه مع أنني لا أستطيع تفسير كيف وصل إلى هنا."

تابعت طعامي ولكنّي كنت أسترق النظر إليها من بين الشمعدانات، توقفت عن إطعام ايزابيل حساءها، وقالت:

"إننّي متأكدة من أنه لا يحمل رسالة وأنه لا يشبه شخصاً ما بل إنه ذلك الشخص ذاته وبالأحرى إنني متأكدة من أنّه رجل عسكري، كما أنّ له شارباً أسود مدبّباً ووجهاً ذا بشرة نحاسية. لقد كان يرتدي حذاء ذا ساق عالية، وأنا متأكدة أنه لا يشبه شخصاً ما بل إنه هو الشخص بعينه."

كانت تتحدث بنبرة واحدة راتبة ومتواصلة. كان الطقس حارّاً وربما لهذا السبب بدأتُ أشعر بالضيق فقلت لها: "إذاً من يشبه؟" فأجابني: "عندما كان يذرع المكتب ذهاباً وغياباً لم استطع رؤية وجهه لكن فيما بعد." فقاطعتها. إذ شعرت بالضيق بسبب رتابة وإلحاح كلماتها: "حسن، حسن، سأذهب لرؤيته حالما أنتهي من طعامي". قالت وقد عاودت إطعام ايزابيل حساءها: "في بادىء الأمر لم أستطع أن أتبيّن وجهه لأنّه كان يذرع المكتب ذهاباً وإياباً، ولكن "عندما دعوته للدخول وقف صامتاً بجانب الجدار وبيده دمية الفتاة الراقصة، وعندها تذكّرت من كان يشبه وأتيت لأخبرك. كان له عينان واسعتان وقحتان، وعندما استدرت لأغادر المكان شعرت أنّه كان ينظر إلى ساقيّ تماماً".

وفجأة صمتت، وبقي الرنين المعدنيّ للملعقة يرسل ذبذباته داخل غرفة الطعام. أنهيت طعامي وطويت فوطة المائدة تحت صحني.

وسمعت في تلك اللحظة الموسيقا البهيجة التي كانت اللعبة المملوءة ترسلها من المكتب.

IV

كـان هنـاك كـرسـيٌّ قـديم مـن الخشـب المحفـور لـيس لـه أيـة عـوارض خشبية في مطبخ المنزل وكـان جدي يجفّف حذاءه على مقعده المكسور قرب الموقد.

يوم أمس، في مثل هذا الوقت، تركنا المدرسة أنا وإبراهام وتوبياس وجيلبيرتو وذهبنا إلى المزرعة، ومعنا مقلاع، وقبعة كبيرة لنصيد بها الطيور وسكين جديدة. وفي الطريق أخذت أتذكّر الكرسي الذي لا نفع منه والذي كان موجوداً في ركن من أركان المطبخ، وكان الزوار يجلسون عليه في وقت مضى، ولم يعد يستعمله أحد الآن سوى الرجل الميت الذي اعتاد الجلوس فيه كل ليلة معتمراً قبعته ليتأمل الرماد في الموقد البارد.

كان توبياس وجيلبيرتو يتوجّهان نحو نهاية صحن الكنيسة المظلم. ولأنّها أمطرت خلال الصباح فقد كانت أحذيتهم تنزلق على العشب الموحل. كان واحدٌ منهم يصفر، ودوّى صفيره القويّ الصلب في الكهف النباتيّ كما يحدث عندما يبدأ أحدهم بالغناء داخل برميل. كنت أنا وإبراهام في مؤخرة الصف. كان إبراهام يمسك المقلاع والحجر بينما

كنت أحمل بيدي سكيناً مُشرّعة.

وفجأة اخترقت أشعة الشمس، سقف الأوراق المتماسك الصلب، وسقط جسمٌ من الضياء يرفرف فوق العشب مثل طائر حيّ. سأل إبراهام: "هل رأيت هذا؟" نظرت نحو الأمام ورأيت توبياس وجيلبيرتو في مؤخرة صحن الكنيسة، وقلت لهما: "إن هذا ليس طيراً، إنّها الشمس وقد أشرقت بقوة الآن."

سارعوا إلى خلع ملابسهم عندما وصلوا إلى ضفة النهر، وحرّكوا ماء الغسق حركات قوية لم يبد أنهّا بللت بشرتهم. قال إبراهام: "لم نر طيراً واحداً طيلة فترة بعد الظهيرة." وقلت أنا: "ما من طيور بعد هطول المطر." وكنت أصدّق ما تفوّهت به حينذاك. وبدأ إبراهام بالضحك. كانت ضحكته حمقاء ساذجة أصدرت صوتاً مثل صوت خيط من الماء يتسرّب من سدادة برميل. خلع ثيابه وقال: "سآخذ السكين إلى الماء، وأملأ القبعة بالسمك."

كان إبراهام عارياً أمامي، وقد فتح يده ليأخذ السكين.لم أجبه في الحال فقد أمسكت بالسكين بقوة، وأحسست بفولاذها النظيف المطروق في يدي. قلت في نفسي: إنني لن أعطيه السكين، وأجبته قائلاً: "لن أعطيك السكين فقد حصلت عليها البارحة فقط وسأحتفظ بها طيلة بعد الظهيرة." ولكنّ إبراهام أبقى يده ممدودة، ثم قلت له: "آسف."

فهمني إبراهام، فقد كان الشخص الوحيد القادر على فهم كلماتي. قال: "حسنٌ" وتوجّه نحو الماء عبر الهواء المتكثّف الذي تفوح منه رائحة

حمضيّة. "ابدأ بخلع ملابسك سننتظرك عند الصخرة." قال هذا وهو يغطس في الماء وعاد ليظهر لامعاً مثل سمكة فضيّة كبيرة، وكأن الماء قد تحوّل إلى سائل حالما لامسه.

بقيت على ضفة النهر مستلقياً على الطين الدافىء. وعندما فتحت السكين مرة أخرى توقفت عن النظر إلى إبراهام، ورفعت عينيّ باتجاه مستقيم عالياً إلى الناحية الأخرى باتجاه الأشجار نحو الغسق الصاخب حيث كان للسماء لون مخيف وحشيّ مثل لون غسيل يحترق.

قال إبراهام من الجهة الأخرى: "أسرع". كان توبياس يصفر فوق حافة الصخرة وعندها قلت لنفسي: "لن أسبح اليوم لكن ربما غداً"

اختبأ إبراهام خلف أشجار الزعرور البريّ في طريق العودة، وكنت على وشك أن أتبعه ولكنّه قال لي: "لا تقترب من هنا، فأنا أريد أن أفعل شيئاً، بقيت خارج الأجمة جالساً على الأوراق اليابسة على الطريق، وأنا أراقب سنونواً وحيداً يتعقّب قوساً في السماء. فقلت:

"ليس ثمة إلا سنونوٌ واحد هذا العصر."

لم يجب إبراهام مباشرة. بقي صامتاً خلف شجيرات الزعرور البريّ، وكأنّه لم يسمعني، وكأنهّ كان يقرأ شيئاً ما. كان صمته عميقاً ومركزاً تملؤه قوة خفية. وتنهّد بعد صمت طويل

وقال: "عصافير سنونو".

فأخبرته ثانية: "ليس ثمة سوى سنونو واحد عصر هذا اليوم".

كان إبراهام ما يزال خلف شجيرات الزعرور البريّ، ولكنّي لم أستطع معرفة ماذا كان يفعل هناك، فقد كان صامتاً ومنطوياً على نفسه، لكنّ صمته لم يكن ساكناً فحسب، كان صمتاً يائساً وعنيفاً. قال بعد لحظة:

"سنونو واحد فقط، نعم، نعم! إنّك على حق."

لم أردّ عليه حينذاك فقد كان يتحّرك خلف الزعرور البريّ، وكنت أستطيع أن أسمع من مكاني على الأوراق صوت الأوراق اليابسة الأخرى التي كانت تتكسّر تحت قدميه حيث كان واقفاً. ساد السكون من جديد وكأنّه ذهب بعيداً، ثم أخذ نفساً عميقاً، وسألني: "ماذا قلت؟"

فقلت له ثانية: "لا يوجد سوى سنونو واحد عصر هذا اليوم".

قلت هذا بينما كنت أتابع بنظري الجانح المقوّس ماضياً في إثر الدوائر في سماءٍ بالغة الزرقة.

قلت: "إنّه يحلّق عالياً."

أجابني إبراهام في الحال: "نعم بالطبع. فهذا هو السبب إذاً".

ظهر من خلف أشجار الزعرور، وهو يزرّر سراويله. نظر عالياً حيث كان السنونو يتبع أثر الداوائر، وقال من دون أن ينظر إليّ:

"ماذا كنت تقول لي بشأن عصافير السنونو منذ برهة خلت؟"

هذا كان سبب تأخيرنا، فعندما وصلنا كانت الأنوار مضاءة في البلدة. اندفعت داخل المنزل وخرجت إلى الشرفة لأصادف النسوة البدينات

الفاقدات البصر مع توأمي القدّيس جيروم الذين اعتادوا القدوم كل ثلاثاء لينشدوا لجدّي حتى قبل مولدي بحسب ما روت لي أمي.

أمضيت الليل بطوله أفكر بأننا سوف نهرب من المدرسة من جديد لنقصد النهر ولكن ليس بصحبة جيلبرتو وتوبياس. أريد أن أذهب لوحدي بصحبة إبراهام لأرى بريق بطنه عندما يغوص، ويظهر من جديد مثل سمكة فضيّة لامعة. رغبت كل الليل أن أعود معه لوحدنا في ظلمة النفق الأخضر لألامس فخذه برفق بينما نعبر النفق.

وفي كل مرة كنت أقوم بذلك كنت أشعر كما لو أنّ شيئاً يعضّني عضّات ناعمة ويجعل بدني يرتعب.

إذا كان الرجل، الذي قدم ليتكلّم مع جدي في الغرفة الأخرى، سيعود بعد برهة فربما استطعنا أن نعود إلى البيت قبل الساعة الرابعة، وعندها سأذهب مع إبراهام إلى النهر.

أتى ليعيش في بيتنا وشغل إحدى الغرف البعيدة عن الشرفة، تلك الغرفة التي تُطلّ على الشارع، لأنّني اعتقدت أنها ستكون مناسبة له فقد أيقنت أنّ رجلاً مثله لن يرتاح في فندق البلدة الصغير. وضع إشارة على الباب (فقد بقيت مكانها لعدّة سنوات مضت عندما قاموا بتبييض المنزل، فقد كانت مكتوبة بقلم رصاص وبخط يده)، وكان علينا أن نحضر له كراسي جديدة في الأسبوع التالي لتلبّي متطلبات مرضاه العديدين.

بعد أن سلّمني الرسالة التي بعثها إليّ الكولونيل أورليانو بيونديا، واستمّر حديثنا في المكتب مدة طويلة حتى لم يساور إديلايدا أدنى شك

أنّ المسألة تتعلق بمبعوث عسكري عالي المقام جاء في مهمّة على جانب خطير من الأهميّة، فقامت بإعداد المائدة وكأننّا في يوم عطلة. وتكلمنا عن الكولونيل بيونا وابنته المراهقة وابنه البكر المتوحش.لم يكن قد مضى على الحديث وقت طويل عندما استنتجت أنّ الرجل على معرفة وثيقة بالجنرال المقيم وأنّ الجنرال يكنّ له ما يكفي من الاحترام كي يمنحه ثقته. وعندما دخلت ميم لتخبرنا أنّ العشاء جاهز، اعتقدت أنّ زوجتي قد قامت ببعض الترتيبات للاهتمام بالقادم الجديد. لكنّ الأمر كان أكبر من ذلك بكثير، فقد أعدّت مائدة رائعة على مفرش المائدة الجديد الذي وضعت عليه أواني الخزف الصينيّ الذي كان استعمالها مخصّصاً كمآدب العشاء العائلية أيام أعياد الميلاد ورأس السنة.

كانت إديلايدا تجلس بمهابة واستقامة عند أحد طرفي المائدة، وقد ارتدت ثوباً مخملياً مزرّراً حتى العنق، ذلك الثوب الذي ارتدته قبل زواجنا عندما قصدنا المدينة لتسوية بعض الأمور العائليّة. كانت إيديلايدا تتمتع بعادات راقية أكثر منا وكان لديها خبرة اجتماعية بدأت بالتأثير على طريقة حياتنا المنزلية منذ زواجنا. تزينت إديلايدا بشارة العائلة، تلك الشارة التي لم تكن تضعها إلاّ في مناسبات استثنائية هامة.

كان كل شيء فيها متقناً مثل المائدة والأثاث والهواء الذي كنا نتنفسه في غرفة الطعام يخلق شعوراً صارماً بالرصانة والنظافة. وعندما وصلنا إلى غرفة الاستقبال لا بدّ أنّ الرجل الذي كان دائماً مهملاً في أناقته وتصرفاته شعر بالخجل وبأنّه لا ينتمي إلى هذا المكان لأنه أخذ

يتلمّس الزرّ العلويّ على قميصه وكأنّه ربطة عنق. كان من الممكن ملاحظة شيء من العصبية الخفيفة في مشيته القوية اللا مبالية. ولا يمكنني أن أتذكر شيئاً بهذه الدقة كتلك اللحظة التي دخلنا فيها غرفة الطعام وشعرت كأنّني أرتدي زيّاً بيتياً جداً بالنسبة لمائدة كتلك المائدة التي أعدتّها إديلايدا.

كانت الأطباق تحتوي على لحم بقر وطرائد مقنوصة. وكان كلّ شيء لا يحتلف عن وجباتنا المعتادة في ذلك الوقت ما عدا تقديم الوجبة في صحون الخزف الصيني الجديدة بين الشمعدانات التي تمّ تلميعها حديثاً وهذا ما كان رائعاً ومختلفاً عن المعتاد.

بالرغم من أنّ زوجتي علمت أننّا نستضيف زائراً واحداً فقط فقد أعُدّت ثمانية أمكنة ولم تكن زجاجة الخمر في المنتصف إلا مبالغة صارخة تعبّر عن الجهد الذي بذلته في الاستعداد لاستضافة الرجل الذي اشتبهتْ منذ اللحظة الأولى بأنّه ضابط عسكريّ مرموق. لم يسبق لي أبداً أن رأيت في منزلي مثل هذا الجو المثقل بهذا القدر من الخيال.

كانت ثياب إديلايدا ستبدو مضحكة لولا الأثر الذي تركته يداها (فقد كانتا جميلتين، حقيقيتين ناصعتي البياض) تنسجمان مع مظهرها الذي يتسّم بالأبّهة وبالزيف والتظاهر. لم يتسنّ لي أن أستأنف كلامي إلاّ عندما أخذ يتفحّص الزرّ على قميصه ولاح التردد عليه فقلت: "زوجتي الثانية أيها الطبيب" وعندها علت وجه إديلايدا مسحة سوداء جعلته يبدو غريباً وكئيباً.

لكنها لم تتزحزح قيد أنملة عن جلستها وكانت تبتسم، ويداها ممدودتان وقد فارقتهما الآن تلك الروح الاحتفالية الصارمة التي كانت تلازمها حين دخلنا غرفة الطعام.

قرقع القادم الجديد الأرض بكعبي حذائه مثل رجل عسكريّ، ولمس جبينه بأطراف أصابعه الممدودة، ثم توجّه إلى حيث كانت إديلايدا تجلس وقال: "نعم يا سيّدي" غير أنه لم يلفظ أيّ اسم.

ولم أتبيّن أن أخلاقه سوقيّة ومبتذلة إلاّ عندما رأيته يصافح إديلايدا بطريقة خرقاء.

جلس عند الطرف الآخر من المائدة بين أواني الكريستال الجديدة والشمعدانات، وبدا حضوره المشوّش بارزاً جداً مثل بقعة حساء على مفرش المائدة.

صبّت إديلايدا النبيذ، وقد ظهر منذ بداية الأمر أنّ أحاسيسها قد تغيّرت لتتحول إلى عصبيّة لا مبالية وكأنها تقول: "حسنٌ" سوف تسير الأمور كما قدّر لها ولكنّكم تدينون لي بتفسير عمّا يحدث.

وعندما انتهت من تقديم النبيد، وجلست عند النهاية الأخرى من المائدة بينما كانت ميم تستعدّ لتقدّم الأطباق، أراح ظهره في كرسيّه، وأراح يديه على مفرش المائدة وقال بابتسامة:

"اسمعي يا آنسة لا تغلي إلاّ القليل من العشب وأحضريه لي وكأنه حساء."

جمدت ميم في مكانها، وحاولت أن تضحك، لكنّها لم تتمكّن،

وعوضاً عن ذلك استدارت باتجاه إديلايدا ، وعندها سألته مبتسمة هي الأخرى، وكانت مرتبكة على نحو واضح:

"أيّ نوع من العشب أيّها الطبيب؟" فأجاب بصوته الشحيح المجترّ:

"العشب العاديّ، يا سيّدتي، ذلك النوع من العشب الذي تأكله الحمير."

V

هناك لحظة في أثناء وقت القيلولة تنعدم فيها الحياة. ويتوقف خلالها حتى أدقّ نشاط سرّي خفيّ للحشرات. وتنتهي دورة الطبيعة إلى سكون، ويتعثر الخلق على حافة الفوضى وتستيقظ النسوة، وقد سال لعابهنّ، وطُبعت ورود المخدّات المطرّزة على خدودهنّ، تخنق أنفاسهنّ الحرارة والحنق، ويقلن في أنفسهنّ: "لا يزال اليوم الأربعاء في ماكوندو." ثم يعاودن التكدس في الزاوية، وهنّ يصلن الحلم بالحقيقة، فيتوصلن إلى اتفاق وينسجن الهمسة وكأنّها سطح هائل منبسط خِيط بمشاركة جميع النسوة في البلدة.

ولو كان للوقت في الداخل نفس إيقاع الوقت في الخارج، لكنّا الآن تحت نور الشمس الوهاج في منتصف الشارع مع التابوت. لكن الوقت في الخارج كان متأخراً أكثر، إنه الليل. كان من المحتمل أن تكون هذه الليلة ليلة أيلولية ثقيلة مقمرة تقضيها النسوة في الباحات، وهنّ جالسات يتسامرن تحت النور الأخضر، ولكنّا نحن الخائنين المرتدين سنكون في الشارع في لهيب شمس هذا الشهر الأيلوليّ العطشان. لن يتدخّل أحد في مراسيم الدفن. لقد توقعت أن يكون العمدة حازماً في عزمه على معارضة

الـدفن، وعندئـذٍ سـيكون بإمكاننـا العـودة إلى بيتنـا، والصـبيّ إلى مدرسته، وأبـي إلى قبقابـه وإلى حـوض اسـتحمامه الـذي يقطـر مـاء بـارداً تحـت رأسـه وإلى جرّتـه الفخاريّـة إلى يسـاره الـتي امـتلأت بعصـير الليمـون المثلج. كان والـدي مُقنعـاً إلى حـدٍ بعيـد في أن يعـرض وجهـة نظـره علـى مـا خِلتَه في البداية عزم العمدة الذي لا رجعة عنه.

في الخارج كانت البلدة متهيّجة، وقد عُهد بها إلى ذلك الهمس الطويل المنظّم العديم الرحمة وكان الشارع نظيفاً لا أثر لظلّ على التراب النظيف الذي لم يطأه أحد منذ أن كنست آخر هبّة من هبّات الريح آثار مرور آخر ثور. إنّها بلدة خاوية لا أحد فيها، ذات منازل مغلقة لا يُسمع شيء في غرف بيوتهـا عـدا لغـط مـبهم مـن الكلمـات الـتي تنطـق بهـا قلـوب شـرّيرة. وفي الغرفـة كـان الصـبيّ الجـالس ينظـر متيبّسـاً إلى حذائـه، ثـم ينتقـل بصـره ببطء إلى المصباح، ثم إلى الجرائد ومرة أخـرى إلى حذائـه، ثـم بسـرعة إلى الرجل المشنوق ليراقب لسانه المعضوض، وعينيـه الكلبيّـتين الزجـاجيّتين، وقد فارقتهما الآن نظرة الشـبق، إنـه كلـب مـن دون شـهيّة، وميـت. وينظـر الطفل إليه ثم يفكـّر بالرجل المشنوق الذي يتمدّد الآن تحت الألواح، فيلوح على وجهه تعبير حـزين وعنـدها يتبـدّل كـلّ شـيء ويظهـر للعيـان عنـد بـاب الحـلاق كرسـي لا مسـند لـه وفي الـداخل مـذبح صـغير فيـه المـرآة وأمامـه مسـحوق ومـاء معطّـر. وتبـدو اليـد منمّشـة وكـبيرة، وكـأنهـا لـم تعـد يـد ولـدي، فقـد تحـوّلـت إلى يـد ضـخمة مـاهرة بـدأت تشـحذ موسـى الحلاقـة ببرود وحساب دقيق في حين يتناهى إلى السمع الطنين المعدنيّ للشفرة الـتي

تشحن، وعندها يتردّد في الذهن: سيصلون اليوم قبل الوقت المحدّد لأنه الأربعاء في ماكوندو. وعندها يصلون ويجلسون على الكراسي في ظلّ عتبة الدار وبرودتها وهم عابسون ينظرون شزراً، وقد لفّوا أرجلهم، وعقدوا أيديهم فوق ركبهم وهم يعضّون رؤوس لفافات التبغ. كانوا ينظرون، ويتحدثون عن الشيء نفسه، وهم يراقبون النافذة المغلقة المقابلة لهم والمنزل الصامت الذي تقبع داخله السنيورة ربيكا. لقد نَسِيتْ شيئاً أيضاً، نسيت أن تفصل المروحة عن التيار، وراحت تجوب أرجاء المنزل ذي النوافذ المظلّلة، وتتفحص، وهي عصبيّة وقلقة، الحلي التافهة لحياة ترمّلها العقيمة المعذّبة حتى تقتنع بالحسّ الملموس أنّها لن تموت قبل أن تحين ساعة الدفن. راحت تفتح أبواب غرفها وتغلقها منتظرة أن تستيقظ الساعة البطرياركية من قيلولتها لتلبّي حواسها حين تدقّ الثالثة.

يحدث كل هذا بينما يتلاشى التعبير عن الصبيّ فيعود ليكون صلباً متيبّساً من دون أن يتأخّر ولا حتى نصف الوقت الذي تحتاجه امرأة لتقوم بآخر غرزة في الماكينة، وترفع رأسها المملوء ببكرات تشبيك الشعر. وقبل أن يغرق الصبيّ في تأملاته، ويستقيم بقامته تدفع المرأة بماكينة الخياطة إلى ركن الشرفة، ويعضّ الرجال أطراف لفافات تبغهم مرّتين بينما هم يراقبون دورة كاملة للشفرة على مشحذ الجلد، في حين تقوم إغويدا المقعدة بمحاولتها الأخيرة لإحياء ركبتيها الميتتين. وعندما تدير السنيورة ربيكا القفل مرة ثانية قائلة لنفسها: إنه الأربعاء في ماكوندو. إنّه يوم جيّد لدفن الشيطان. يتحرّك الصبيّ من جديد ويبدو أنّ هناك تبدلاً

آخر في الوقت. فعندما يتحرّك شيء ما يمكنك أن تعرف أنّ الزمن قد مرّ وليس قبل أن يتحرّك. فالوقت سرمديّ إلى أن يتحرّك شيء، مثل تصبّب العرق من القميص المبلول على جثّة الرجل الباردة، الذي لا يمكن رشوته وهو عاضٌّ على لسانه. لهذا السبب لا يمرّ الوقت بالنسبة إلى الرجل المشنوق، لأنه حتى، وإن تحرّكت يد الصبيّ، فهو لا يعرف بذلك، وبينما هو لا يعرف الميت (لأنّ الصبيّ ما يزال يحرّك يده) لا بدّ أن تكون أغويدا قد سحبت حبّة أخرى من سبحتها، وتأخذ الحيرة سنيورا ربيكا وهي متمدّدة في كرسيها القابل للطيّ تراقب الساعة التي تبدو ثانية عند حافة اللحظة الوشيكة، ويكون لأغويدا ما يكفي من الوقت (بالرغم من أنّ اللحظةلم تمرّ بعد في ساعة السنيورة ربيكا) لتسحب حبّة أخرى آنجيل. ثم تنزل يد الصبيّ وتأتي الشفرة بحركة على المشحذ الجلديّ، ويقول أحد الرجال الجالسين في برودة العتبة القديمة: "لا بدّ أنّ الساعة حوالي الثالثة والنصف أليس كذلك؟" ثم يتوقف العقرب ساعة ميتة على وشك أن تنتقل إلى اللحظة التالية مرّة أخرى، وتتوقف الشفرة من جديد ضمن حدود معدتها، وما تزال أغويدا في انتظار حركة جديدة من عقرب الساعة لتمدّد ساقيها، ولتندفع إلى موهف الكنيسة وذراعاها ممدودتان وركبتاها تتحرّكان من جديد، وهي تصيح: "أبتاه، أبتاه"، والأب أنجيل متمدّد أرضاً في سكون الصبي يلحس شفتيه بلسانه الطعم الخبيث لكابوس كفتة اللحم، فيقول حين يرى أغويدا: "هذه معجزة لا ريب في ذلك" ثم لا يلبث أن يتقلّب من جديد في النعاس المبلّل بالعرق. "يا أغويدا،

ليس هذا الوقت المناسب على أيّة حال لإقامة قدّاس على أرواح الناس في المطهر." غير أن الحركة التالية تسبّب الإحباط، ويدخل والدي إلى الغرفة ويتّحد الزمنان، ويتساوى النصفان، ويندمجان، وتدرك ساعة السنيورة ربيكا أنها قد وقعت بين براثن بخل الصبيّ ونفاد صبر الأرملة، ثم تتثاءب مرتبكة، وتغوص في هدوء اللحظة المهول، ثم ما تلبث أن تظهر فيما بعد، والزمن السائل يقطر منها، زمن مضبوط ومعدل فتتحني نحو والدي الذي كسر صمت اللحظة دون أن يدري: "أراك ذاهلة يا ابنتي؟" فأسأله: "هل تعتقد أنّ شيئاً ما قد يحدث؟" فيقول، وهو يضحك ويتصبّب عرقاً: "إنّني متأكد على الأقل من أن الأرز سيحترق وسينسكب الحليب في العديد من المنازل."

لقد أغلقوا التابوت الآن، ولكنّي أستطيع تذكّر وجه الميت. لقد انطبع وجهه في ذاكرتي بوضوح إلى الحدّ الذي إذا نظرت إلى الجدار أستطيع أن أرى عينيه المفتوحتين ووجنتيه الممتلئتين الرماديتين كلون التراب الرطب ولسانه المعضوض المائل إلى إحدى جوانب فمه. يمنحني هذا شعوراً محرقاً قلقاً وربما يكون سبب هذا هو لباسي الداخلي الذي كان ضيّقاً عليّ من جانب إحدى ساقي.

جلس جدّي إلى جانب أمي، وجلب معه الكرسي عندما عاد من الغرفة المجاورة، وها هو الآن يجلس مجاوراً لأمّي، ولا ينبس ببنت شفة، وقد وضع ذقنه على خيزرانته، ثم مدّد رجله العرجاء أمامه. كان جدّي ينتظر، وأمّي تنتظر مثله أيضاً. توقّف الرجال عن التدخين وها هم

ساكنون، وقد جلسوا جميعهم في صفّ واحد دون النظر إلى التابوت. إنّهم ينتظرون أيضاً.

وإذا عصبوا لي عينيّ، وأخذوني من يدي، وجعلوني أسير حول البلدة عشرين مرة، وأعادوني إلى هذه الغرفة فإنّني سأتعرّفها من رائحتها. لن أنسى ما حييت الرائحة التي تنبعث من الغرفة، رائحة قمامة وصناديق أمتعة تكوّمت فوق بعضها، كلّها يشبه بعضها بعضاً مع أنّني لم أكن أرى سوى صندوق واحد فيه، كنا نختبىء أنا وإبراهام ويبقى لتوبياس متسع من المكان. أنا أعرف الغرف من رائحتها.

أجلستني آدا في حضنها العام الماضي. أغمضت عيني، ورأيتها من خلال أهدابي. رأيتها داكنة اللون وكأنها ليست امرأة بل وجه فقط. كان ينظر إليّ ويهزني ويثغو مثل خروف. كنت على وشك النوم عندما شممت الرائحة.

ليس ثمة رائحة لا أستطيع تمييزها في البيت. عندما يتراكونني على الشرفة وحيداً أغمض عيني، وأفتح ذراعيّ، وأمشي. واقول لنفسي: "عندما أشمّ الروم العابق برائحة الكافور سأكون قد وصلت إلى غرفة جدّي." وأتابع المشي، وعيناي مغمضتان، وذراعاي ممدودتان فأقول لنفسي: "لقد عبرت غرفة والدتي الآن لها رائحة مثل ورق اللعب الجديد." ثم تأتيني رائحة الزفت وكرات العُثّ، فأتابع المشي وتأتيني رائحة ورق اللعب الجديد في اللحظة التي أسمع فيها صوت والدتي، وهي تغنّي في غرفتها. ثم أشم رائحة الزفت وكرات العُثّ وأستدير نحو الجهة اليسرى

من الرائحة فتصلني رائحة الثياب الداخلية والنوافذ الموصدة. سأتوقف هناك، وأشمّ رائحة جديدة عندما أمشي ثلاث خطوات فأتوقف وعيناي مغمضتان، وذارعاي ممدودتان وأسمع صوت آدا تصرخ قائلة: "لماذا تمشي وعيناك مغمضتان يا صبيّ؟"

عندما داهمني النعاس في تلك الليلة، التقطت رائحة لا توجد في أية غرفة من غرف المنزل. كانت رائحة قوية ودافئة وكأنّ أحدهم كان يهزّ غصن ياسمين. فتحت عينيّ، وأنا أشمّ الهواء المثقل بالرطوبة وقلت: "أتشمّين هذه الرائحة؟" كانت آدا تنظر إليّ، ولكن عندما تحدثت إليها أغلقت عينيها ونظرت إلى الجهة الأخرى وسألتها من جديد: "أتشمّين الرائحة؟" وكأنّ في الجوار بعض أشجار الياسمين." ثم قالت: "إنّها رائحة الياسمين الذي أخذ ينمو على الجدار هنا منذ تسع سنوات خَلَتْ."

جلستُ في حضنها، وقلتُ لها: "ولكن لا يوجد أيّ ياسمين الآن." فقالت: "ليس الآن، لكن منذ تسع سنوات عندما ولدتَ كان هناك أغصان ياسمين على جدار باحة الدار.

حين يكون الليل حاراً يعبق الجو برائحة مثل هذه الرائحة الآن." فملت على كتفها ونظرت إلى فمها بينما كانت تتكلم، وقلت: "ولكن هذا قبل مولدي"، فقالت: "أثناء ذلك الوقت هبّت عاصفة شتويّة قويّة كان عليهم بعدها أن ينظّفوا الحديقة."

ما زالت الرائحة موجودة هناك دافئة تكاد أن تُلمس وتطغى على جميع روائح الليل. أخبرت آدا: "أريدك أن تخبريني بذلك"، وبقيتْ صامتة

للحظة، ثم نظرت نحو الجدار الذي تمّ بتبييضه، وانعكس ضوء القمر عليه، وقالت:

"عندما تكبر ستعرف أنّ الياسمين زهرة دائماً تتفتّح من جديد."

لم أفهم، ولكني شعرت برعشة غريبة، وكأنّ أحداً لمسني. قلت: "حسنٌ"، فقالت: "يحدث للياسمين الشيء نفسه الذي يحدث للبشر الذين يظهرون ويتجولون أثناء الليل بعد موتهم."

بقيت هناك متّكئاً على كتفها من دون أن ببنت شفة. كنت أفكر بأشياء أخرى مثل الكرسي في المطبخ الذي كان جدّي يضع حذاءه على مقعده ليجفّ وقت المطر. ومنذ ذلك الوقت عرفت أنّ هناك ميتاً في المطبخ يجلس كل ليلة دون أن يرفع قبّعته، ويراقب الرماد في الموقد البارد. قلت بعد لحظة: "يبدو هذا مثل الميت الذي يجلس في المطبخ." نظرت آدا إليّ وفتحت عينيها وسألت: "أيّ رجل ميت؟"، فأجبتها: "ذلك الرجل الذي يجلس كلّ ليلة في الكرسي حيث يضع جدّي حذاءه كي يجفّ. قالت: "ما من ميت هناك. إنّ الكرسيّ بقرب الموقد لأنّه لا يصلح لأيّ شيء إلا لتجفيف الأحذية عليه."

كان هذا في السنة الماضية. ولكن الوضع مختلف الآن، فقد رأيت جثّة وكان كلّ ما عليّ عمله هو أن أغلق عينيّ لأستمر في رؤيته في داخلي في ظلمة عينيّ. كنت سأخبر أمي ولكنّها كانت قد بدأت بالحديث مع جدّي. وتسأل أمي: "أتعتقد أنّ شيئاً قد يحدث؟" فيرفع جدّي ذقنه من على خيزرانته ويهزّ رأسه قائلاً: "على الأقل إنني متأكد من أنّ الأرز سيحترق، وسينسكب الحليب في العديد من المنازل."

VI

اعتاد أن ينام حتى الساعة السابعة في بادئ الأمر. وكان يظهر في المطبخ بقميصه الذي لا ياقة له وقد زرّره حتى العنق، ولفّ كميّه الوسخين المتجعّدين حتى معصميه، وبسرواله القذر الذي يصل إلى صدره، وقد شدّ حزامه من الخارج تحت العروة بمسافة كبيرة، فتشعر وكأنّه على وشك أن ينزل عنه إذ ليس هناك شيء يمسكه. وقتها لم يصبه شيء من النحول، ولكن فارقته تلك النظرة العسكرية المتغطرسة التي كانت تلوح على وجهه في العام الأوّل. بدا عليه التعبير الحالم والمتعب لرجل لا يعرف ما ستؤول إليه حياته من لحظة لأخرى، ولا يهتمّ أدنى اهتمام بمعرفة ذلك. كان يشرب قهوته المرّة بعد السابعة بقليل ويعود لغرفته وهو يلقي، كيفما اتفق، بتحيّة الصباح التي لا معنى لها.

مضت أربع سنوات، وهو يعيش في بيتنا، وكان يعدّه الناس في ماكوندو رجل مهنة جاداً بالرغم من حقيقة أنّ أساليبه الخشنة والفوضويّة قد خلقت حوله جوّاً أقرب إلى الخوف منه إلى الاحترام.

كان الطبيب الوحيد في البلدة إلى أن وصلت شركة الموز، وبدأ العمل في طريق السكة الحديدية، ثم بدأت تظهر الكراسي الفارغة في الغرفة الصغيرة حين أخذ الناس الذين زاروه خلال السنوات الأربع الأولى من

إقامته في ماكوندو بالانقطاع عنه عندما افتتحت الشركة عيادة لعمّالها. ولا بدّ أنّه أدرك الاتجاهات الجديدة التي كانت عاصفة الأوراق تتوجّه نحوها، ولكنّه لم يقل أيّ شيء، فقد ظلّ يفتح الباب الخارجيّ، ثم يجلس في كرسيه الجلديّ طيلة اليوم حتى تمرّ عدة أيام دون أن يأتي لزيارته مريض واحد. عندئذٍ أغلق الباب بالمزلاج، واشترى أرجوحة نوم وأغلق الغرفة على نفسه.

دأبت ميم على إحضار الفطور له في أثناء ذلك الوقت وكان يتألفّ من الموز والبرتقال. كان يأكل الفاكهة، ويرمي قشورها في الزاوية حيث كانت تقوم المرأة الهنديّة بالتقاطها أيام السبت عندما كانت تنظّف غرف النوم، ويشكّ المرء من طريقه تصرفه إذ أنّه لم يكن يهتمّ إن قامت المرأة بالتنظيف أو توقفّت عنه في أحد أيام السبت وتكومّت الأوساخ في الغرفة.

لم يكن يقوم بأيّ شيء وقتئذٍ، فقد كان يمضي وقته متمدّداً في الأرجوحة يتأرجح. وكان يمكن رؤيته من خلال الباب الموارب، وهو قابع في الظلمة. كان وجهه النحيف الذي يخلو من أيّ تعبير، وشعره المتشابك والحيوية المريضة لعينيه الصفراوين القاسيتين تضفي عليه بوضوح مظهر إنسان أخذ يشعر كأنّ الظروف قد هزمته.

خلال السنوات الأولى من إقامته في منزلنا بدت إديلايدا غير مبالية، وكأنّها تسايرني أو أنّها كانت موافقة على قراري بأنّ عليه الإقامة في المنزل. لكن عندما أغلق عليه مكتبه لا يغادر غرفته إلاّ خلال أوقات الطعام، فجلس إلى المائدة يلفّه ذلك الشعور الدائم بعدم الاكتراث

الصامت والمؤلم، لم يعد عندئذٍ بوسع زوجتي أن تتحمّله. وقالت لي: "إنّه لمن الكفر أن نستمرّ في إعالته، وكأنّنا نطعم الشيطان عينه." لكنني كنت دائماً إلى جانبه انطلاقاً من شعور معقّد من الشفقة والذهول والأسف (لأنني، ورغم محاولاتي الآن لأغيّر من طبيعة هذا الشعور الذي يتضمّن الكثير من الأسف) وكنت أصرّ قائلاً: "علينا أن نهتمّ به فهو إنسان ليس له أحد في هذا العالم ويحتاج إلى من يفهمه."

بدأت السكّة الحديدية تعمل بعد ذلك بوقت قصير. كانت ماكوندو بلدة مزدهرة تغصّ بالوجوه الجديدة وفيها دار عرض للسينما والعديد من أماكن التسلية. كان هناك عمل للجميع في ذلك الوقت ما عداه. أغلق على نفسه الباب، وبقي منعزلاً حتى ذلك الصباح الذي ظهر فيه فجأة في غرفة الطعام أثناء وجبة الفطور، وتكلّم بعفوية بل بحماسة عن ازدهار البلدة المنقطع النظير. سمعت تلك الكلمات أول مّرة ذلك الصباح فقد قال: "كلّ هذا سيزول عندما نعتاد على عاصفة الأوراق."

بعد هذا بعدة أشهر أخذ الناس يرونه في شوارع البلدة قبيل الغسق. كان يجلس عند دكّان الحلاّق إلى أن يحلّ الظلام، فيشارك في أحاديث الناس الذين تجمّعوا عند الباب قرب منضدة الحلاقة التي يمكن حملها وبقرب الكرسيّ العالي الذي أخرجه الحلاّق إلى الشارع حتى يتمتّع زبائنه ببرودة المساء.

لم يشعر أطباء الشركة بالرضا لأنّهم حرموه من الوسيلة الوحيدة التي كان يعيش منها.

وفي عام ١٩٠٧ عندما لم يبق في ماكوندو ثمة مريض واحد يتذكّره، وعندما لم يعد يتوقّع زيارة أيّ مريض، قدّم أحد أطباء شركة الموز اقتراحه لمكتب العمدة بأن يطلب من جميع الأطباء المحترفين أن يسجّلوا أنفسهم وفقاً للشهادات التي يحملونها. لا بد أنّه لم يشعر أنّه المقصود عندما ألصق الأمر أحد أيام الإثنين في الزوايا الأربع للساحة، وكنت أنا من تكلّم إليه حول ضرورة الانصياع لهذا المطلب، كان هادئاً لا مبالياً وأجابني باقتضاب: "ليس أنا أيّها الكولونيل من يفعل ذلك فلن أزجّ بنفسي في أيّ من هذا القبيل ثانية." لم أتمكن من معرفة ما إذا كانت أوراقه سليمة أم لا. ولم أتمكّن من معرفة إن كان فرنسياً كما اعتقدنا أو كان يحمل أيّة ذكرى عن عائلة كان ينتمي إليها فيما مضى، ولكنّه لم يأت أبداً على ذكرها. وعندما قدم العمدة وسكرتيره إلى منزلي بعد عدة أسابيع ليطالبوه بتقديم رخصته وتسجيلها رفض رفضاً قاطعاً أن يخرج من غرفته. وفي ذلك اليوم أدركت فجأة، بعد أن أمضى الرجل خمس سنوات فيما بيننا، أنّنا لا نعرف حتى اسمه.

قد لا يكون ضرورياً أن يبلغ المرء السابعة عشرة من عمره (كما كان عمري عندئذٍ) كي يلاحظ أنّ الغرفة الصغيرة المطلّة على الشارع في منزلنا كانت مغلقة، فقد لاحظت هذا في اليوم الذي رأيت فيه ميم بكامل زينتها في الكنيسة، وفيما بعد عندما تحدّثت معها في المخزن. عرفت فيما بعد أنّ زوجة أبي قد عملت على وضع القفل فيها، ومنعت الجميع من لمس الأشياء التي كانت بداخلها: السرير الذي كان قد

استخدمه الطبيب حتى اشترى الأرجوحة وطاولة الأدوية الصغيرة التي لم يرفع عنها سوى المال الذي جمعه في سنوات الخير في مهنته (والذي لابد أنه كان مبلغاً كبيراً من المال، لأنه لم تكن له أية مصاريف في المنزل وكان يكفي لتفتح به ميم المخزن).

وبالإضافة إلى ذلك كان هناك حوض الغسيل وبعض المقتنيات الشخصيّة التي ليس لها نفع وسط كومة النفايات والجرائد القديمة المكتوبة بلغته.

بدا كأنّ كلّ هذه الأشياء كانت ملوّثة بشيء عدّته زوجة أبي شيئاً شرّيراً وشيطانيّاً.

لا بدّ أنّني لاحظت أنّ الغرفة قد أُغلقت في شهر تشرين الأول أو الثاني (بعد ثلاث سنوات من مغادرته منزلنا مع ميم) لأنّني بدأت أحلم بإقامة مارتين في تلك الغرفة في مطلع السنة التالية. أردت أن أعيش فيها بعد زواجي وكنت أطوف خلسة حولها حتى إنّني اقترحت على زوجة أبي في حديث لي معها بأنّ الوقت قد حان لرفع القفل وإلغاء الحجر الذي لا يمكن اختراقه، والذي كانت زوجة أبي تفرضه على جزء من المنزل هو أكثرها حميميّة ووداّ.

لكن قبل أن تبدأ بخياطة ثياب زفافي لم يتكلّم أحد معي مباشرة عن الطبيب ولا حتى عن الغرفة الصغيرة التي كانت تُعدّ شيئاً من ممتلكاته، جزءاً من شخصيّته لا يمكن انتزاعها من بيتنا طالما لا يزال يعيش في هذا البيت من يتذكّره.

كنت سأتزوج قبل نهاية السنة. لا أدري فيما إذا كانت الظروف التي ترعرعت فيها خلال الطفولة والمراهقة قد أعطتني تلك الفكرة غير الدقيقة عن الأحداث والأشياء في ذلك الوقت، ولكن ما كان مؤكداً أنّه خلال تلك الشهور التي استمرّت فيها التحضيرات لزفافي كنت ما أزال جاهلة سرَّ الكثير من الأشياء. كنت أستعيد ذكرى مارتين قبل عام من زواجي به من خلال جوّ غامض وغير واقعيّ. ربما كان هذا هو السبب في أنّني أردته أن يكون قريباً مني في الغرفة الصغيرة، حتّى أستطيع أن أقنع نفسي بأنه كان رجلاً حقيقياً وليس مجرد خطيب التقيته في حلم من أحلامي. ولكنني لم أشعر أن لديّ ما يكفي من الجرأة لأخبر زوجة أبي بهذا المشروع. فقد كان طبيعياً أن أقول: "سأرفع القفل وسأضع الطاولة قرب النافذة والسرير بحذاء الجدار الداخليّ. سأضع أيضاً مزهريّة من القرنفل على الرفّ وغصناً من الصبّير على عارضة الباب." غير أن جبني وعدم قدرتي على اتخاذ القرار قد اقترنا بالصورة المشوشة التي كوّنتاه عن خطيبي. تذكرته شخصاً غامضاً لا يمكن إمساكه وبدا أنّ الشيء الحقيقيّ فيه هو شاربه اللامع ورأسه المائل قليلاً نحو اليسار وسترته الجاهزة على الدوام ذات الأربعة أزرار.

جاء إلى بيتنا في نهاية شهر تموز. أمضى اليوم معنا، وتجاذب أطراف الحديث مع والدي في المكتب. وتحدّث عن بعض الأعمال الغامضة التي لم أعرفها أبداً. وعند الظهيرة كنّا أنا ومارتين نقصد المزارع مع زوجة أبي. وعندمانظرت إليه في طريق العودة، في ضوء الغروب اللطيف، حين

كان قريباً جداً مني، يمشي معي كتفاً إلى كتف، بدا لي أنّه غامضٌ أكثر وغير واقعيّ. أدركت حينئذٍ أنّني لن أتمكن أبداً أن أتخيّله كإنسان، أو لن أتمكن من أن أجد فيه الصلابة التي كانت ضرورية إذا قدِّر لذكراه أن تهبني الشجاعة والقوّة في اللحظة التي أقول فيها: "سأرتّب الغرفة من أجل مارتين."

بدت لي فكرة زواجي من مارتين غريبة حتى قبل عام من الزفاف. التقيته في شباط في أثناء سهرنا على جثّة بالوكويمادو الطفل. وكنّا نحن الفتيات نرقص ونصفّق، ونحاول استغلال كلّ ما هو مسموح به للتسلية في ماكوندو، لكن أبي وزوجته لم يكونا ليسمحا لفتيات في مثل عمري بالذهاب إلى أماكن كهذه. كانا يقولان: "إنها تسليات رمت بها عاصفة الأوراق."

كانت الظهيرة حارّة في شباط. وكنّا نجلس أنا وزوجة أبي على الشرفة، ونعيد خياطة بعض القطع البيضاء بينما يستغرق أبي في قيلولته. كنا نخيط حتى يستيقظ ويخرج بقبقابه ليضع رأسه في حوض الغسيل. لكن ليل شهر شباط كان عميقاً وبارداً وبإمكانك أن تسمع أصوات النسوة يغنّين في أثناء سهرهن على أطفالهن الموتى.

كان صوت ميم أوروزكو في الليلة التي ذهبنا فيها لنسهر على جثّة بالوكويمادو الطفل أعلى من أية مرة سابقة. كانت نحيفة الجسم سمجة ويابسة مثل مكنسة، لكنها عرفت كيف تجعل من صوتها أفضل الأصوات. قالت جينو فيفا غارسيا عند الوقفة الأولى: "هناك غريب يجلس

في الخـارج." اعتقـدت أننّـا توقفنـا كلنّـا عـن الغنـاء مـا عـدا ريميـديوس أوروزكو. قالت جينو فيفا غارسيا: "تخيّلوا فقط أنّه يرتدي سترة."

"بقـي الغريـب يـتكلّم طيلـة الليـل بينمـا يسـتمع الآخـرون إليـه دون أن ينبسوا ببنـت شـفة. وكـان يرتـدي سـترة لها أربعـة أزرار. وحـين يضـع رجـلاً على رجل يمكنك أن تشاهد جوربيه ورباطهما، وشـريط حذائـه." كانت ميم أوروزكو لا تزال تغني عندما صفقنا بأيدينا وقلنا: "لتتزّوج منه إذاً."

فيمـا بعـد لم أجـد أيـة علاقـة بـين الواقـع وبـين تلـك الكلمـات عنـدما فكرت في الأمر في المنزل. تذكـرت هذه الكلمات وكـأنّ مـن قالها لـيس إلا مجموعة من النسوة اللواتي لا وجود لهن، واللواتي كنّ يصفّقن ويغنين في منـزل مـات فيـه طفـل وهمـيّ. كانـت النسـوة الأخريـات يدخنّ السـجائر بـالقرب منّـا وهـنّ نسـوة جـادّات ويقظـات، كـنّ يمـددن نحونـا أعنـاقهنّ الطويلة، تلك الأعناق التي تشبه أعناق الصقور. وكـان هنـاك امـرأة أخـرى في الجهة الخلفيّة من المنزل عند العتبة الباردة وكـانت مغطّـاة حتـى رأسـها بقماش أسود واسع، وكـانت تنتظر القهوة كـي تغلـي. وفجـأة انضـمّ إلينـا صوت ذكـوريّ. كـان الصـوت في البدايـة مرتبكـاً وغير موجّـه، ومـن ثـم أصـبح رنّانـاً مـدوّياً وكـأن الرجـل كـان يـرنّم في كنيسـة. دفعـتني فيفـا غارسيا برفق في خاصرتي، فرفعت عيني ورأيته للمرة الأولى.

كـان فتّيـاً أنيقـاً يرتـدي ياقـة ثابتـة وسـترة قـد زرّرت أزرارهـا الأربعـة، وكـان يحدق فيّ.

تناهـت إلـيّ أنبـاء عـن عودتـه في شـهر كـانون الأوّل، أنّ أفضـل مكـان

مناسب هو الغرفة الصغيرة المقفلة، لكنّني لم أكن قد فكّرت في ذلك بعد. أخذت أحدث نفسي: "مارتين، مارتين". ولدى تفحّصي للاسم وتذوّقه، انفرط إلى أجزائه الأساسية، وفقد كلّ معناه بالنسبة إليّ.

بعد أن عدنا من سهرنا على الميت، وضع فنجاناً فارغاً أمامي وقال: "لقد قرأت حظّكِ في الفنجان." كنت أتوجّه إلى الباب مع الفتيات الأخريات، فسمعت صوته عميقاً ومقنعاً ورقيقاً حين قال: "عدّي سبعة نجوم، وستحلمين بي" وقع نظرنا على طفل البالوكويمادو في تابوته الصغير عندما مررنا قرب الباب. فقد قاموا برشّ وجهه بالبودرة الناعمة، ووضعوا وردة في فمه، وابقوا عينيه مفتوحتين بواسطة عيدان تنظيف الأسنان. كان شهر شباط يرسل إلينا رياح الموت الدافئة فعبقت في الغرفة نسيمات الياسمين ورائحة البنفسج الذي سخّنته الحرارة. لكن في ذلك الصمت، صمتْ إنسان ميت، أتى الصوت الآخر مختلفاً ومستمراً: "لا تنسي سبع نجمات فقط."

جاء إلى منزلنا في شهر تموز. وأحبّ أن يستند إلى أحواض الزهور الموجودة على طول السياج. قال: "تذكّري أنّني لم أنظر أبداً في عينيك وهذا هو سر من بدأ يشعر أنّه على وشك الوقوع في الحب."كان ما قاله صحيحاً، فأنا لا أستطيع أن أتذكّر شكل عينيه. ربّما لم أكن قادرة في تموز على تحديد لون عيني الرجل الذي كنت سأتزوّجه في كانون الأول. مع ذلك، قبل ستة أشهر لم يكن شباط إلاّ شهراً من الصمت العميق في وقت الظهيرة. كان هناك زوج من الدود الأسود، ذكر وأنثى يلتفّان على

بعضهما بعضاً في أرض الحمام، ومتسولة يوم الثلاثاء التي تأتي لتطلب غصناً من بلسم الليمون.

كان مارتين يميل بظهره ويبتسم قائلاً، وقد زرّر كلّ أزرار سترته: "سأجعلك تفكرين بي في كل لحظة من لحظات اليوم. لقد وضعت صورتك خلف الباب وغرزت دبوسين في العينين." فتقول جينو فيفا غارسيا، وهي مستغرقة في الضحك: "هذه هي التفاهات التي يتعلّمها الرجال من هنود الكواخيرو."

بقي يتردد على منزلنا في نهاية آذار. كان يقضي ساعات طويلة في المكتب مع والدي يحاول إقناعه بأهمية أمر لم أتمكّن أبداً من معرفته. مرّ الآن أحد عشر عاماً على زواجي وتسعة أعوام على ذلك اليوم الذي ودّعني فيه من نافذة ذلك القطار ويجعلني أقطع له وعداً بأنني سأهتمّ بالطفل إلى حين عودته إلينا. مرّت تلك السنوات التسع دون أن نسمع كلمة واحدة منه، أما والدي الذي ساعده على القيام بتلك الرحلة التي لا نهاية لها لم ينطق أبداً بكلمة أخرى عن عودته. ولكن حتى خلال السنتين التي دامها زواجنا لم يكن مارتين حقيقيّاً أو ملموساً أكثر مما كان عليه في أثناء سهرنا على جثّة الطفل بالوكويمادو أو في ذلك الأحد من شهر آذار عندما رأيته للمرة الثانية، بينما كنت وفيفا غارسيا عائدتين إلى البيت من الكنيسة. كان يقف يومها عند باب الفندق وحيداً، وقد وضع يديه في جيبي سترته ذات الأزرار الأربعة وقال: "ستفكّرين الآن بي طيلة حياتك لأن الدبّوسين قد سقطا من الصورة." قال

هذا بصوت رقيق يشوبه التوتر حتى تصورت وكأنّ الأمر حقيقة. لكن حتى تلك الحقيقة كانت غريبة ومختلفة وقد أصرّت جينوفيفا على أنّ "هذا من سخافات هنود الكواخيرو." بعد ثلاثة اشهر هربت جينوفيفا مع رئيس شركة لألعاب الدمى ومع هذا فقد كانت تبدو رصينة وجادّة في يوم الأحد ذاك. قال مارتين: "ما ألطف أن يعرف المرء أنّ هناك من ينتظره في ماكوندو". فقالت جينو فيفا غارسيا وهي تنظر إليه بوجه ينبىء بالسخط: "ترّهات! استعقف وأنت ترتدي ذلك المعطف ذا الأزرار الأربعة."

VII

على الرغم من أنّه كان يتمنّى العكس، فقد كان رجلاً غريباً عن البلدة، انطوائيّاً رغم جهوده الواضحة التي بذلها ليبدو اجتماعياً ودوداً. عاش بين أبناء ماكوندو، ولكنّه بقي بعيداً عنهم بسبب ذكرى من الماضي بدا من العبث بذل أية محاولة لإصلاحها.

كان الناس ينظرون إليه بفضول مثل حيوان كئيب أمضى وقتاً طويلاً في الظلّ، ثمّ عاد للظهور وقد اتّخذ لنفسه سلوكاً تعدّه البلدة سلوكاً مصطنعاً وبالتالي مثيراً للتلذذ.

كان يعود من دكّان الحلاّق عند حلول الليل ويبقى حبيساً في غرفته. تخلّى عن وجبته المسائيّة لبعض الوقت، واعتقد أهل المنزل في بداية الأمر أنّ السبب يكمن في عودته مرهقاً فيذهب مباشرة إلى أرجوحته لينام حتى اليوم التالي. ولكن لم يمرّ إلاّ وقت قصير عندما بدأت أتحقّق من أنّ شيئاً غير طبيعيّ كان يحدث له في الليل. كان بالإمكان سماعه وهو يتحرّك في غرفته بإصرار معذّب وباعث على الجنون، وكأنّه في تلك الليالي كان يستقبل شبح الرجل الذي كان عليه هو حتى ذلك الوقت، فيشتبك رجل الماضي ورجل الحاضر كلاهما في صراع صامت يدافع فيه

رجل الماضي عن عزلته الحانقة وأسلوبه المتحفظ المنيع وطرقه العنيدة بينما يدافع رجل الحاضر عن إرادته المخيفة التي لا تتزعزع ليحرّر نفسه من الرجل السابق الذي كان عليه. وكنت أستطيع سماعه يذرع الغرفة حتى الفجر إلى أن يرهق تعبه الشديد قوة عدوّه اللا مرئيّ.

كنت الوحيد الذي لاحظ مقدار تغيّره الحقيقيّ، منذ الوقت الذي توقّف فيه عن ارتداء الطماق وبدأ يأخذ حمّاماً كل يوم ويعطّر ملابسه بماء معطر. وبعد بضعة أشهر بلغ تحوله المدى الذي بدأت فيه مشاعري نحوه تتحوّل من التسامح والفهم البسيط إلى شعور بالحنان.لم يحرّك مظهره الجديد مشاعري، فالذي حرّكها هو تفكيري به وقد حبس نفسه في غرفته أثناء الليل ليزيل الوحل عن حذائه ويبلّل خرقة في حوض الغسيل ليلمع حذاءه الذي اهترأ بفعل الاستخدام الدائم على مرّ السنين. ما جعلني أتأثّر هو التفكير بالفرشاة وبصندوق صباغ الأحذية الذي كان يحتفظ به تحت فراشه ليخفيه عن أعين الناس، كأنّ الفرشاة والصندوق كانا (من عناصر رذيلة سريّة مخجلة ارتُكبت في وقت بات فيه معظم الرجال أتقياء ورصينين). كان يمرّ بفترة مراهقة متأخرة وعقيمة، وكان يهتمّ كثيراً بملابسه مثل مراهق، فيسوّي ثيابه كلّ ليلة ببرود بطرف يده، غير أنّه لم يكن فتيّاً ليحظى بصديق يشاركه أوهامه أو خيباته.

لا بدّ وأنّ البلدة قد لاحظت تبدلّه أيضاً، وبدأ يُشاع فيها بعد وقت قصير أنّه وقع في غرام ابنة الحلاّق، لا أدري مدى صحّة الخبر، ولكن من المؤكّد أنّ هذه الشائعة جعلتني أدرك مدى وحدته الجنسيّة الهائلة

والغضبة البيولوجية التي سبّبت له العذاب في سني القذارة والهجر.

كنّا نراه عصر كلّ يوم، وهو في طريقه إلى دكّان الحلاّق، وقد بدا ذوّاقاً أكثر فأكثر بخصوص ملابسه. فلقميصه ياقة مركّبة، ولكميّه أزرار ذهبيّة، كما كان سرواله نظيفاً ومكويّاً ولكنه كان لا يزال يضع حزامه خارج حلقات بنطاله. بدا كطالب زواج مبتلىً غارق في شذى العطور والمساحيق الرخيصة، فهو الخطيب المحبط دائماً وعاشق غروب الشمس، الذي كان ينقصه دائماً أن يحمل باقة من الورد في الزيارة الأولى.

هكذا كانت حاله خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٠٩، دون أن يكون هناك أيّ أساس من الصحّة للشائعة التي سرت في البلدة عدا حقيقة أنّ الناس كانوا يرونه دائماً جالساً في دكّان الحلاّق عصر كلّ يوم يتجاذب أطراف الحديث مع غرباء، ولكن لم يكن أحد متأكداً أنّه رآه مرّة واحدة مع ابنة الحلاّق. اكتشفت ظلم تلكالشائعة إذ عرف الجميع في البلدة أنّ ابنة الحلاّق ليست إلاّ عانساً بعد أن مرّت عليها سنة من المعاناة، فقد سكنتها روح شرّيرة لعاشق غير مرئيّ، وألقى الأوساخ في طعامها والوحل في ماء جرّتها، وحزم المرايا في دكّان أبيها، واستمرّ في ضربها حتى تشوّهت ملامحها وازرقّ وجهها. ولم تنفع معها لا جهود الكاهن ولا ضربة من عصاه، ولا العلاج المعقّد بالمياه المقدّسة، ولا الآثار المقدّسة، ولا حتى المزامير التي تُليت بتأنٍّ مسرحيّ. وكردّ فعل متطرف عمدت زوجة الحلاّق إلى حبس ابنتها المسحورة في غرفتها ورشّت الرزّ حول غرفتها، ومن ثم سلّمتها إلى العاشق الخفيّ في شهر عسل منفرد وميت،

وبعدها قال أبناء ماكوندو: إنّ ابنة الحلاّق قد حَملتْ.

ولم تمرّ السنة حتى توقّف الناس عن انتظار الحدث المخيف، وهو أن تلد طفلاً، وتركّز الفضول العام على فكرة أنّ الطبيب قد وقع في حبّ ابنة الحلاّق بالرغم من حقيقة أن الجميع كانوا مقتنعين أنّ تلك الفتاة المسحورة قد كتب عليها أن تحبس نفسها في غرفتها وأن تتفتّت تراباً قبل أن يتمكن أيّ خاطب من التحول إلى رجل حقيقيّ يمكنه الزواج منها.

لهذا السبب كنت متأكداً، دون أن أعتمد أيّ افتراض، أنّ الخبر كان مجرّد شائعة ظالمة حيكت بخبث سلفاً. وفي حوالي نهاية عام ١٩٠٩ كان الطبيب ما يزال يذهب إلى دكان الحلاّق، وما يزال الناس يتكلّمون، ويرتّبون الزفاف، ولم يكن أحد قادراً على القول: إنّ الفتاة خرجت لمرّة واحدة عندما كان موجوداً أو أنّ الفرصة سنحت لها ليتكلّما أحدهما مع الآخر.

وفي شهر أيلول، قبل ثلاثة عشر عاماً، حين كان الجوّ حارّاً وهامداً مثل هذا الشهر بدأت زوجة أبي تخيط ثوب زفافي. ففي عصر كل يوم وبينما كان والدي مستغرقاً في قيلولته كنّا أنا وزوجة أبي نجلس لنخيط قرب أحواض الزهور عند السياج إلى جانب الموقد المشتعل الذي كان فيما مضى نبات إكليل الجبل. ولم يكن أيلول إلاّ هكذا طيلة حياتي منذ ثلاثة عشر عاماً أو أكثر. كان زفافي سيتمّ في حفل خاصّ(لأنّ والدي قرّر ذلك) لذلك كنا نخيط ببطء وبمهارة دقيقة لإنسان ليس على عجلة من أمره، وقد وجد أنّ الطريقة المثلى لتزجية الفراغ هي في العمل

الدقيق الذي ينجزه. كنّا نتحادث في غضون ذلك الوقت، وكنت لا أزال أفكّر بالغرفة المطلّة على الشارع، وأستجمع قواي لأخبر زوجة أبي بأنها كانت المكان الأمثل لمارتين، ففاتحتها بالموضوع عصر ذلك اليوم.

كانت زوجة أبي تخيط شريط الدانتيل الطويل وبدت في الضوء المبهر لذلك الشهر الأيلوليّ الذي لا يمكن احتماله لشدّة وضوحه وضوضائه أنّها قد غاصت حتى كتفيها في سحابة من سحابات شهر أيلول المعنيّ. أجابت زوجة أبي: "لا، " ثمّ عادت إلى عملها وكأنّ ثماني سنوات من الذكريات المرّة عبرت أمامها: "لا سمح الله أن يطأ إنسان أرض تلك الغرفة مرة ثانية."

عاد مارتين في تموز لكنّه لم يقم في منزلنا. كان يحبّ أن يستند إلى السياج ويبقى هناك ينظر إلى الجهة المقابلة، وقد أفرحه أن يقول: "أتمنى أن أقضي ما بقي من حياتي في ماكوندو." كنّا نخرج عند العصر إلى المزارع مع زوجة أبي، ونعود إلى البيت عند العشاء قبل أن تسطع الأنوار في البلدة، وعندها كان يقول لي: "حتى وإن لم يكن الأمر من أجلك كنت أتمنّى أن أعيش في ماكوندو." وبدا أنّ هذه هي الحقيقة من الطريقة التي كان يقولها بها.

في ذلك الوقت كان قد مضى أربع سنوات على مغادرة الطبيب لمنزلنا. وقد صادف ذلك تماماً عصر اليوم الذي بدأنا فيه العمل في ثوب الزفاف، ذلك العصر الخانق الذي أخبرتها فيه عن الغرفة من أجل مارتين، حينئذٍ فقط أخبرتني زوجة أبي وللمرّة الأولى عن أساليب الطبيب الغريبة.

قالت زوجة أبي: "منذ خمس سنوات كان ما يزال هناك حبيس الغرفة مثل الحيوان، لأنّه لم يكن مجرّد حيوان بل كان شيئاً آخر: حيواناً يأكل الأعشاب، حيواناً مُجترّاً مثل ثور مربوط إلى نير. لو أنّه تزوّج ابنة الحلاّق، تلك المحتالة الصغيرة التي جعلت البلدة بأسرها تصدق الكذبة الكبيرة بأنّها حملت بعد شهر عسل شنيع مع الأرواح، لما حَدث شيءٌ من هذا القبيل. لكنّه توقّف فجأة عن الذهاب إلى دكّان الحلاّق، بل إنّه أظهر تحوّل اللحظة الأخيرة الذي شكّل فصلاً جديداً في حياته، إذ أنّه، وبتخطيط، مضى قدماً في تنفيذ خطّته المخيفة. ولم يعتقد أحد سوى والدك أن رجلاً بعادات وضيعة كهذه يجب أن يبقى في منزلنا ليحيا مثل حيوان، يثير الفضيحة في البلدة وليعطي للناس مبرّراً ليتكلّموا عنا بوصفنا أناساً يعمدون دوماً إلى تحدّي الأخلاق العامة والعادات الحميدة. وانتهت خططه بمغادرة ميم ولكن حتى ذاك الوقت لم يُقدّر والدك فداحة خطئه."

قلت: "لم أسمع شيئاً من هذا القبيل أبداً" كان الجراد قد أقام منشرة خشب في ساحة الدار. كانت زوجة أبي تتكلّم، وهي ما تزال منكبّة على خياطتها دون أن ترفع عينيها عن طارة التطريز حيث كانت تدرز الرموز وتطرّز الخطوط المتقاطعة البيضاء. وقالت: "في ذلك المساء كنّا جالسين جميعنا إلى المائدة (كلّنا ما عداه لأنه لم يتناول وجبته المسائيّة منذ عصر ذلك اليوم الذي عاد فيه من دكّان الحلاّق للمرّة الأخيرة) عندما أتت ميم لتقوم على خدمتنا. بدت مختلفة فسألتها: "ما الأمر يا

ميم؟، فأجابت: لا شيء يا سيّدي، لماذا؟، لكنّنا استطعنا أن ندرك أنّها لم تكن على ما يرام، فقد وقفت متردّة قرب المصباح، ولاح السقم عليها من كلّ ناحية. فقلت: يا للسماء يا ميم! أنت لست بخير، لكنّها تمالكت نفسها بأقصى ما تستطيع، ثم استدارت نحو المطبخ، وبيدها صينية الطعام. قال بعدها والدك الذي كان يراقب طيلة الوقت: اذهبي للنوم إن لم تكوني على ما يرام، كأنّها لم تقل شيئاً بل خرجت تحمل الصينيّة، وظهرها إلينا، ولم نلبث أن سمعنا صوت الأطباق وهي تتكسّر فغدت قطعاً متناثرة. وجدنا ميم على الشرفة تحاول أن تتمالك نفسها وتمسك الجدار بأظفارها. كان هذا عندما ذهب والدك ليحضر ذلك الرجل من مخدعه كي يلقي نظرة على ميم."

قالت زوجة أبي: "لم نقصده في خدمة على جانب من الأهميّة خلال السنوات الثماني التي قضاها في منزلنا." توجهّنا نحن النسوة إلى غرفة ميم وفركنا وجهها بالكحول، وانتظرنا عودة والدك معه، لكنّهما لم يأتيا يا ايزابيل. لم يأت الطبيب ليلقي نظرة على ميم بالرغم من أنّ الرجل الذي أطعمه وأعطاه مكاناً ليقيم فيه ويغسل له ثيابه طيلة ثماني سنوات قد ذهب ليحضره شخصياً.

كل مرّة أتذكّره فيها اعتقد أنّ قدومه إلينا كان عقاباً من الله. أعتقد أنّ كل ذلك العشب الذي أطعمناه إياه خلال ثماني سنوات، وكلّ ذلك الاهتمام والعناية الفائقة كانا امتحاناً لنا من الله ليعلمّنا درساً في التعقّل وحجب الثقة في هذه الدنيا. لقد كان الأمر، وكأنّنا أخذنا ثماني

سنوات من الضيافة والطعام والملابس النظيفة ورمينا بها كلها إلى الخنازير. كادت ميم تموت (أو على الأقلّ هذا ما اعتقدناه) وكان هو ما يزال في مكانه حبيس غرفته رافضاً أن يقوم بأيّ عمل لا يُعدّ من قبيل الإحسان، بل إنّه عمل يدلّ على اللياقة والشكر، ويمكن عدّه من أبسط الاعتبارات التي يمكن أن يظهرها حيال أولئك الذين عملوا على الاهتمام والاعتناء به.

لم يرجع أبوك إلاّ عند منتصف الليل، وقال بصوت واهن: "امسحوا وجهها ببعض الكحول ولكن لا تعطوها أيّ دواء." شعرت وكأنّ شخصاً صفعني. تحسّنت حال ميم بعد أن قمنا بمسحها بالكحول. صرخت وقد اشتطت غضباً: "أهذا كل شيء، الكحول؟، لقد مسحناها به، وهي أحسن حالاً الآن، ولكن ليس علينا أن نعيش متطفلين بذلك الهراء الذي تشوبه روح المهادنة." ليس الأمر على جانب كبير من الأهميّة. ستدركين ذلك يوماً ما. "وكأنّه هو الآخر كان عرّافاً من العرّافين."

بدا في عصر ذلك اليوم كأنّ زوجة أبي كانت تستعيد ذكرى ما حدث في تلك الليلة البعيدة عندما رفض الطبيب معالجة ميم، ودلّ على ذلك حدّة صوتها والانفعال الذي كان يشوب كلماتها. بدت شجيرة إكليل الجبل وكأنّها تختنق من وهج أيلول المبهر، ومن خمول الجراد، ومن صوت تنفّس الرجال الثقيل الذين كانوا يحاولون هدم باب أحد المنازل في الجوار.

قالت: "لكن في يوم من أيام تلك الآحاد ذهبت ميم لتحضر القدّاس

وقـد تزيّنـت مثـل واحـدة مـن سـيّدات المجتمـع. أسـتطيع أن أتـذكّر ذلـك وكـأنّه يحدث اليوم، فقد كانت تحمل مظلّة ذات ألوان متعدّدة لتقيها من أشعة الشمس."

"ميم، ميم، أنت أيضاً كنتِ عقاباً لنا من الله. لقـد أخذناها مـن ذلـك المكان حيث كان والداها يميتانها جوعاً، واعتنينا بها، ومنحناها طعاماً ومأوى واسماً، لكن العناية الإلهية تدخلت أيضـاً." وفي اليوم التـالي عنـدما رأيتها قرب الباب وهي تنتظر أحد الهنود ليحمل لها صندوق أمتعتها خـارج البيـت، لم أكـن أعـرف حتـى أنـا إلى أيـن كانـت متوجّهـة. كانـت تبـدو متغيّـرة ورصينة، وهـي واقفـة هنـاك بالـذات (وكـأنّني أراهـا الآن) بجانـب صـندوق أمتعتهـا تتحـدث إلى والـدك. تمّ كـل شـيء دون استشـارتي، يـا تشابيلا، وكأنّني كنت مجرّد لعبة مرسومة على الجدار، وقبل أن أسـأل ماذا كان يجري ولماذا كانت تحدث أشياء غريبـة في منزلـي دون معـرفتي بها، جاء إليّ والـدك قـائلاً: "وليس هنـاك مـا يتوجّب أن تسـألي ميم عنـه، فهـي سـتغادر، ولكنهـا قـد تعـود بعـد حـين. سـألته إلى أيـن كانـت ذاهبـة لكنه لم يجبني. ومشى بقبقابه يجرّ نفسـه جرّاً وكـأنّني لست زوجتـه، بـل مجرّد دمية ما مرسومة على الجدار."

قـالت: "بعد يومين فقط اكتشفت أنّ ذلك الآخر غـادر عنـد الفجـر دون أن يبـدي اللياقـة الـتي تدفعـه كـي يلقـي علينـا تحيّـة الـوداع، وليقـول شـيئاً أيضـاً. لقـد تصـرّف تمامـاً كمـا يتصـرف اللصّ. اعتقـدت أنّ والـدك طـرده لأنّـه رفـض أن يعـالج ميم، ولكـن عنـدما سـألته عـن ذلـك في اليـوم نفسـه

اكتفى بأن أجابني: "علينا أنا وأنت أن نتحدّث مطوّلاً عن ذلك." ومرّت أربع سنوات دون أن يفتح الموضوع معي من جديد."

"إنّ شيئاً كهذا لم يكن ليحدث إلاّ مع رجل مثل والدك وفي منزل تعمُّ فيه الفوضى مثل هذا المنزل؛ حيث يتمكّن كل فرد من القيام بما يريده. في ماكوندو لم يكن الحديث إلاّ عن هذا وكنت لا أزال أجهل أنّ ميم ظهرت بكامل زينتها في الكنيسة مثل نكرة ارتفعت لمرتبة سيّدة، وأن والدك تمتّع بالجرأة ليأخذها من ذراعها، ويعبر بها الساحة. اكتشفت عندئذٍ أنّها لم تكن جد بعيدة كما تخيّلت، فقد كانت تعيش في ذلك المنزل على ناصية الشارع مع الطبيب.

لقد ذهبا ليعيشا معاً مثل خنزيرين من دون أن يجتازا حتى باب الكنيسة مع أنّنا قمنا بتعميدها. قلت لوالدك ذات يوم: سيعاقبنا اللّه على هذا الكفر أيضاً، لكنّه لم يقل شيئاً، كان ما يزال ذلك الرجل الهادىء هو نفسه كما عرفناه دائماً حتى بعد أن غدا راعياً للغانيات والفضائح.

"ومع ذلك شعرت بالسعادة الآن؛ لأنّ الأمور سارت على هذا النحو لأنّ الطبيب غادر منزلنا فحسب. فلو لم يحدث ذلك الأمر لكان لا يزال حتى الآن في غرفته الصغيرة.

شعرت بأنّني أكثر هدوءاً عندما علمت أنّه غادر غرفته، وأنّه كان ينقل قذارته إلى ناصية الشارع مع ذلك الصندوق الذي لم يكن يتسّع له الباب المطلّ على الشارع. لقد كان هذا نصري المؤجّل طيلة ثماني سنوات."

"فتحت ميم المخزن بعد مرور أسبوعين، وكان بحوزتها ماكينة خياطة، فقد اشترت ماكينة خياطة جديدة من المال الذي ادخّرته في هذا المنزل. عددتُ ذلك إساءة إلينا وهذا ما قلته لأبيك، لكن بالرغم من أنّه لم يردّ على احتجاجاتي ويمكنك أن تدركي بدلاً من أن يأسف على ما قام به، كان راضياً عنه وكأنّه أنقذ روحه لأنه وقف ضد كلّ ما هو مناسب ومشرّف لهذا البيت بما أبداه من تسامح يضرب به المثل وتفهّم وتحرّر وحتى بشيء من الغباء. قلت له: لقد خسرت أفضل مبادئك من أجل شخص لا يستحقّ إلاّ الازدراء، فردّ عليّ كعهده دائماً: ستفهمين ذلك أيضاً ذات يوم.

VIII

حلّ شهر كانون الأوّل مثل فصل ربيع غير متوقّع، كما ورد ذات مرّة في أحد الكتب. وجاء مارتين معه. ظهر في المنزل بعد الغداء يحمل حقيبة مهترئة وهو لا يزال يرتدي سترته ذات الأزرار الأربعة، غير أنّها بدت هذه المرة نظيفة ومكويّة حديثاً. لم يقل لي شيئاً بل توجّه مباشرة إلى مكتب والدي ليحدّثه. وكان موعد الزفاف قد تحدّد منذ شهر تموز. لكن والدي استدعى زوجته إلى المكتب بعد يومين من وصول مارتين في كانون الأول ليخبرها أنّ الزفاف سيتمّ يوم الإثنين، وكنّا آنذاك في يوم السبت.

كان ثوب زفافي جاهزاً، وكان مارتين يأتي إلى منزلنا كلّ يوم. وكان يتحدّث إلى والدي الذي كان بدوره يخبرنا عن انطباعاته بينما نتناول الطعام. لم أكن على معرفة وثيقة بخطيبي، إذ لم أجلس معه على انفراد في أيّة لحظة. ومع هذا بدا لي أنّ صلة صداقة ثابتة ومتينة تربط بين مارتين وأبي. كان والدي يتحدّث معه وكأنّه هو من سيتزوجه ولست أنا.

لم يساورني أيّ شعور نظراً لاقتراب موعد الزفاف. وكانت لا تزال تلفني تلك الغيمة الرماديّة التي أتت بمارتين، كان مارتين شيئاً جافاً ومجرّداً، يحرّك ذراعيه كلما تحدّث، ويزرّر ثم يفتح أزرار سترته الأربعة.

تناول معنا طعام الغذاء يوم الأحد ، ورتبّت زوجة أبي الأماكن على المائدة بطريقة جعلت مارتين مجاوراً لأبي وبعيداً عنّي بثلاثة أماكن. لم نتحدّث أنا وزوجة أبي إلاّ نادراً أثناء الطعام، وتحدّث مارتين وأبي عن شؤون أعمالها. كنت وأنا جالسة على بعد ثلاثة كراسي من مارتين، أتفحّص ذلك الرجل الذي سيكون والداً لطفلي بعد سنة والذي لم تكن تربطني حتى صلة صداقة سطحيّة.

جرّبت ثوب الزفاف ليلة الأحد في غرفة زوجة أبي. كنت أظهر شاحبة ونظيفة في المرآة تلفّني مسحة من مسحوق ذكّرني بشبح والدتي.

قلت لنفسي أمام المرآة: "هذه أنا ايزابيل أرتدي ثياباً مثل عروس ستتزوّج صباح الغد." لم أتعرّف على نفسي، فقد شعرت بثقل الذكريات التي تربطني بأمّي الميتة. حدّثتني ميم عنها في هذه الزاوية من الغرفة بالذات منذ عدّة أيام. أخبرتني أنّهم ألبسوا أمّي ثوب زفافها بعد ولادتي ثم وضعوها في التابوت. والآن وبينما أنظر إلى نفسي في المرآة لا أرى سوى عظام والدتي يغطّيها تراب القبر، فهي ليست إلا كومة متجعّدة من كفن وتراب متراكم.

كنت أنا خارج المرآة، بينما كانت أمّي داخلها وقد عادت إلى الحياة مرّة ثانية. كانت تنظر إليّ وتمدّ ذراعيها من فضائها المتجمّد في محاولة كي تلمس الموت الذي علقت أطرافه الدبابيس الأولى لنقاب ثوب زفافي. بدا والدي من ورائي في منتصف غرفة النوم رصيناً ومحتاراً وهو يقول: "إنّها تبدو مثلها تماماً في هذا الثوب."

استلمت في تلك الليلة رسالة الحبّ الأولى والوحيدة والأخيرة. كانت رسالة من مارتين كتبها بقلم رصاص على ظهر برنامج سينمائيّ يقول فيها: "بما أنّه من المستحيل بالنسبة إليّ أن أصل في الوقت المناسب هذه الليلة، سأذهب لأعترف في الصباح. أخبرني الكولونيل أنّ الأمر الذي تحدثنا عنه قد سوّي تقريباً ولهذا السبب لا أستطيع القدوم الآن. هل أنت خائفة؟" قصدت غرفة نومي بذلك المذاق المتبلّد التافه للرسالة في فمي، وعندما استيقظت بعد بضع ساعات حين أيقظتني زوجة أبي كان لا يزال طعم المرارة في سقف حلقي.

بالفعل مرّت عدة ساعات قبل أن أصحو تماماً. شعرت مجدّداً وأنا في ثوب زفافي وكأنّي في فجر بارد ورطب يعبق بعبير المسك. كان فمي جافاً وكأنّني شخص ينطلق في رحلة ولم يتمكّن من تبليل ريقه بلعابه. استقرّت جماعة العرس منذ الساعة الرابعة في غرفة الاستقبال. كنت أعرفهم جميعهم ولكنهم بدوا لي الآن بحلّةٍ جديدة فقد تغيّرت أشكالهم. كان الرجال يرتدون بدلات مخيطة في نسيج صوفيّ خشن والنسوة يعتمرن قبعاتهم، وكان الجميع يتحدثون ويملؤون البيت بأنفاس كلامهم الكثيفة والواهنة.

كانت الكنيسة فارغة، ما عدا بضعة نساء التفتن لينظرن إليّ بينما كنت أتقدم نحو محراب الكنيسة مثل أضحية صغيرة السنّ في طريقها إلى صخرة المذبح. بدا الكاهن الهزيل الجاد الشخص الوحيد الذي كان على صلة بالواقع في ذلك الكابوس الصامت المضطرب. نزل درجات

المحراب وسلّمني لمارتين بحركات أربع من يديه الهزيلتين. كان مارتين مبتسماً وهادئاً وهو يقف إلى جواري تماماً مثلما كان يبدو حين رأيته أثناء سهرنا على جثّة الطفل بالوكويماد، لكنه يرتدي الآن ياقة قصيرة، وكأنه يريد أن يبيّن لي أنّه حتى في يوم زفافه كان يحاول جاهداً كي يبدو أكثر غموضاً مما كان يبدو عليه سابقاً في الأيام العاديّة.

بعد أن عدنا إلى المنزل ذلك الصباح، وبعد أن تناول المدعوون طعام الفطور، وقدّموا لنا التهاني بالعبارات المعهودة، خرج زوجي ولم يعد حتى وقت القيلولة. لم يظهر أنّ والدي وزوجته قد لاحظا وضعي، فقد تركا اليوم يمرّ دون أن يغيّرا شيئاً من مسار الأمور على نحو لا يدعان مجالاً للشعور بالأجواء الغريبة في ذلك الاثنين. خلعت ثوب زفافي، ولففته في صرّة، ووضعته في الجزء السفلي من الدولاب، وأنا أتذكّر أمي وأقول في نفسي: "على الأقل تصلح هذه الخرق لتكون كفناً لي."

عاد العريس الوهمي عند الثانية عصراً وقال: إنه قد تناول طعامه. بدا لي بينما رحت أراقبه، وهو يتقدّم بشعره القصير أنّ كانون الأول لم يعد شهراً أزرق اللون بعد اليوم.

جلس مارتين بجواري وبقينا صامتين للحظة. وللمرّة الأولى في حياتي كنت خائفة أن يحلّ الليل. لا بد أنّ هذا التعبير لاح على وجهي لأنّ مارتين بدا فجأة وكأنّه عاد إلى الحياة فمال على كتفي وسألني: "بماذا تفكرين؟". شعرت بشيء يتلوّى في داخلي، فقد بدأ الغريب يخاطبني بطريقة مألوفة. نظرت عالياً حيث كان كانون الأوّل يبدو مثل كرة

لامعة عملاقة وشهراً زجاجياً وهّاجاً، وقلت: "كنت أفكر أنّ كلّ ما ينقصنا الآن هو أن تمطر السماء."

في الليلة الأخيرة التي تكلمّنا فيها على الشرفة كان الجو أشدّ حرارة من المعتاد. وبعد أيام قليلة عاد من دكّان الحلاّق للمرّة الأخيرة، وأغلق الباب على نفسه في غرفته. لكن في تلك الليلة الأخيرة على الشرفة والتي كانت ليلة من أحرّ الليالي التي أتذكّرها في حياتي وأثقلها، بدا مارتين متفهّماً وهو أمر نادراً ما حدث له. كان الشيء الوحيد الذي بدا حيّاً وسط ذلك الفرن الهائل هو رجع الصدى المكتوم والكئيب الذي تصدره الصراصير، وقد أيقظها عطش الطبيعة والنشاط الضئيل وغير الملحوظ الذي لا حدود له لشجيرة إكليل الجبل والناردين، فيفوح شذاهما في منتصف الساعة المهجورة. بقي كلانا صامتاً للحظة ننضح بتلك المادة اللزجة والخبيثة التي لم تكن عرقاً وإنّما لعاباً سائلاً للمادة الحيّة المتفسّخة. كان ينظر أحياناً إلى النجوم في سماء لا حياة فيها بسبب وهج الصيف، ثم يحافظ على صمته وكأنّه يسلّم نفسه تماماً إلى ذلك الليل حتى ينقضي بما فيه من حيويّة متوحشة. كنا حالمين، ونحن نواجه أحدنا الآخر: هو في كرسيّه الجلديّ وأنا في الكرسيّ الهزّاز. رايته يمرّ براسه الحزين والمتوحّد على كتفه اليساريّ، ولدى مرور جناح أبيض فكّرت بحياته ووحدته واضطراباته النفسية المخيفة. وفكّرت بتلك اللا مبالاة المليئة ألماً التي كان يراقب مشاهد الحياة من خلالها. كنت أشعر سابقاً وكأنّني أنجذب إليه انطلاقاً من مشاعر معقّدة متناقضة ومتنوّعة تشبه

شخصيّته. لكن في تلك اللحظة لم يساورني أدنى شك أنّني بدأت اشعر نحوه بحبّ عميق.

فكّرت في أعماق نفسي بأنني أزحت اللثام عن تلك القوّة الغامضة التي قادتني نحوه منذ اللحظة الأولى لأبسط حمايتي عليه، وشعرت بمعاناة غرفته المظلمة والعفنة التي كانت مثل عينيه الصفراوين القاسيتين والنفّاذتين، شعرت وبيقين تام، أنّ إيقاع الليل المتوتر قد فسّر لي سرّ عزلته المعقّدة، وقبل أن يتسنّى لي الوقت لأراجع نفسي عما كان يدفعني إلى عمل ذلك، سألته:

"قل لي ايّها الطبيب؛ هل تؤمن باللّه؟"

نظر إليّ، وقد نزل شعره على جبينه وشعر باختناق يحرقه من الداخل، لكن لم يظهر على وجهه أيّ أثر لانفعال أو ضيق. قال لي بعد أن استعاد صوته الشحيح المجترّ:

"إنّها المرة الأولى التي يسألني فيها أحد هذا السؤال"

قلت: "وماذا عنك أيّها الطبيب، هل سألت أحداً هذا السؤال؟"

لم يُبدِ اهتماماً أو لا مبالاة بل بدا مهتمّاً فقط بشخصي لا بسؤالي ولا حتى بقصدي. أجاب: "من الصعب أن أجيب عن سؤال كهذا."

"لكن ألا تخيفك ليلة كهذه؟. ألا تشعر أنّ هناك إنساناً أكبر منا جميعاً يتجوّل في المزارع في الوقت الذي تخلد فيه الأشياء كلّها للسكون، وتأخذها الحيرة عند مروره؟

اعتراه الصمت للحظة. كانت الصراصير تنتشر في المكان من حولنا بسبب الرائحة الدافئة التي كانت حيّة وإنسانيّة تقريباً والتي كانت تنبعث من عرائش الياسمين التي كنت قد زرعتها إحياء لذكرى زوجتي الأولى.

لا أعتقد أنّ شيئاً كهذا يزعجني في الحقيقة أيّها الكولونيل." بدا الآن مستغرقاً في حيرته مثل بقية الأشياء، مثل إكليل الجبل والناردين في مكانهما ذي الحرارة المحرقة. قال: "ما يزعجني..." وتابع النظر في عينيّ على نحو مباشر ورزين: "ما يزعجني أنّ هناك شخصاً مثلك قادر على التصريح وبيقين أنّه يعرف ذلك الرجل الذي يتجوّل في الليل."

قلت: "الفرق بيننا أنّنا نحاول أن ننقذ أرواحنا"

تجاوزت ما كنت أرمي إليه وقلت: "إنك لا تسمعه لأنّك ملحد."

أجابني برصانة ودون أن يخالجه أيّ اضطراب:

"صدقني أيّها الكولونيل، إنّني أشعر بالاضطراب عندما أفكّر أن الله موجود تماماً كما أشعر بالاضطراب عندما أفكّر أنه غير موجود. لذلك كان من الأفضل لي أن لا أفكّر بالأمر."

لا أعرف السبب، ولكنّني شعرت بأنّ هذا الجواب هو ما توقعته منه. قلت في نفسي: "إنه إنسان يثير الاضطراب في نفسه موضوع التفكير في الله، وكنت أصغي إلى ما كان يخبرني به بعفوية ووضوح ودقّة، وكأنّه كان يقرأ الجواب في كتاب.

كنت ما أزال منتشياً بخمول الليل، وشعرت أنّني وسط معرض هائل من الصور التنبؤية.

على الجانب الآخر من السياج تقع الحديقة الصغيرة حيث زرعت إديلايدا وابنتي بعض النباتات، وكان يفوح عبير إكليل الجبل، لأنهما كانتا تعتنيان به كل صباح، فينبعث منه عبر المنزل في مثل هذه الليالي بخار ساخن، فيجعل النوم أكثر راحة. كانت شجرة الياسمين ترسل عبيرها الأخّاذ الذي كنّا نتلقاه لأنه بنفس عمر ايزابيل، وبطريقة ما كانت الرائحة استمراراً لحياة والدتها. وكانت الصراصير تختفي في شجيرات باحة الدار لأنّنا أهملنا تنظيفها من الحشائش بعد أن توقّف هطول المطر. الأمر الوحيد الذي كان لا يُصدّق وأشبه بمعجزة هو أنّه كان موجوداً هناك بمنديله الرخيص الكبير يمسح به جبينه الذي تلألأت عليه حبّات العرق.

قال لي بعد برهة أخرى من الصمت:

"أريد أن أعرف ما الذي دفعك أن تسألني سؤالاً كهذا أيّها الكولونيل."

قلت: "لقد خطر لي فجأة، ربما أردت أن أعرف بعد سبع سنوات ما يفكّر به رجلٌ مثلك."

كنت أمسح جبيني وأقول:

"ربما بدافع القلق على وحدتك." انتظرت جواباً لم أسمعه وبقيت أراقبه وهو جالسٌ قبالتي، وما يزال حزيناً ووحيداً." فكّرت بماكوندو وجنون أهلها والأوراق الماليّة التي كانت تحرق في الحفلات. فكّرت بعاصفة

الأوراق التي لم تعرف اتجاهاً واحداً وفاقت كلّ شيء، وكانت تتمرّغ في أوحال الغريزة والملذّات حيث وجدت المذاق الذي ترغب به.

فكّرت بحياته قبل أن ترتطم بها عاصفة الأوراق وحياته فيما بعد. فكّرت بعطره البخس الثمن وبحذائه القديم البالي وبالإشاعة التي رافقته كظلّه والتي تجاهلها بنفسه.

سألته: "أيها الطبيب هل فكّرت أن تتّخذ لنفسك زوجة؟"

وقبل أن أنهي سؤالي كان يجيبني مبتدئاً بإحدى متاهاته الطويلة المعتادة:

"إنّك تحبّ ابنتك كثيراً من دون شكّ أليس كذلك أيّها الكولونيل."

فأجبته: إنّ ذلك شيء طبيعيّ، وتابع كلامه قائلاً:

"حسنٌ، ولكنّك تبدو مختلفاً فلا أحد يحبّ أن ينجز أعماله بنفسه أكثر منك."

فقد رأيتك تركّب مفصّلة لباب، بينما يوجد الكثير من الرجال في خدمتك وبإمكانهم أن يقوموا بذلك بدلاً عنك. أعتقد أنّ سعادتك تكمن بأن تتجوّل في أرجاء المنزل، وأنت تحمل صندوق العدّة وتبحث عن شيء لإصلاحه حتى إنّك قد تتقدّم بالشكر لمن كسر مفصّلة يا كولونيل. إنّك تشكره لأنّه أتاح لك الفرصة لتشعر بالسعادة."

أجبته: "إنّها عادة" دون أن أدرك مقصده. "لقد قالوا لي: إنّ والدتي كانت هكذا أيضاً."

أظهر ردّة فعل، لكن وضعه كان هادئاً، وإن اتّسم بشيء من الصرامة. قال:

"جيّد. إنّها عادة طيّبة. بالإضافة إلى هذا إنّها من أرخص أنواع السعادة التي أعرفها. لهذا السبب أتيح لك أن تملك بيتاً كهذا وتربّي ابنتك على طريقتك. أقول: إنّه لأمر حسن أن تكون لديك ابنة كابنتك."

كنت لآ أزال أجهل ما يرمي إليه بعملية المراوغة التي يقوم بها. وبالرغم من أنّني لم أدرك قصده سألته:

"ماذا عنك أيّها الطبيب؟ ألم تفكّر أبداً كم هو رائع أن تكون لك ابنة؟"

قال: "ليس أنا أيّها الكولونيل." وابتسم ثم عاد إلى رصانته في الحال وأضاف: " لن يكون أولادي مثل أولادك."

حينئذٍ لم يساورني أدنى شكّ في أنّه كان يتحدّث بمنتهى الجدّ وأنّ تلك الرصانة وذلك الوقار يبعث الخوف في نفسي. فكّرت: إنّه يستحق الشفقة من أجل هذا فقط أكثر من أيّ شيء آخر. فكّرت أنّه بحاجة إلى حماية من نوع ما.

سألته: "هل سمعت بالكاهن؟"

أجاب بالنفي فأخبرته: "إنّه كاهن الأبرشيّة وأكثر من هذا فهو صديق للجميع. عليك أن تتعرّفه."

أجاب: "نعم، نعم. لديه أولاد أيضاً. أليس كذلك؟"

فقلت: "ليس هذا ما يهمّني الآن، فالناس تروّج عنه بعض الشائعات لأنّهم يكنّون له الحبّ. لكن هناك قضية هامة هنا أيّها الطبيب، فالكاهن بعيد كلّ البعد عن أن يكون من عبدة الصلاة أو أحد المتظاهرين بالتقوى كما تقول. إنّه رجل كامل يقوم بواجباته على أكمل وجه."

كان صامتاً يستمع بانتباه، ويصغي باهتمام، وقد ثبّت عينيه القاسيتين الصفراوين عليّ ثم قال:

"هذا جيد."

قلت: "أعتقد أنّ الكاهن سيصبح قدّيساً ذات يوم" وكنت صادقاً في هذا أيضاً. لم نر له مثيلاً في ماكوندو. ولم يثق الناس به في البدء لأنّه يمتّ بأصله إلى هذه المنطقة لأنّ المسنّين تذكّروه عندما كان يخرج لصيد الطيور مثل كل الصبية.

لقد اشترك في الحرب أو كان كولونيلاً وتلك كانت المشكلة. تعرف كيف هم الناس، وكيف لا يظهرون احتراماً للمحاربين القدماء ولا لرجال الدين. بالإضافة إلى هذا لم نكن معتادين أن يقرأ لنا أحدهم شيئاً من تقويم بريستول عوضاً عن الإنجيل."

ابتسم. لا بدّ أنّ هذا الأمر بدا غريباً له تماماً كما بدا بالنسبة إلينا في الأيام الأولى وقال: "يبدو هذا غريباً". أليس كذلك؟"

هكذا كان الكاهن، فهو يحبّ أن يشرح للناس بالاعتماد على الظواهر المناخيّة. ويكاد يكون اهتمامه بالعواصف اهتماماً لاهوتيّاً. تراه

يتحدّث عن العواصف كلّ يوم أحد لذلك لا يستمدّ مواعظه من الإنجيل، بل من التنبّؤات الجويّة الواردة في تقويم بريستول.

كان يبتسم الآن، يصغي، وتبدو على وجهه أمارات الحيويّة والبهجة. شعرت أنا أيضاً بالحماس، وقلت: "هناك أمر آخر قد يثير اهتمامك أيّها الطبيب. هل تعلم كم مضى على وجود الكاهن في ماكوندو؟"

فأجاب: "لا."

قلت: "صادف أنّه وصل في اليوم نفسه الذي وصلت أنت فيه إلى ماكوندو. والشيء الأكثر غرابة أنّه كان لك شقيق يكبرك سنّاً، فإنّني متأكّد من أنّه سيكون تمام الشبه بالكاهن، وأقصد من الناحية الجسديّة طبعاً."

لم يبد عليه أنّه يفكر بشيء آخر الآن. جعلتني رصانته وانتباهه اليقظ والثابت أشعر بأنّ الفرصة قد حانت لأخبره باقتراحي وعندها قلت: "حسنٌ إذاً أيّها الطبيب، قم بزيارة الكاهن، وستجد أنّ الأمور ليس كما تراها."

وأجاب بالموافقة على أنّه سيزور الكاهن.

IX

كـان الصـدأ يعتلـي القفـل باضـطراد وصـمت وبـرود. ذلـك القفـل الـذي وضعته إديلايدا على باب الغرفة عندما اكتشفت أنّ الطبيب ذهب ليعيش مع ميم. عدّت زوجتي تلك الحركة بمثابة نصر لها وذروة تكلّل بها عمل منظم عنيد باشرت به منذ اللحظة الأولى التي تقرّر فيها أنّه سيعيش معنا. وبه مرور سبعة عشر عاماً كان ما يزال القفل يحرس الغرفة.

وإذا كان هناك شيء ما في موقفي الذي لم يتغيّر طيلة ثماني سنوات والذي بدا معيباً في نظر البشر وجاحداً في نظر الله فإنّ العقاب أصابني قبل موتي بوقت طويل.

ربما كان مقدّراً لي أن أكفّر في حياتي عما عددته التزاماً بشريّاً وواجباً مسيحيّاً لأنّ الصدأ لم يبدأ بالتشكّل على القفل عندما كان مارتين في منزلي يحمل حقيبته الملأى برغبة ثابتة بالزواج من ابنتي وبالمشاريع التي لم أكن قادراً على معرفة مدى صحتها. جاء إلى منزلي بسترته ذات الأزرار الأربعة ينضح بالشباب والحيوية، ويحيط به جوّ زاهٍ من البهجة. تزوّج من إيزابيل في كانون الأوّل منذ أحد عشر عاماً. مرّت تسع سنوات منذ أن غادرنا بحقيبة مملوءة بالأوراق التي وقّعتها له بعد أن قطع

وعداً بالعودة حالما ينهي الصفقة التي كان ينوي أن يقوم بها، والتي حصل على دعمي الماديّ من أجلها. مرّت تسع سنوات على ذلك، وما زلت لا أملك الحقّ في اعتباره محتالاً. ولم يكن لي الحق بالاعتقاد أنّ زواجه من ابنتي كان مجرّد ذريعة ليقنعني بها بنواياه الحسنة.

لكنّ التجربة التي دامت ثماني سنوات لم تكن عديمة الفائدة. كان من الممكن أن يشغل مارتين الغرفة الصغيرة، لكن إديلايدا عارضت لفكرة، وكانت معارضتها عنيدة وحاسمة، ولا رجعة فيها. أيقنت أن زوجتي ما كانت لتردّد أبداً في أن تجعل من الإسطبل غرفة للعروسين الجديدين على أن تسمح لهما بأن يشغلا الغرفة الصغيرة. قبلت وجهة نظرها دون تردّد. وكان هذا اعترافاً مني بنصرها ذلك النصر الذي كان مؤجّلاً لثماني سنوات. أخطأ كلانا بوضع ثقتنا بمارتين. كان خطأً مشتركاً فيما بيننا ولم يكن نصراً أو هزيمة لأيّ منا. ومع ذلك ما حدث فيما بعد كان فوق طاقتنا. لقد كان مثل الظواهر المناخيّة والتنبّؤات الجويّة التي لا بدّ وأن تحدث لا محالة.

عندما طلبت من ميم مغادرة منزلي لتعيش وفقاً للنهج الذي فضّلته لحياتها كنت لا أزال قادراً على التمرّد وفرض إرادتي على كل ما أريد (وهذا ما كنت أقوم به دائماً.)

وكنت ما أزال قادراً على ترتيب الأمور بالطريقة التي تحلو لي، بالرغم من أنّ إديلايدا اتّهمتني فيما بعد بالحماقة والضعف، لكن أخبرني أحدهم أنّه لم تكن لي حول ولا قوة أمام المنحى الذي كانت

تتّخذه الأحداث فلست أنا من نظّم الأمور في منزلي ولكن قوّة أخرى غامضة، قوّة تحكّمت بمسار وجودنا، ولم نكن لها سوى أدوات تافهة طيّعة. بدا وكأنّ كل شيء كان يحدث وفقاً لنبوءة تتحقق بصورة طبيعية.

وبما أنّ ميم كانت قادرة على فتح الدكّان (إذ أنّ الجميع لا بدّ أنّهم أدركوا أنّ امرأة مجدّة مثلها أصبحت عشيقة طبيب ريفيّ بين ليلة وضحاها ستنتهي عاجلاً أم آجلاً لصاحبة دكّان). تأكّدت أنّ الطبيب كان قد جمع مبلغاً من المال أكبر مما يتخيّله المرء وأنّه احتفظ به في غرفته، فقد جمع فواتير ومبالغ لا تحصى كان يدسّ بها في درج مكتبه عندما كان يفحص المرضى.

حين فتحت ميم الدكّان كان من المفروض أن يكون الطبيب حبيساً في مؤخّرة الدكّان استناداً إلى تنبّؤات شرّيرة وحقودة لا يعلم بها إلاّ اللّه. وكان معروفاً حينها أنّه لا يأكل أيّ طعام خارج البيت وأنّه زرع حديقة في المنزل، أمّا ميم فكانت تشتري اللحم لنفسها في الأشهر الأولى. لكن توقفت عن ذلك بعد مرور سنة، ربما لأنّ علاقتها المباشرة بذلك الرجل جعل منها إنساناً نباتياً. ثم انعزل الاثنان عن العالم إلى أن حان ذلك الوقت الذي كسرت فيه السلطات الباب وفتّشوا المنزل وحفروا الحديقة في محاولة لإيجاد جثّة ميم.

تخيّله الناس هناك حبيس غرفته يتأرجح في أرجوحته القديمة المهترئة. وأدركت أنّ عزلته التي لا يشوبها أيّ ندم ومعركته الصامتة ضد وعيد

الله ستصل ذروتها قبل موته بوقت طويل. أدركت أنه سيخرج إلى الناس عاجلاً أو آجلاً، لأنّه ما من إنسان حي يمكنه أن يعيش نصف عمره وهو حبيس بعيد عن الله، دون أن يأتي فجأة إلى العالم لينقل لأوّل إنسان يصادفه على الناصية وصفاً لحساب متراكم وأدوات التعذيب، وعذابات الماء والنار، وتعذيب الحامل الحديديّ والإسفين، والخشب والحديد الحامي على عينيه، والملح الذي لا يزول عن لسانه، وحصان التعذيب، والجلد بالسياط، والضرب بالقضبان، وكلّ الحب الذي لن يجعله يذعن لمضطهديه، وسيحين ذلك الوقت قبل موته ببضع سنين.

عرفت تلك الحقيقة منذ الليلة الأخيرة التي تكلمنا فيها على الشرفة وفيما بعد عندما ذهبت لأحضره من الغرفة الصغيرة ليقوم بمعالجة ميم. هل كان باستطاعتي أن أعارض رغبته بالعيش معها كزوج وزوجة؟ ربما كان ذلك بوسعي قبل هذا الوقت، لكن ليس الآن لأنّ يد القدر كانت تكتب فصلاً آخر ينبغي أن يتحقق قبل أن تمرّ عليه ثلاثة أشهر.

تلك الليلة لم يكن في أرجوحته. كان مستلقياً على ظهره على سريره، وقد مال برأسه إلى الخلف، ركّز بصره على بقعة على الجدار حيث كان الضوء المنبعث من الشمعة أكثر توهّجاً. كان في الغرفة نور كهربائيّ ولكنه لم يستعمله أبداً بل فضّل أن يستلقي في الظل وقد ركّز بصره على الظلام. لم يأتِ بحركة عندما دخلت الغرفة ولكنني لاحظت أنه لم يكن بمفرده في اللحظة التي عبرت فيها العتبة. ثم قلت: "لا أريد إزعاجك أيّها الطبيب، لكن يبدو أنّ الفتاة الهنديّة ليست على ما

يرام." جلس على السرير، فقد شعر قبل لحظة واحدة أنّه ليس لوحده في الغرفة، وها هو يدرك الآن أنّني أنا من دخلت عليه، فقد ساوره شعوران مختلفان دون شكّ بخصوص ما طرأ عليه من تغيير مفاجيء، فقد مسح شعره، وبقي جالساً على طرف السرير ينتظر.

قلت: "إنّها إديلايدا، فهي تريدك أن تلقي نظرة على ميم."

فبدا، وكأنّه يجيبني من مكانه هناك بصوته الشحيح المجترّ:

"ليس هذا ضرورياً." في الحقيقة إنّها حامل."

ثم انحنى نحو الأمام، وبدا، كأنّه يتفحّص وجهي وقال:

"منذ سنوات وميم تنام معي."

عليّ أن أعترف أنّني شعرت بالدهشة لا بالانزعاج ولا بالحيرة أو الغضب. لم يساورني أيّ شعور. ربما كان اعترافه رصيناً جداً بالنسبة لطريقة رؤيتي للأمور، وكان خارج نطاق استيعابي. بقيت هادئاً ولم أعرف حتى السبب فقد كنت ساكناً واقفاً ثابتاً مثل صوته الشحيح المجترّ وبارداً مثله تماماً. ثم فهمت وبعد فترة طويلة من الصمت، كان خلالها لا يزال جالساً على سريره دون أن يأتي بحركة وكأنّه ينتظرني أن أقوم بالخطوة الأولى. فهمت ما أخبرني لتوّه به بكلّ ما فيه من خطورة. لكن عندها كان الأوان قد فات لأشعر بالانزعاج.

"حسنٌ طالما أنّك على علم بالأمر."

كان هذا كلّ ما استطعت قوله. أجاب:

"لكنّ الإنسان يأخذ احتياطاته يا كولونيل: عندما يقوم الإنسان بمجازفة فإنّه يعرف أنّها مجازفة، وعندما يحدث خطأ ما يكون مصدره شيئاً ما لم يتوقّعه، شيئاً خارجاً عن قدرته."

كنت أعرف مثل هذه الأعذار، وكالعادة لم أعرف قصده. جلبت كرسيّاً وجلست قبالته وعندها ترك السرير وشدّ حزامه، ورفع سراويله وعدّل وضعه. تابع حديثه وهو في الجانب الآخر من الغرفة قائلاً:

"إنّ حقيقة كوني قد أخذت احتياطاتي هي بمثابة حقيقة كونها حاملاً للمرّة الثانية. فالمرة الأولى كانت منذ عام ونصف، ولم تلاحظوا أنتم أيّ شيء".

تابع حديثه دون انفعال، وقد عاد إلى السرير، وفي الظلام سمعت صوت خطواته الثابتة البطيئة على القرميد. قال:

"لكنّها حينذاك كانت على استعداد للقيام بأيّ شيء وليس الآن. منذ شهرين أخبرتني أنّها حامل مرة ثانية، فأعدْتُ عليها ما سبق لي أن قلته في المرّة الأولى" تعالي الليلة واستعدّي للأمر نفسه، فقالت: إنّها لن تستطيع القدوم في الليلة نفسها، بل في الليلة التالية. أخبرتها عندما قصدت المطبخ لأشرب قهوتي أنّني سأكون في انتظارها، لكنّها قالت: "إنّها لن تأتي أبداً."

اقترب من السرير الصغير دون أن يجلس عليه ثم أدار لي ظهره مرّة أخرى، فأخذ يتجوّل في أنحاء الغرفة من جديد. سمعته يتحدث، وسمعت انسياب صوته، رائحاً غادياً، وكأنّه يتأرجح في أرجوحته. كان يسرد الأمور بهدوء وتصميم، فأدركت أنّه من العبث أن أقاطعه، وكلّ ما

استطعت القيام به هو الإصغاء له فاستمرّ بالحديث:

"ومع ذلك جاءت بعد يومين وكنت قد أعددت لها كلّ شيء. قلت لها أن تجلس هناك وذهبت إلى الطاولة لأحضر الكأس. وعندما طلبت منها أن تشربه أدركت هذه المرّة أنّها لن تقوم بما أمرتها به. نظرت إليّ دون أن تبتسم، وقالت بشيء من القسوة: "لن أتخلّص من هذا الطفل يا دكتور سأُبقي على حياته وسأربّيه بنفسي."

جعلني هدوءه أشعر بالسخط فأخبرته:

"إنّ هذا لا يبرّر شيئاً على الإطلاق يا دكتور. فالأمر الذي ارتكبته سّيء مرتّين، مرّة بسبب علاقاتك بها داخل منزلي، ومرّة أخرى بسبب الإجهاض."

"لكنّك تستطيع أن ترى أنّني بذلت ما بوسعي يا كولونيل. هذا جلّ طاقتي. وفيما بعد عندما رأيت أنّه ما من مهرب كنت مستعدّاً للتحدّث معك في هذه الأيام."

قلت له: "أعتقد أنّك تعرف أنّ هناك طريقة للخروج من هذا المأزق إن كنت راغباً حقّاً في إصلاح هذه الإساءة. فأنت تعرف مبادئنا نحن سكّان هذا المنزل."

فأجابني:

"لم أرغب في أن أتسبّب لك بأيّة مشكلة يا كولونيل، صدقّني. كنت أريد أن أقول لك:

سآخذ المرأة الهنديّة لنعيش في ذلك المنزل الفارغ الذي يقع على الزاوية،

فسألته: "أتعني العيش معها علانية؟ أتعرف ما معنى ذلك بالنسبة لنا؟"

عاد إلى سريره وجلس هناك، وانحنى نحو الأمام وتابع حديثه، وهو يضع مرفقيه على ساقيه. بدت نبرة صوته مختلفة فقد كانت باردة في بداية الحديث ولكنّها الآن أخذت تزداد قساوة وتحدياً. أردف قائلاً:

"ما أقترحه هو الحلّ الوحيد الذي لن يسبّب لكم أيّ إزعاج يا كولونيل. أمّا الحلّ الآخر فهو أن أصرّح بأنّ الطفل ليس طفلي."

فقلت: "لكّن ميم ستؤكد أنّه طفلك." بدأ يتملّكني الغضب، فالطريقة التي كان يعبّر بها عن نفسه لا تخلو من التحدي والعدوانية، ولم أستطع أن أتقبّلها بهدوء.

لكنّه واصل حديثه بقسوة وعناد:

"عليك أن تثق تماماً بكلامي عندما أؤكّد أنّ ميم لن تقول أنّه طفلي. ولأنّني متأكّد من هذا تماماً أقول لك: إنّني سآخذها لنعيش عند ناصية الشارع فبهذه الطريقة فقط أجنبّك الإزعاج. هذا هو الدافع الوحيد يا كولونيل."

كان متأكداً تماماً أنّ ميم لن تعزو إليه أبوّة طفلها، فبدأت أشعر بالقلق. شيء ما فيه جعلني أعتقد أنّ قوته كانت مترسّخة بعمق أكثر من كلماته. قلت له:

"إنّنا نثق بميم كما لو أنّها ابنتنا. في هذه الحالة ستكون إلى جانبنا."

"لو كنت تعرف ما أعرفه لما قلت شيئاً كهذا يا كولونيل. اغفر لي قولي ولكنّك عندما تقارن تلك الفتاة الهندية بابنتك فإنّك تسبّب الإهانة لابنتك."

قلت: "لا أجد مبرّراً يدفعك إلى هذا القول."

فأجاب، وصوته يطفح بتلك القسوة المريرة:

"لديّ المبرّر الكافي لذلك. وعندما أقول لك: إنها لا تستطيع أن تقول: إنّني والد طفلها، فلديّ أسبابي الخاصة."

ألقى برأسه إلى الخلف، وأطلق حسرة عميقة قائلاً:

"لو كان لديك الوقت لتراقب ميم عندما تخرج من البيت ليلاً لما طالبت بأن آخذها معي، لأنّني أنا في هذه الحالة من يخوض المخاطر يا كولونيل، فأنا أجازف بنفسي كي أجنّبك أيّ إزعاج."

عندها أيقنت أنّه لن يصطحب ميم ولا حتى إلى باب الكنيسة. لكنّ الخطير في الأمر أنّني بعد كلماته الأخيرة لم أجرؤ على إعادة النظر بما لاح لي كعبءٍ هائل لن يتحمّله ضميري بعدئذٍ. كانت هناك عدّة أوراق لمصلحتي، ولكنّ الورقة الوحيدة التي كانت بيده كانت كافية له ليربح رهاناً ضد ضميري.

قلت له: "حسنٌ يا دكتور. في هذه الليلة بالذات سأقوم بالترتيبات اللازمة لأجعل البيت عند ناصية الشارع جاهزاً للاستعمال. لكن في جميع الأحوال أريدك أن تعلم بأنّك مطرود من منزلي وأنّك لا تغادره بمحض إرادتك. واعلم أنّ الكولونيل أورليانو بويندیا قادر على جعلك تدفع ثمن خيانتك لثقته."

وحين اعتقدت أنّني استثرت كلّ غرائزه، وانتظرت أن يطلق العنان لقواه البدائيّة الشرّيرة فإذا به يلقي بعبء كرامته كلّها عليّ. قال:

"إنّك رجل محترم يا كولونيل، والجميع يعرف هذا، وقد عشت في هذا المنزل زمناً يكفيني أن أعرف ذلك من دون أن تذكّرني به."

لم يبد مثل منتصر حين نهض، بل بدا كأنّه يشعر بالرضى لأنّه استطاع أن يسدّد إلينا دين الرعاية التي شملناه بها طيلة ثماني سنوات. وكنت أنا من أخذ يشعر بالقلق، فقد كنت على خطأ. تلك الليلة فهمت أنّ موقفي كان يتّسم بالأنانية عندما رأيت بذور الموت، وهي تزداد وضوحاً في عينيه القاسيتين الصفراوين، وفهمت أنّه، وبسبب تلك اللطخة الوحيدة في ضميري كان من العدل أن أعاني من شعور فظيع بالذنب بقية عمري. أما هو فقد شعر بالارتياح وقال لي:

"بالنسبة لميم دعهم يفركونها بالكحول دون أن يعطوها أيّ دواء."

X

عـاد جـدّي وجلـس بجانـب أمـي الـتي كانـت مسـتغرقة تمامـاً في أفكارها، فقد كان الثوب والقبّعة على الكرسي، غير أنّ أمي لم تعد فيها. ويقترب جدّي منها أكثر فأكثر فيلاحظ ذهولها ويحـرّك خيزرانتـه أمامها قائلاً: "استيقظي يا ابنتي." تنظر أمي مذعورة وتهزّ رأسها. يسألها جـدّي: "بمـاذا كنـت تفكّـرين؟" فتبتسـم بمشـقّة كـبيرة قائلـة: "كنـت أفكّر بالكاهن."

يجلس جدي بجانبها مرّة أخرى ويريح ذقنه على خيزرانته، ويقول: "يا لها من مصادفة! أنا أيضاً كنت أفكّر به."

فهم كلّ منهما كلمات الآخر. كانا يتحدّثان دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر فقد كانت أمّي تريح ظهرها على كرسيّها، وكان جدّي يجلس إلى جانبها، وذقنه على خيزرانتها، لكن حتى في هذا الوضع فإنّ كلاً منهما كانا يفهمان أحدهما الآخر مثلما كنّا أنا وإبراهام نفهم أحدنا الآخر عندما نذهب لرؤية لوكريسيا.

وأقول لإبراهام: "بدأت أتململ الآن" يمشي إبراهام في المقدّمة دائماً

على بعد ثلاث خطوات منّي، من دون أن يلتفت لينظر يقول: " ليس الآن بعد قليل، " فأقول له: "عندما أتململ أشعر بجنّي يقفز في داخلي" فلا يستدير إبراهام ولكنّي أستطيع أن أسمعه يضحك بنعومة ضحكة حمقاء وبسيطة مثل خيط ماء ينزل مرتعشاً من أنف ثور عندما ينتهي من الشراب ويقول: "لا بدّ أنّ الساعة حوالي الخامسة الآن." فيركض قليلاً ويتابع: "إذا ذهبنا الآن قد يطلع علينا الجنيّ، " فقلت بإصرار: "على كلّ الأحوال فأنت دائماً تتململ." ثم يلتفت نحوي ويبدأ الركض قائلاً: "حسنٌ دعنا نذهب لنرى لوكريسيا".

عليك أن تجتاز خمس باحات مليئة بالأشجار والأدغال، ثم أن تتسلّق الحائط المنخفض الذي اخضرّ لونه من السحالي حيث اعتاد القزم الذي له صوت امرأة أن يغنّي. يتابع إبراهام الركض وقد أخذ يلمع مثل صفيحة معدنية تحت نور قويّ، وقد أنهك نباح الكلب كعبيه. ثم يتوقف وعندها نكون قرب النافذة. ننادي "لوكريسيا" بصوت منخفض وكأنّها نائمة، ولكنّها مستيقظة تجلس على سريرها، وقد نزعت حذاءها، ترتدي قميص نوم فضفاضاً أبيض ناصعاً يصل إلى كاحليها.

عندما نتحدّث ترفع لوكريسيا عينيها، وتجول بهما في أنحاء الغرفة، ثم تثبت علينا عيناً واسعة دائريّة مثل عين الكروان. ثم تضحك وتبدأ بالحركة نحو منتصف الغرفة. وتفتح فمها لتظهر أسنانها الصغيرة المكسورة. كان رأس لوكريسيا كرويّاً، وقد قصّت شعرها كالصبيان. تتوقّف عن الضحك عندما تصل إلى منتصف الغرفة، فتجلس

القرفصاء وتبقي نظرها مثبّتاً على الباب حتى تصل يداها إلى كاحليها. وتبدأ برفع ثوبها ببطء متعمد، وبحركة قاسية ومثيرة في آن واحد. كنا ما نزال نسترق النظر إليها أنا وإبراهام عبر النافذة، بينما ترفع لوكريسيا ثوبها وقد برزت شفتاها بتقطيبة ملهوفة وقلقة، تأخذ عيناها الكروانيتان الواسعتان تلمعان وتحدّقان. ثم نستطيع أن نرى معدتها البيضاء التي تصبح زرقاء اللون عند الأسفل عندما تغطّي وجهها بقميص نومها وتبقى على هذا الوضع متمدّدة في منتصف غرفة النوم، وقد ضمّت ساقيها بشدّة وبقوة مرتعشة تنبثق من كاحليها. وفجأة تنزع الغطاء عن وجهها، وتشير إلينا بسبّابتها، فتجحظ العين اللامعة وسط صراخ مخيف يتردّد صداه في أرجاء المنزل كلّه. ثم ينفتح باب الغرفة وتدخل المرأة، وهي تصرخ: "لم لا تذهبون وتضاجعون أمهاتكم؟"

لم نذهب لرؤية لوكريسيا منذ بضعة أيام، وها نحن الآن في طريقنا إلى النهر عبر المزارع. وإذا انتهينا من كلّ هذا في وقت مبكر سيكون إبراهام في انتظاري. لكنّ جدي لم يأت بحركة، فهو يجلس إلى جوار أمّي وقد أراح ذقنه على خيزرانته. أتابع مراقبته ومراقبة عينيه من خلف النظارة. لا بدّ أنّه يشعر أنّني أنظر إليه لأنّه يطلق فجأة تنهيدة عميقة ويهزّ نفسه قائلاً لأمّي بصوت حزين منخفض: "لو كان الكاهن موجوداً لأجبرهم على المجيء ولو اضطر لضربهم بالسوط." ثم ينهض من كرسيه ويتوجّه إلى حيث يرقد الميت.

إنّها المرّة الثانية التي أدخل فيه هذه الغرفة، فالمرّة الأولى كانت منذ

عشرة أعوام وحينذاك لم تبد الأشياء مختلفة عمّا هي عليه الآن، وكأنّه ما من يد مسّت شيئاً فيها منذ ذلك الوقت، أو كأنّ حياته لم تعد تعنيه منذ ذلك الفجر البعيد الذي انتقل فيه مع ميم ليعيشا هنا. كانت الأوراق ما تزال في مكانها وكذلك الطاولة وقطع الملابس الرخيصة. كان كلّ شيء في المكان الذي كان فيه سابقاً كما لو أنّ اليوم هو الأمس الذي أتيت فيه مع الكاهن لتسوية الأمور بين الرجل والسلطات.

في ذلك الوقت كانت شركة الموز قد توقّفت عن الضغط علينا، وغادرتْ ماكوندو مع النفايات التي جلبتها معها، ورحلت عاصفة الأوراق معها، ومع المآثر الأخيرة من مآثر الرخاء الذي عمّ ماكوندو عام ١٩١٥. وما بقي كان قرية معدمة ليس فيها سوى أربعة دكاكين فقيرة ومظلمة، يشغلها أناس غاضبون وعاطلون عن العمل، وقد أثار العذاب في أنفسهم ذكرى ماضٍ مزدهر ومرارة حاضر راكد ساحق، ولم يكن ما يلوح في المستقبل في ذلك الوقت سوى يوم أحد انتخابي كئيب ينذر بالخطر.

مرّت ستة أشهر إلى أن وجد الناس ذات صباح ورقة ليس عليها توقيع مسمّرة على باب هذا المنزل. لم تثر الورقة اهتمام أحد فكان أن بقيت على الباب فترة طويلة، إلى أن مسحت حروفها آخر الأمطار السوداء، واختفت فيما بعد حين مزقّتها رياح شباط الأخيرة. لكن في حوالي نهاية عام ١٩١٨ وحين حثّ موعد الانتخابات الحكومة على أن تبقي التوتّر على أشدّه بين الناخبين حدث أن توجّه أحدهم للسلطات الجديدة ليلفت نظرهم إلى هذا الطبيب الذي كان يعيش في عزلة والذي لا بدّ من وجود

دليل قانوني يشير إلى بقائه حيّاً بعد هذه المدة الزمنية الطويلة. كان لا بدّ من إبلاغ السلطات أنّ المرأة الهندية التي عاشت معه كانت قد فتحت دكّاناً خلال السنوات الأولى ولاقى هذا الدكّان النجاح الذي لاقته أكثر المشروعات الصغيرة التي كانت قائمة في ماكوندو في ذلك الوقت. ذات يوم (لايتذكر أحد التاريخ ولا اليوم كذلك) لم يفتح الدكّان أبوابه، واعتقد الناس أنّ الطبيب وميم كانا ما يزالان يعيشان هنا حبيسين في هذا المكان يقتاتان الخضار التي زرعاها بنفسيهما في حديقة الدار. لكن الورقة التي ظهرت عند ناصية الشارع كانت تنصّ على أنّ الطبيب قتل عشيقته ودفنها في الحديقة مخافة أن يحرّضها أهل البلدة على دسّ السمّ له. لكن ما يبعث على الغرابة في هذا الأمر أنّه قيل في وقت لم يكن فيه لأحد مصلحة في أن يدبّر مؤامرة لقتل الطبيب. أعتقد أن السلطات نسيت أمر وجوده إلى أن حلّ ذلك العام الذي عزّزت فيه الحكومة قوّات الشرطة والاحتياط بأفراد موثوقين من قبلها، وقاموا بنبش الأسطورة المنسيّة التي دارت حول الورقة المجهولة الأصل، وهذا ما دفع السلطات إلى اقتحام الأبواب وتفتيش المنزل وحفر باحته والتحقيق في الأمور الشخصيّة السريّة في محاولة لإيجاد جثّة ميم، غير أنّهم لم يجدوا لها أثراً.

رغبوا في تلك الحادثة أن يقوموا بجرّ الطبيب إلى الخارج لضربه، ولا بدّ أنّه كان سيصبح ضحيّة أخرى تضاف إلى سلسلة الضحايا في الساحة العامة تحت اسم النظام الرسميّ لولا أن تدخّل الكاهن. فقد جاء إلى

منزلي ودعاني لزيارة الطبيب لأنه كان واثقاً من قدرتي على الحصول على شرح مقنع منه.

عندما دخلنا المنزل من بابه الخلفي لم نجد إلا بقايا إنسان منبوذ مستلقٍ في أرجوحته.

في الحقيقة ما من شيء في العالم يثير الهلع أكثر من منظر حطام إنسان. وكانت حطام هذا المواطن الذي لا ينتمي إلى أيّ مكان، والذي نهض من رقدته عندما رآنا داخلين عليه أسوأ من ذلك بكثير. بدا كأنّ معطف الغبار الذي كان يغطّي كلّ ما في الغرفة كان يغطّيه هو أيضاً. بقي رأسه فولاذيّاً، ولم تزل عيناه القاسيتان الصفراوان تتمتّعان بتلك القوة الداخليّة الهائلة التي كانت تتمتعان بها حين يعيش معنا في المنزل. تصوّرت أنّنا لو قمنا بخمشه بأظافرنا لتداعى جسده أشلاء ولتحوّل إلى كومة من التراب الإنسانيّ. كان قد قصّ شاربه دون أن يحلقه تماماً أو استعمل مجزّاً للصوف لقصّ لحيته حتى لا تمتلىء ذقنه بالأشعار القاسية الحادّة بل بزغب أبيض ناعم. قلت في نفسي عندما رأيته في أرجوحته: إنه لا يبدو إنساناً الآن فهو أشبه ما يكون بجثّة ظلّت عيناها على قيد الحياة.

عندما تحدّث كان صوته هو نفس الصوت المجترّ الشحيح الذي جاء به إلى منزلنا. قال: إنّه لا يجد ما يقوله وأضاف، وكأنّه اعتقد أنّنا نجهل الأمر حول قوّات الشرطة التي اقتحمت أبوابه، وحفرت باحة منزله دون موافقته. لكن كلامه لم يكن احتجاجاً، بل كان نوعاً من الشكوى والبوح الحزين.

أما بالنسبة لميم فقد أعطانا تفسيراً بدا صبيانيّاً بالرغم من أنّه رواه بالنبرة نفسها التي اعتاد أن يقول بها الحقيقة. قال: إنّ ميم رحلت وهذا كلّ شيء فبعد إغلاقها المخزن أخذت تبدو قلقة في المنزل. فلم تعد تكلّم أحداً وقطعت كل حيلة لها بالعالم الخارجي. قال: إنه رآها تحزم أمتعتها ذات يوم، ولم يقل لها شيئاً كما أنّه لم يبد أيّ تعليق عندما رآها (وهي واقفة بباب الدار) في ثياب الخروج تنتعل الحذاء ذا الكعب العالي، وتحمل الحقيبة في يدها، لكن دون أن تفتح فمها بكلمة، وكأنّها قصدت من ذلك أن تعلمه أنها مغادرة، وأضاف: "عند ذلك نهضت وأعطيتها المال الذي كان متبقياً في الدرج."

سألته: "كم مرّ على ذلك أيّها الطبيب؟"

أجاب: "يمكنك أن تقدّر ذلك من شعري فهي من قصّه لي."

في تلك الزيارة لم يقل الكاهن ما يذكر. فمنذ اللحظة التي دخل فيها الغرفة أسره منظر الرجل الوحيد الذي لم يلتق به منذ وصوله إلى ماكوندو منذ خمسة عشر عاماً. لاحظت في ذلك الوقت (أكثر من أيّ وقت آخر، وربّما لأنّ الطبيب قصّ شاربه) ذلك الشبه الاستثنائي بين الرجلين. لم يكن الشبه كليّاً بينهما، ولكنّهما كانا أشبه بشقيقين يكبر أحدهما الآخر بعدّة سنوات ويزيد عليه نحولاً وهزالاً. كانت لهما ملامحهما المشتركة ملامح شقيقين، وإن كان أحدهما يشبه أباه والآخر أمّه. قلت له وقد تذكّرت تلك الليلة الأخيرة على الشرفة:

"هذا هو الكاهن يا دكتور. لقد وعدتني أن تقوم بزيارته ذات مرّة."

ابتسم، ونظر إلى الكاهن قائلاً: "إنك على حق يا كولونيل. لا أدري لماذا لم أقم بزيارته حتى الآن." وتابع النظر إليه وكأنّه يتفحّصه إلى أن قال الكاهن:

"لا يفوت الأوان أبداً لبداية حسنة. أريد أن أكون صديقاً لك."

وفي الحال أدركت أنّ الكاهن فقد قوّته المعتادة وهو يواجه هذا الغريب. كان يتحدّث ليقرأ التنبّؤات الجويّة من تقويم بريستول بنبرة علويّة متوعّدة.

كانت تلك المرّة الأولى والأخيرة التي قابل فيها أحدهما الآخر، غير أنّ عمر الطبيب لم يطل إلى هذا الصباح إلاّ لأن الكاهن تدخّل مرة ثانية لمصلحته في تلك الليلة التي توسلوا إليه فيها أن يهتمّ بالجرحى، فرفض حتّى أن يفتح الباب لهم وعندئذٍ أصدروا حكمهم الرهيب عليه والذي أخذت على عاتقي مهمّة الحيلولة دون تنفيذه.

كنّا قد أوشكنا على مغادرة لمنزل عندما تذكّرت شيئاً رغبت طيلة سنوات أن أستفسر عنه من الطبيب. أخبرت الكاهن أنّني سأبقى مع الطبيب بعض الوقت ريثما ينتهي من التوسّط مع السلطات. سألته عندما أصبحنا بمفردنا:

"أخبرني شيئاً." ماذا كان الطفل؟"

لم تتغيّر ملامحه، وسألني: "عن أيّ طفل تتحدّث يا كولونيل؟"

فقلت: "طفلك. كانت ميم حاملاً عندما غادرتما منزلي."

كان هادئاً ورابط الجأش عندما قال:

"إنّك على حق. لقد نسيت كلّ شيء عن الموضوع."

كان والدي صامتاً ثم قال: "لو أنّ الكاهن كان موجوداً لأرغمهم على القدوم حتى لو اضطرّ لاستعمال السوط." لاحت في عينيه عصبيّة تمكّن من كبح جماحها. مضى نصف ساعة حتى الآن ونحن ما نزال ننتظر (لأنّ الساعة الآن حوالي الثالثة). يساورني القلق بسبب حيرة الصبيّ والذهول الذي يبدو عليه ولا مبالاته الباردة التي تجعله شبيهاً تمام الشبه بأبيه. لا بدّ أن والدي سيذوب في هذا الهواء الذي يغلي في هذا اليوم من أيام الأربعاء تماماً كما حدث مع مارتين منذ تسع سنوات عندما ودّعني من نافذة القطار واختفى إلى الأبد.

ستكون تضحياتي دون جدوى إذا بقي شبيهاً بوالده، ولن تفيد بشيء توسّلاتي إلى الله ليجعل منه رجلاً من لحم ودم، إنساناً له حجم ووزن ولون مثل باقي الرجال. سيضيع كل شيء طالما أنّه يحمل في دمه بذور والده.

لم يرث الطفل شيئاً عن أبيه منذ خمس سنوات مضت، ويبدو الآن كأنّه بدأ يرث كلّ شيء عنه منذ أن عادت جينو فيفا غارسيا إلى ماكوندو مع أطفالها الستة، وبينهم أربعة توائم. كانت جينو فيفا عجوزاً سمينة ظهرت الأوردة الزرقاء حول عينيها مما أضفى مسحة من القذارة على وجهها بعد أن كان وجهاً نظيفاً متماسكاً فيما مضى.

أظهرت جينو فيفا سعادة صاخبة ملؤها الفوضى وسط قطيع الأحذية البيضاء الصغير وثياب الأورغندي المكشكشة. علمت أن جينو فيفا فرّت مع رئيس شركة لألعاب الدمى وشعرت بشيء من النفور لدى رؤيتي

لأولادهـا الـذين بـدوا وكـأنّهم يتحرّكـون بطريقـة آليـة وكـأنّ الـذي يحرّكهم هو تقنية مركزيّة واحدة. لقد كانوا هـم الستة متشابهين إلى حدّ يثير الأعصاب ينتعلون الأحذية نفسها ويزين ثيابهم الكشكش نفسه. كانت سعادة جينو فيفا المشوّشة تثير الحزن والألم في نفسي تماماً كما كان يحزنني وجودها المثقل بالكماليّات المدنيّة في بلدة مهدّمة أفناها الغبار. كان هناك شيء مرير سخيف بشكل لا يطاق في طريقة مشيتها وفي طريقة تظاهرها بأنّها محظوظة، وفي طريقة رثائها لأسلوب حياتنا الذي اختلف تمام الاختلاف على حدّ قولها عن أسلوب الحياة الذي عرفته برفقة لاعبي الدمى.

تذكّرت أوقاتاً أخرى حين نظرت إليها فقلت لها:

"لقد ازداد وزنك كثيراً" فبدت حزينة وقالت: "لا بدّ أنّها تلك الذكريات التي تزيد من وزن الإنسان." وتقف هناك تنظر إلى الصبيّ عن كثب وتقول: "ماذا حلّ بذلك الساحر ذي الأزرار الأربعة؟" فأجيبها في الحال لمعرفتي أنّها تدري بما حدث: "لقد رحل." فتسألني: "ألم يترك شيئاً سوى هذا؟" فأجيبها: "لا. فقط هذا الطفل." تضحك جينوفيفا ضحكة سوقيّة خليعة، وتقول: "لا بدّ أنّه كان شديد الرخاوة بحيث لم يستطع أن يخلّف لك إلا طفلاً واحداً خلال خمس سنوات." وتمضي قائلة، وهي ما تزال تتحرّك وتثرثر وسط قطيعها المضطرب: "أنا من كنت مجنونة به! أقسم إنّني كنت سأسرقه منك لولا أنّنا التقينا به أثناء سهرنا على الطفل الميت، لقد كنت كثيرة التطيّر حينذاك."

وقفت جينو فيفا تمعن النظر بالطفل قبل أن تودّعني، وقالت: "إنّه يشبهه تماماً وكلّ ما يحتاجه هو السترة ذات الأزرار الأربعة." ومنذ تلك اللحظة بدأ الطفل يزداد شبهاً بأبيه كما أرى وكأنّ جينو فيفا أحضرت معها لعنة هويّته. كنت أفاجئه في بعض الأحيان، وقد وضع مرفقيه على الطاولة، ومال برأسه على كتفه الأيسر، وهامت نظرته الضبابيّة في الفراغ. بدا مثل مارتين تماماً عندما كان ينحني على أواني القرنفل على السياج ويقول: "حتى وإنْ لم يكن من أجلك لوددت أن أقضي بقية عمري في ماكوندو." يساورني أحياناً شعور أنّه سيقول الجملة نفسها وأتساءل كيف يكون بإمكانه أن يقول هذه الجملة وهو جالس إلى جانبي يلفّه الصمت، ويتحسّس أنفه الذي امتلأ حرارة؟ سألته: "هل يؤلمك؟" فيجيب بالنفي، فقد كان يعتقد أنّه لا يستطيع أن يبقي نظارته على أنفه، فأقول له وأنا أفكّ ربطة عنقه: "لا تقلق بشأن ذلك. يمكنك أن ترتاح وتأخذ حمّاماً عندما نصل إلى المنزل." وحينذاك أرفع نظري إلى حيث كان أبي ينادي قائلاً: "كاتور" وهو أكبر هنود الكواخيرو سنّاً. إنّه هنديّ قصير القامة، متين البنيان، كان يدخّن وهو يجلس على السرير فيرفع رأسه عندما يسمع اسمه ويبحث بعينيه الصغيرتين الكئيبتين عن وجه أبي. لكن ما إن يوشك أبي أن يتابع حديثه حتى تُسمع خطوات العمدة في الغرفة الخلفيّة حيث كان يتعثّر في طريقه إلى غرفة النوم.

XI

كانت هذه الظهيرة مريعة بالنسبة لبيتنا. بالرغم من أنّ خبر موته لم يكن مفاجأة لي لأنّني كنت أتوقّعه منذ فترة طويلة، لكنّني لم أتخيل أنّ موته سيسبّب مثل هذا القلق في منزلي. كان لا بدّ أن يرافقني أحد لحضور مراسيم الدفن، واعتقدت أنّ زوجتي هي من عليها مرافقتي لا سيما وأنها تلازمني طيلة فترة مرضي منذ ثلاث سنوات ومنذ عصر ذلك اليوم الذي وجدت فيه، بينما كانت تفتّش أدراج منضدتي، العصا ذات المقبض الفضيّ واللعبة الراقصة التي يتم ملؤها. اعتقدت أنّنا حينذاك كنّا قد نسينا أمر اللعبة، ولكنّنا جعلناها تعمل عصر ذلك اليوم ورقصت فتاة الباليه كما كانت ترقص في مناسبات أخرى، وقد حرّكت فيها الحياة تلك الموسيقا التي كانت احتفاليّة فيما مضى، والتي غيّرها الصمت الطويل في الأدراج فجعل منها ألحاناً هادئة تثير الحنين في النفس. تابعت إديلايدا النظر إلى اللعبة وهي ترقص وتذكّرت، ثم استدارت نحوي وبدت على نظراتها مسحة من حزن خفيف.

سألتني: "بمن تذكّرك؟"

وعرفت بمن كانت إديلايدا تفكّر بينما كانت اللعبة تملأ الغرفة

حزناً بلحنها الصغير الذي طواه الزمن.

سألت زوجتي: "أتساءل ما الذي حلّ به؟" كانت تتذكّر، وقد هزّتها ذكرى تلك الأيام التي ظهر فيها عند باب الغرفة في الساعة السادسة عصراً، وعلق المصباح في الدهاليز.

فقلت: "إنّه هناك عند الزاوية. سيموت ذات يوم وسيتوجّب علينا دفنه."

بقيت إديلايدا صامتة مستغرقة في النظر إلى رقصة الدمية، وانتقلت إليّ عدوى حنينها إلى الماضي. قلت لها: "لطالما رغبت أن أعرف من حسبته يكون يوم وصوله إلينا، لقد قمت بتحضير تلك المائدة لأنّه ذكّرك بأحدهم."

فأجابت إديلايدا، وعلى وجهها ابتسامة مادية: "ستضحك منّي إذا أخبرتك بمن ذكّرني عندما وقف هناك عند الزاوية وبيده الدمية الراقصة." وأشارت إلى المكان الفارغ الذي رأته فيه منذ واحد وعشرين عاماً، وقد كان منتعلاً حذاءه ومرتدياً بذلة بدت مثل لباس عسكريّ.

اعتقدت أنّ زوجتي تصالحت معه في ذاكرتها في عصر ذلك اليوم لذلك أخبرتها أن ترتدي ثياباً سوداء الآن لترافقني. لكن الدمية عادت إلى الأدراج وفقدت الموسيقا تأثيرها. كادت إديلايدا تتلاشى الآن فهي حزينة محطّمة تقضي الساعات الطوال، وهي تصلّي في غرفتها. قالت لي: "إنّك وحدك من فكّر بدفن كهذا. بعد كل المصائب التي لحقت بنا لا ينقصنا الآن سوى لعنة السنة الكبيسة ومن بعدها الطوفان." حاولت أن أقنعها أنّ وعد شرف كنت قد قطعته له علاقة في هذه المسألة، فقلت: "لا نستطيع أن ننكر أنني أدين له بحياتي."

أجابت: "إنّه هو من يدين لنا بحياته. إنّ كلّ ما فعله عندما أنقذ حياتك كان أن يفي دين ثماني سنوات من المأوى والمأكل الثياب النظيفة."

ثم أحضرت كرسيّاً ووضعته قرب السياج، ولا بدّ أنّها ما تزال هناك وقد أظلمت عيناها من الأسى والتطيّر. بدا موقفها حاسماً لذلك حاولت تهدئتها، وقلت: "حسنٌ. سأذهب مع ايزابيل في هذه الحال." لم تبد جواباً بقيت جالسة في مكانها منيعة إلى أن حانت لحظة مغادرتنا، وقلت لها في محاولة لبعث السرور في قلبها: "اذهبي إلى المصلّى، وصلّي لأجلنا لحين عودتنا"، فأدارت رأسها نحو الباب وقالت: "سأمتنع حتى عن الصلاة. وستبقى صلواتي عديمة الجدوى ما دامت تلك المرأة ما تزال تأتي كل ثلاثاء لتطلب غصناً من بلسم الليمون." وكان يشوب صوتها نبرة تمرّد غامض مكبوت، وتابعت قائلة:

"سأبقى محطمّة ههنا حتى يحين يوم الدينونة، إلا إذا لم يلتهم النمل الكرسي قبل ذلك الحين."

توقّف والدي ومدّ عنقه، وهو يصغي إلى وقع الخطوات المألوفة تتقدم عبر الغرفة الخلفيّة، ثم نسي ما كان سيقوله لكاتور محاولاً أن يستدير وهو مستند على عصاه، لكن ساقه العاجزة لا تسعفه في الدوران، ويوشك أن يقع كما حدث له منذ ثلاث سنوات عندما وقع في وعاء عصير الليمون، ورافقته تلك الجلبة التي أحدثها الوعاء عندما تدحرج على الأرض والقبقاب والكرسيّ الهزّاز وصراخ الطفل الوحيد الذي شهد سقوطه.

فهو يعرج منذ ذلك الحين ويجرّ قدمه التي تصلبت بعد ذلك الأسبوع

مـن المعانـاة المريـرة والـتي حسـبنا أنّـه لـن يتعـافى منهـا أبـداً. وحـين أراه الآن يستعيد توازنه بمساعدة العمدة أعتقد أن تلك الساق العديمة النفع تختـزن سرّ التسوية التي سيقوم بها ضد مشيئة البلدة.

ربما يعود امتنانه إلى ذلك الوقت، منذ اللحظة التي سقط فيها مـن علـى الشـرفة وشـعر وكـأنّ أحـدهم دفعـه مـن فـوق بـرج علـى حـدّ قولـه، ومنـذ أن نصحه آخر طبيبين في ماكوندو بأن يحضر نفسه لميتة محترمة. أتذكّره في سريره في اليوم الخامس، وقد انكمش بين الأغطية. أتذكّر جسده الناحل مثل جسد الكاهن الذي حمله سكان ماكوندو إلى المقبرة في العام الماشي في موكب مزدحم مفعم بالزهور. وقد علا وجهه المهيب وهو في التابوت إذعان كئيب لا براء منه، ولا عزاء فيه مثل الإذعان الذي كنت قد رأيته على وجه أبي في أثناء تلك الأيام، التي ملأ فيها صوته أرجاء غرفة النوم بينما كان يتحدّث عن ذلك الجنديّ الغريب الذي ظهر ذات ليلة في مخيّم كولونيل أورليانو بونيديا أثناء حرب عام ٨٥، وقد زيّن قبّعته وحذاءه بجلد وأسنان ومخالب نمر وسألوه: "من أنت؟" ولم يجب الجنديّ الغريب، فسألوه من جديد: "من أين أتيت؟" ولكنّه لم يردّ عليهم أيضاً فسألوه: "إلى جانب من تحارب؟" ولم يحصلوا على ردّ من ذلك الجنديّ الغريب إلى أن التقط أحد المسنين مشعلاً وقرّبه من وجهه وتفحّصه للحظة وصاح متعجباً، وقد فقد روعه: "يا يسوع المسيح إنه دوق مارلبورو."

أمر الأطباء بغسله في خضم ذلك الهذيان المريع، وفعلنا كما أرادوا. لكن لم نلحظ إلاّ تبدلاً خفيفاً طرأ على معدته في اليوم التالي، وغادر

الأطباء المنزل وقالوا: إنّ نصيحتهم الوحيدة هي أن نجهّز له جنازة مناسبة.

غرقت غرفة النوم في جوّ من الصمت لا يسمع فيه سوى الرفيف البطيء والمنتظم لأجنحة الموت، ذلك الرفيف الغامض الذي يفوح برائحة إنسان قابع في مخادع الموتى. مرّت ساعات طويلة قبل أن يتحرّك أحد بعد أن قام الأب أنجيل بالشعائر الأخيرة، فقد كان الجميع ينظرون إلى صفحة الوجه النحيل لذلك الإنسان الذي لا فائدة تُرجى منه. قد دقّت الساعة وتأهبت والدتي لإعطائه ملعقة الدواء. كان هذا عندما سمعنا الخطوات الواثقة على الشرفة. أمسكت والدتي الملعقة، ويدها معلّقة في الهواء وتوقفت عن تلاوة صلواتها، واستدارت نحو الباب وقد جمدت مكانها وتورّدت بغتة: "أعرف هذه الخطوات حتى لو كنت في المطهر." قالت هذه الكلمات في اللحظة نفسها التي نظرنا فيها نحو الباب ورأينا الطبيب. كان عند عتبة الدار ينظر إلينا.

أقول لابنتي: "لو كان الكاهن على قيد الحياة لأجبرهم على القدوم حتى لو اضطرّ إلى ضربهم بالسوط." أتوجّه إلى مكان التابوت فأفكّر في نفسي: "اقتنعت منذ الوقت الذي غادر فيه الطبيب منزلنا أنّ تصرفاتنا تحكمّت فيها مشيئة سماويّة لا نستطيع التمرّد عليها حتى لو حاولنا بكلّ ما أوتينا من قوة، وحتى لو اتّخذنا ذلك الموقف العقيم الذي اتخذته إديلايدا عندما حبست نفسها للصلاة.

انظر إلى رجالي، بينما أقطع المسافة التي تفصلني عن التابوت، فأبدو هادئاً عديم الشعور. ثم أجلس على سرير واشعر أنّني أتنفّس أول نفس من

الأنفاس التي تتصارع حول الرجل الميت، كلّ تلك المادة المريرة للقدر الذي دمّر ماكوندو. لا أعتقد أنّ العمدة سيماطل في إعطاء إذن الدفن. أعرف أنّ الناس ينتظرون هناك خارجاً في الشوارع التي يحرقها الحرّ وأعرف أنّ هناك نساء ينتظرن على النوافذ يتلهفن لرؤية مشهد ما، وأنّهن سيبقين هناك يراقبن وقد راح عن بالهنّ أنّ الحليب يغلي على الموقد والأرز نشف. لكنّني أعتقد أنّ مشهد التمرّد الأخير هذا يفوق إمكانيات تلك الفئة المسحوقة المنهوبة من البشر. فقد تحطّمت قدرتهم على القتال منذ انتخابات يوم الأحد عندما تحرّكوا، ورسموا الخطط وتمّت هزيمتهم، وفيما بعد كانوا لا يزالون يعتقدون أنّهم سادة تصرفاتهم. لكن بدا أنّ كلّ هذا تقرّر وقضى أن يوجّه الأفعال التي ستقودنا خطوة خطوة إلى يوم الأربعاء المصيريّ هذا.عندما حلّ بنا الدمار منذ عشرة أعوام كانت القوّة الجماعيّة لأولئك الذين عملوا على الخروج من المحنة كافية لإعادة إعمار البلدة من جديد. كلّ ما كنّا بحاجة إليه هو الخروج إلى الحقول التي خلفتها شركة الموز. ونقوم بتنظيفها من الأعشاب للبدء من جديد من الصفر. لكنّ عاصفة الأوراق كانت قد تعلّمت منهم قلّة الصبر وعدم الإيمان لا بالماضي ولا بالحاضر. لقد علّموها أن تؤمن باللحظة الآنيّة وأن تشبع منها شرهها. فقد كنّا بحاجة إلى وقت قصير فقط لندرك أنّ عاصفة الأوراق غادرت، إنّ إعادة الإعمار مستحيلة بدونها، فقد أحضرت عاصفة الأوراق معها كلّ شيء، وأخذت معها كلّ شيء، وكلّ ما تبقى بعدها كان يوم أحد في حطام بلدة ونظام انتخابيّ حاضر على الدوام في

آخر ليلة من ليالي ماكوندو، يضع تحت تصرّف رجال الشرطة والاحتياط أربع جرار من الخمر في الساحة العامة.

لو تمكّن الكاهن من السيطرة عليهم تلك الليلة، رغم حقيقة أنّ تمرّدهم كان لا يزال في أوجه فبإمكانه اليوم إذاً أن يتجوّل من بيت إلى آخر مسلّحاً مثل كلب قنّاص كي يجبرهم على دفن هذا الرجل. فقد تمكن الكاهن من السيطرة عليهم بيد من حديد.

وحتّى بعد أن مرّت أربع سنوات على موته وقبل سنة واحدة من مرضي تجلّى ذلك الانضباط في الطريقة المشبوبة العاطفة التي كانوا يقطفون بها كلّهم الزهور والشجيرات من حدائقهم ليحملوها إلى قبره تقديراً أخيراً منهم له.

كان هذا هو الرجل الوحيد الذي تخلّف عن الدفن. كان تماماً الرجل الوحيد الذي يدين بحياته لإذعان البلدة الكامل والمتناقض لكاهن البلدة.

لأنّه في تلك الليلة عندما وضعوا الجرار الأربعة من الخمر في الساحة وغدت ماكوندو بلدة يحكمها البرابرة المسلّحون، بلدة يعصف بها الرعب فتدفن موتاها في قبر جماعي، في تلك الليلة لا بدّ وأنّ أحدهم تذكّر أنّ هناك طبيباً يعيش عند ناصية الشارع وعندها سارعوا إليه بالنقّالات حتى باب بيته وصاحوا قائلين (لأنّه لم يفتح الباب بل خاطبهم من الداخل) "يا دكتور عليك أن تعتني بأولئك الجرحى إذ ليس ثمة ما يكفي من الأطباء هنا." فأجابهم: "خذوهم إلى مكان آخر فأنا لا أعرف

شيئاً." قالوا له: "إنّك الطبيب الوحيد هنا وعليك القيام بعمل الخير." فأجاب(وما يزال الباب مغلقاً) وقد تخيله الحشد وسط الغرفة يحمل المصباح عالياً وتشتعل عيناه القاسيتان الصفراوان. "لقد نسيت كلّ شيء تعلّمته عن الطبّ. خذوهم إلى مكان آخر." وبقي مكانه والباب مغلق (لأنّ الباب لم يفتح أبداً) بينما كان رجال ماكوندو ونساؤه يموتون أمامه. كان الحشد قادراً على القيام بأيّ شيء تلك الليلة. كانوا يستعدون لإضرام النار في المنزل ليحوّلوا ساكنه الوحيد إلى رماد. ولكن ظهر الكاهن حينئذٍ وقالوا كأنّه كان موجوداً هناك غير مرئيّ واقفاً كالحارس ليمنع دمار المنزل والرجل. وقد قيل: إنّ الكاهن صرخ: "لن يلمس أحد هذا الباب"، وكان هذا كلّ ما نطق به ومدّ ذراعيه وكأنّه فوق صليب، وأضاء الغضب البادي على وجه الناس، وجهه البارد الخالي من أيّ تعبير، والشبيه بعظم وجه البقرة، ثم تمّت السيطرة على زمام الأمور وتبدّل الوضع، لكن بقي الناس يملكون القوّة لينطقوا بالحكم الذي سيؤكد مجيء يوم الأربعاء هذا ولو بعد وقت طويل.

فكّرت في نفسي بينما كنت أتوجّه نحو السرير لأخبر رجالي أن يفتحوا الباب: سيأتي بين لحظة وأخرى الآن. فإن لم يصل خلال خمس دقائق سأخرج التابوت دون أيّ إذن، وسأضع الميت في الشارع فأجبره على القيام بدفنه أمام المنزل. أنادي "كاتور" وهو أكبر رجالي وما إن يرفع رأسه حتى أسمع خطوات العمدة تقترب من الغرفة المجاورة.

أعرف أنّه سيتقدم نحوي مباشرة، وأحاول أن أستدير على عقبي، وأنا

أستند إلى خيزرانتي ولكن ساقي العاجزة تخذلني، فأتقدم نحو الأمام وأنا متأكّد من أنّني سأقع وسيصطدم رأسي بالتابوت، غير أنّني أتعثّر بذراعه وأتمسّك بها بقوة وأسمع صوته الذي تشوبه حماقة مسالمة يقول: "لا تقلق أيّها الكولونيل، فإنّني أؤكد لك أن شيئاً لن يحدث." وهو ما كنت أعتقده، ولكنّني أعلم أنّه يقول هذا ليشجّع نفسه، فأقول له: "لن يحدث شيءٌ وأنا أعتقد العكس. ثم أسمعه يتحدّث عن أشجار السيبة في المقبرة، ثم يسلّمني التصريح بالدفن فأطويه دون أن أقرأه، وأضعه في جيب الصدار وأقول له: "على أيّة حال، إنّ كلّ ما سيحدث لمقدّر أن يحدث وكأنّه كُتب من قبل في التقويم."

يتوجّه العمدة نحو الهنود ويطلب منهم أن يسمّروا التابوت، ويفتحوا الباب وأراهم يتحرّكون، ويبحثون عن المسامير والمطرقة التي ستمحو صورة ذلك الرجل إلى الأبد، ذلك الرجل المحترم الذي ليس له ما يحميه والمجهول الأصل والذي رأيته للمرّة الأخيرة منذ ثلاث سنوات واقفاً بجانبي، وأنا على فراش المرض، وقد حطّمت الشيخوخة المبكّرة رأسه ووجهه، وكان لتوّه قد أنقذني من الموت حينئذٍ. بدا كأنّ القوة التي جاءت به إلى هنا وأوصلت إليه خبر مرضي هي نفس القوّة التي جعلته يقف إلى جانب سريري، ويقول:

"عليك أن تمرّن تلك الساق قليلاً، وربّما عليك أن تستعمل العصا من الآن فصاعداً."

بعد يومين سألته عمّا أدين له به، فأجاب: "إنّك لا تدين لي بشيء يا

كولونيل. ولكن، إن أردت أن تصنع معي معروفاً فغطّني بحفنة تراب عندما أموت ذات صباح. إنّ كل ما أريده هو أن لا تأكلني العقبان بعد موتي."

كان واضحاً من الوعد الذي جعلني أقطعه له وفي الطريقة التي عرضه بها، وفي إيقاع خطواته على قرميد الغرفة أنّ هذا الرجل بدأ رحلة الموت منذ زمن طويل بالرغم من أنّ ثلاث سنوات كانت ستمرّ قبل أن يتحقّق تماماً ذلك الموت المؤجّل والمعيب. حتى حلّ هذا اليوم وأعتقد أنّه لم يكن بحاجة حتى إلى تلك الأنشوطة. كان يكفي أن تهبّ نسمة خفيفة لإطفاء وهج الحياة الأخير الذي كان باقياً في عينيه القاسيتين الصفراوين. شعرت بكلّ هذا منذ تلك الليلة التي تحدثّت فيها معه في غرفته الصغيرة قبل أن يأتي ليعيش هنا مع ميم. لذلك لم أشعر بالانزعاج عندما جعلني أعده بما سأقوم به الآن، وقلت له ببساطة:

"لا داعي لأن تطلب منّي هذا الطلب فإنّك تعرفني وعليك أن تعرف أنّني سأدفنك على رؤوس الجميع حتى وإن لم أدن لك بحياتي."

قال وهو يبتسم وقد رانت الطمأنينة في عينيه القاسيتين الصفراوين للمرّة الأولى:

"إنّ هذا كلّه صحيح يا كولونيل. لكن لا تنس أنّ ميتاً لن يكون قادراً على دفني."

لن يكون بوسع أحد أن يمحو هذا العار، فقد سلّم العمدة إذن الدفن لأبي الذي قال بدوره: "على أية حال، كلّ ما حدث كان مقدّراً له أن يحدث وكأنّه كتب في التقويم."

قال عبارته بالاستسلام نفسه الذي سلّم به نفسه إلى مصير ماكوندو وقد كان أميناً على صناديق الأمتعة التي حوت ثياب كلّ الذين ماتوا قبل أن آتي أنا إلى هذه الحياة. بدأ كلّ شيء يتدهور منذ ذلك الحين بما في ذلك طاقة زوجة أبي وشخصيّتها المسيطرة القويّة العزم والتي تبدلّت إلى شكّ مرير. بدت بعيدة وصامتة أكثر فأكثر. وكانت خيبة أملها كبيرة حتى إنّها جلست عصر هذا اليوم قرب السياج، وقالت: "سأبقى منهارة ههنا حتى يوم الدينونة."

لم يفرض أبي إرادته على أيّ شيء من جديد. نهض اليوم فقط ليفي بذلك الوعد المشين الذي قطعه على نفسه. وها هو متأكّد أنّ الأمور ستنتهي على خير بينما كان يراقب الهنود الكواخيرو وهم يتحرّكون لفتح الباب وإغلاق التابوت. أراهم يقتربون شيئاً فشيئاً فأقف وأمسك الصبي من يده، واسحب الكرسيّ نحو النافذة حتى لا يراني سكّان البلدة عندما يُفتح الباب.

تملّكت الصبي الحيرة. نظر إليّ مليّاً حينما نهضت ولاح على وجهه تعبير لا يوصف. بدا عليه شيء من الضيق، ولكنّه الآن مستغرق في حيرته، وهو إلى جواري يراقب الهنود الذين يتصبّبون عرقاً من الجهد الذي كانوا يبذلونه لفتح المزلاج. انفتح الباب على مصراعيه عبر نشيج حديد صدىء قويّ حادّ. وأرى الشارع من جديد كما أرى الغبار الأبيض الملتهب المتوهّج الذي يغطّي المنازل والذي أضفى على البلدة ذلك المظهر الباعث على الأسى كقطعة أثاث على وشك أن تتحطّم. وكأنّ الله أعلن

ماكوندو بلدة لم يعد لها أيّ ضرورة، فرمى بها إلى الزاوية مع المدن الأخرى التي لم يعد لها أيّة فائدة للبشر.

رفع الصبيّ الذي بهره النور المفاجئ في اللحظة الأولى رأسه فجأة (وارتجفت يده في يدي عندما انفتح الباب) وكان تفكيره مركّزاً ومتنبّهاً فيسألني: "أتسمعين؟"

وعندها فقط أدركت أنّ كرواناً في أحد الباحات المجاورة يعلن الوقت فأجيبه: "نعم، لا بدّ وأنّ الساعة الثالثة الآن." في تلك اللحظة تقريباً دوّت أول ضربة مطرقة على المسمار.

وفي محاولة لتجنّب الإصغاء إلى ذلك الصوت المتسارع الذي يجعل بدني يتخدّر، وحتى أمنع الصبّي من أن يلاحظ ارتباكي أستدير بوجهي ناحية النافذة فتلوح الكآبة في الصفّ التالي من البيوت وأرى أشجار اللوز المغبّرة، وأرى بيتنا القابع في المؤخرة تهزّه أنفاس الدمار الخفيّة فتصل به إلى شفير انهيار صامت وساكن. كانت ماكوندو بأسرها على هذا الشكل منذ أن قامت شركة الموز بعصرها يعشعش اللبلاب في البيوت، وتنمو الطحالب في الأزقّة، وتنهار الجدران، وتجد الإنسان مثل عظاءة في غرفته في منتصف النهار.

بدا أنّ كلّ شيء كان ينهار منذ أن توقفنا عن زراعة إكليل الجبل والناردين، ومنذ ذلك الحين الذي قامت فيه يد خفيّة بكسر أطباق عيد الميلاد في الخزانة وبوضع العثّ ليسمن على الملابس التي لم يعد يستعملها أحد. فعندما ينخلع أحد الأبواب ما من يد ماهرة تعمل على تصليحه. وفقد

أبي القدرة على الحركة كالسابق بعد تلك السقطة التي أصابته بالعرج. لم تكن سينيورا ربيكا، من وراء مروحتها الأزليّة، تهتمّ بأيّ شيء من شأنه أن يردّ هجوم جوع الحق الذي حرّكته في صدرها حياة ترمّلها العقيمة والمعذّبة. فأغويدا مقعدة وقد سحقها مرض دينيّ صامد، ولا يبدو أن شيئاً بات يرضي الأب أنجيل فيما عدا الاستمتاع أثناء قيلولته بمذاق طعم الكفتة التي تسبّب له عسر الهضم بشكل دائم. وبدا أنّ الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو أغنية توأم القديس جيروم وتلك المرأة المتسولّة الغامضة، التي لا يبدو عليها أنّها تتقدم في العمر والتي ثابرت على المجيء إلى المنزل كلّ يوم ثلاثاء ولمدة عشرين عاماً لتحصل على غصن من بلسم الليمون. ولا يقطع الصمت سوى صوت صافرة قطار صدىء أصفر اللون يصفر أربع مرات في اليوم، ولا يحمل أحداً إلى أيّ مكان.

ويقطع هذا الصمت في الليل دويّ محطة الكهرباء التي خلّفتها شركة الموز عندما غادرت ماكوندو.

كنت أستطيع رؤية المنزل من خلال النافذة، وكنت واثقة أنّ زوجة أبي هناك جالسة في كرسيها دون حراك وتحسب أنّ الرياح الأخيرة ستهبّ، وتمحو المدينة قبل أن يقدّر لنا العودة من المقبرة. سيكون الجميع قد عادوا حينئذٍ ما عدانا نحن لأنّنا مشدودون إلى هذه الأرض بملء غرفة من الصناديق تحتوي اللوازم المنزلية وثياب الأجداد والأسلاف والخيام والقبب التي استعملتها خيول والدي عندما قدموا إلى ماكوندو هاربين من الحرب. إنّ الذي غرسنا في هذه الأرض هو ذكرى موتانا البعيدين

والذين لا يمكن العثور على عظامهم، ولا حتى على عمق عشرين قامة تحت الأرض. بقيت الصناديق في الغرفة منذ أيام الحرب الأخيرة وستكون في مكانها عصر هذا اليوم حين عودتنا من الدفن إن لم تهبّ الرياح الأخيرة، تلك الرياح التي ستمحو ماكوندو بمخادعها المليئة بالسحالي وبسكّانها الصامتين الذي قصمت ظهرهم الذكريات.

ينهض جدّي فجأة، ويستند إلى عصاه ويمدّ رأسه مثل العصفور حيث تبدو النظارة عليه وكأنّها جزء من وجهه. أعتقد أنّه يصعب عليّ أن أضع نظّارة لأنهّا ستنزلق من أذني لدى أقلّ حركة أقوم بها. أفكّر في هذا الأمر، وأنقر على أنفي فتنظر إليّ أمي وتقول: "أيؤلمك؟"، فأجيبها بالنفي وبأنّني فقط كنت أفكّر أنّه لا يمكنني أن أضع نظّارات. فتبتسم وتتنفس ملء صدرها قائلة: "لا بدّ أنّك تبلّلت عرقاً. وكانت محقّة فقد كانت ملابسي تحرق جسدي فتلك البدلة المصنوعة من القطيفة الخضراء المضلّعة السميكة والمزرّرة حتى الأعلى كانت تلتصق بجلدي بسبب العرق وتسبّب لي شعوراً بالحكّة. أجيبها: "نعم". تنحني أمّي عليّ، وتفكّ ربطة عنقي. وتفتح ياقة البذلة، وهي تقول: "يمكنك أن ترتاح، وتستحمّ عندما نصل إلى المنزل." وأسمع صوتاً ينادي: "كاتور".

يدخل الرجل ذو المسدس مرّة أخرى في تلك اللحظة من الباب الخلفيّ. ينزع قبعته عند المدخل ويمشي بحذر لئلا يوقظ الجثّة، لكنّه في الحقيقة يقوم بذلك ليفاجىء جدّي الذي يستيقظ نحو الأمام عندما يدفعه الرجل فيتعثر ويحاول أن يتمسّك بذراع الرجل نفسه الذي حاول أن يوقعه. توقف

الآخـرون عـن التـدخين وكـانوا مـا يزالـون جالسـين علـى السـرير ﴿ صـفّ واحد مثل أربعة غربان على حصان منشرة. ثم ينهض أحـدهم ويتوجّـه نحـو المنضدة، ويلتقط صندوق المسامير والمطرقة.

يتحـدّث جـدي إلى الرجـل الواقـف إلى جـوار التـابوت. يقـول الرجـل: "لا تقلق أيّها الكولونيل. يمكنني أن أؤكّد لك أنّ شيئاً لن يحدث". ويقـول جـدي: لا أعتقـد أنّ شـيئاً سـيحدث." يقـول الرجـل: "يسـتطيعون دفنـه في الخـارج قـرب جـدار المقبـرة الأيسـر حيـث ترتفـع أطـول أشـجار السـيبة." ثـم يعطي جدّي قطعة من الورق ويقول لـه: "سـترى أنّ كـل شـيء سـينتهي علـى خير." يستند جدّي إلى عصاه بيد ويأخذ منه الورقة باليد الأخرى ويضعها في جيـب صـداره حيـث يحـتفظ بسـاعته الذهبيّـة الصـغيرة المربّعـة ذات السلسلة ثم يقول: " على أية حال إنّ مـا يحـدث مقدّر لـه أن تحـدث وكأنّـه كُتب من قبل في التقويم."

يقول أحد الرجال: "إنّ بعض الناس يُطلّون من النوافذ، لكنّ هذا ليس إلا من دواعي الفضول، فالنساء دائماً يتفرّجن على شيء ما." غير أنني لا أعتقـد أنّ جـدّي سمعـه لأنّـه كـان ينظـر إلى الشـارع عبر النافـذة. عندئـذٍ يتحرّك الرجل ويتوجّه نحو السرير ويستعمل قبعته كمروحة ليخفّف الحرّ عـن نفسـه، ويقـول للرجـال: "يمكـنكم أن تسـمّروا التـابوت الآن وافتحـوا الباب بينما تقومون بذلك حتى تدخل الغرفة نسمة هواء."

بـدأ الرجـال العمـل، فينحني أحـدهم علـى التـابوت بالمطرقـة والمسـامير ويتوجّه الآخرون نحو الباب. تنهض والـدتي، وهـي شـاحبة وتتصبّب عرقـاً،

فتسحب كرسيّها وتأخذني من يدي، وتدفعني جانباً حتى يمرّ الرجال المتوجهّون لفتح الباب.

حاولوا في بادىء الأمر أن يديروا المزلاج الذي لاح كأنّه ملحوم برتاجات الباب الصدئة لكنّهم فشلوا في تحريكه، وكأنّ هناك شخصاً ما يقوم بدفعه بكلّ ما أوتي من قوّة من جهة الشارع. وعندما يرمي أحد الرجال بثقله على الباب ويدفعه تمتلىء الغرفة بصوت صرير الخشب ومفصّلات صدئة وأقفال لحمها الزمن طبقة فوق طبقة، ثم ينفتح الباب ويبدو هائلاً وكأنّ شخصاً يمكنه المرور منه وهو على أكتاف شخص آخر.

يصدر الباب أيضاً صوت صرير طويل للخشب والحديد اللذين استفاقا. وقبل أن يكون لدينا متسع من الوقت لنكتشف ما حدث يتفجر الضياء في الغرفة ويندفع إلى مؤخرتها ليصبح قويّاً ومثالياً لأنّهم أزاحوا الحاجز الذي حجب النور مدة قرنين وبقوّة مئتي ثور. يسقط الباب داخل الغرفة ويجرّ معه ظلال الأشياء أثناء سقوطه الناريّ. ولاح الرجال بعدها واضحين على نحو شديد مثل وميض البرق وقت الظهيرة، ثم تعثّروا وبدا وكأنّه عليهم أن يتماسكوا فيما بينهم لئلاّ يصرعهم النور أرضاً.

بدأ كروان تغريده في مكان ما من البلدة عندما فُتح الباب. أستطيع الآن أن أرى الشارع وأستطيع أن أرى الغبار الملتهب المتوهّج. كما أستطيع أن أرى عدّة رجال واقفين على الرصيف المقابل ينظرون نحو الغرفة وقد تشابكت أيديهم. أسمع غناء الكروان مرّة أخرى وأقول لأمي: "أتسمعينه؟" فتجيب: نعم، لا بدّ أنّها الساعة الثالثة. لكنّ آدا أخبرتني أنّ

الكروان يغنّي عندما يشمّ رائحة إنسان ميت. كنت على وشك أن أخبر أمّي بهذا عندما سمعت صوت المطرقة الحادّ على رأس أوّل مسمار. وظلّت تضرب وتملأ الغرفة بصوتها، ثم تقف برهة، لتعود وتضرب من جديد جارحة الخشب ستّ مرّات متتالية، فيستيقظ الصوت الحزين المتثائب للألواح النائمة بينما تشيح أمّي بوجهها عنها لتنظر من النافذة إلى الشارع.

عندما توقفت المطارق استطعنا أن نسمع عدّة كروانات تغنّي. يشير جدّي إلى رجاله فينحنون نحو التابوت، ويلمسونه بينما يقول له أحدهم – وهو من جلس عند الزاوية وقد بدا الغضب عليه وانتفخت أوداجه، واحمرّت رقبته مثل رقبة ديك في عراك - لكنّه لم يقل شيئاً. غير أنّ الرجل هو الذي تحدّث من مكانه في الزاوية: "ما من أحد في البلدة يتذكّره.

شعرت في تلك اللحظة برعشة في معدتي، وأشعر الآن أنّني سأخرج مرّة ثانية. لكنّني أرى أنّ الأوان قد فات. فقد انتهى الرجال من آخر عمل بقي أمامهم. نهضوا واقفين مثبّتين أقدامهم في أرض الغرفة، وكأنّ التابوت يعوم في النور كما لو أنّهم كانوا في طريقهم إلى دفن سفينة ميتة.

أعتقد أنّ الكروانات ستشمّ الرائحة الآن، وعندها ستغرّد جميعاً في وقت واحد.

١٩٥٥

المحتويات